طارق العباسي

علامات على طريق العمر



الحضارة العربية

إهـــــــداء ٢٠١٢

الاستاذ المهندس طارق العباسى

الامارات العربية المتحدة

علامات على طريق العمر



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، فى إطار المشروع الحضارى العربي المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين — عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات — القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

طارق العباسي

علامات على طريق العمر



الكتاب: علامات على طريق العمر

الكاتب: طارق العباسي

الناشر: مـركـز الحضـارة العربيـة

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠١١

الغلاف

تصميم وجرافيك: محمد النوبي

الجمع والصف الإلكترونى:
وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: محمود عبد الفتاح

رقم الإيداع 2011/16939

الترقيم الدولي 978-977-496-091-8

تم كتابة جميع فصول هذا الكتاب قبل
ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١

العباسي، طارق
علامات على طريق العمر: طارق العباسي.
– ط١. – الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١١.
٢١٦ص: ٢٠سم
تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٤٩٦-٠٩١-٨
١- القصص العربية.
أ- العنوان.
٨١٣

إهداء

إلي أمي الغالية التي غرست في نفسي الإيمان والأمانة وكانت مثالا صادقا للتفاني في أداء الواجب وقدوة في إتقان العمل.

فليرحمها الله ويجعل لها أجرا غير ممنون مع الصديقات الصالحات.

طارق العباسي

محتويات الكتاب

مقدمة

بعد الإنتهاء من أداء صلاة المغرب عدت لأجلس في السرادق أتقبل العزاء في والدتي وما هي إلا دقائق قليلة حتى بدأ المعزون في التوافد حتى امتلأ السرادق وجلس أغلبهم لسماع ربع أو ربعين من التلاوة ثم قام مسلما هامسًا بكلمات المواساة وذهب ليفسح مكانًا لغيره. كان بينهم الكثير من أشهر الأطباء والجراحين من أساتذة جامعة الإسكندرية وكذلك شخصيات من قادة وكبار ضباط القوات المسلحة. وكان هناك بعض رجال الأعمال من أصحاب الريادة في مجال الصناعة والبناء. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك الجيران والمعارف وأصحاب الحوانيت من سكان الحي والبعض من هيئات التمريض بمستشفيات الجامعة والقوات المسلحة بالإضافة إلى الشباب من أصدقاء أبناء أخوتي والكثير من الأقارب. جاء البعض وفاءً وحبًا للوالدة والبعض الآخر جاء مواسيا لما تربطه من علاقات الصداقة أو الزمالة أو الجيرة بخالي أو أخواي أو أحد من الأقارب.

إلتفت مستطلعًا حين توقفت إحدى السيارات وفتح السائق بابها لينزل منها رجلا تجاوز الستين من العمر فقام أخي مسرعًا من مجلسه ليستقبل القادم وظننت للوهلة الأولى أنه أسرع إليه بسبب مكانة رفيعة أو شهرة ذائعة ولكني أدركت بعد لحظات أن الرجل كان ضريرًا وأن أخي قد قام مرحبا به تقديرًا لمجيئه. لم يكن هذا الرجل فقط من لفت نظري ولكن كان من بين الوافدين الكثير الكثير ممن جاء وهو يتكئ على عكاز من المرضى الذين يترددون على أخواي. كان منهم من يعالج من عجز مؤقت ومنهم من قد أصابه عجز دائم بسبب السن أو بسبب إصابة

توجته بطلًا أثناء حرب ١٩٧٣. أخذت أحدث نفسي بأن الدنيا مازالت مليئة بالخير فلا يمكن أن يكون كل هؤلاء قد أرهقوا أنفسهم بالمجيئ رياءً أو نفاقًا بل هو حب صادق ووفاء لصديق.

لم يكن هناك من جاء ليعزيني من بين تلك المئات من الرجال عدا من هو من الأهل والأقارب. حتى ذلك الرجل الذي عرفته منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاما وكان يعمل أستاذا في كلية الهندسة أدركت أنه لم يجيء من أجلي بل جاء ليواسي أخي الذي كان هو وزوجته زملاء دراسة لزوجته. وهنا أدركت أني قد أصبحت نسيًا منسيًا وأنه لم يعد لي من صديق بل ولم يعد يعرفني أحد في مدينتي الحبيبة الإسكندرية التي ولدت ونشأت وتعلمت فيها وقد عملت أيضا بها لبضع سنين.

تفكرت في الأمر وأدركت أنه عند موتي قد لا يذكرني أحد بإستثناء أولادي وبعض الأقارب وسوف أُمحى من الذاكرة دون أن أترك أثرًا أو علامةً على هذا الكوكب الذي كرمنا الله ووكل إلينا إعماره. ثم عاودت أصبر نفسي بأن لي معارف وأصدقاء في مدينة أبوظبي التي إستقر بي الحال فيها منذ كنت في الثامنة والعشرين من عمري. ولكني لم أستطع خداع نفسي فشعرت بالحسرة لمرور العمر وأنا أعيش هناك في شريحة ضيقة من الأصدقاء الذين يعمل أغلبهم في قطاع البترول ويأخذ عددهم في النقصان بمرور الوقت فمنهم من هاجر إلى بلاد المهجر ومنهم من جاوز سن التقاعد فترك العمل وغادر البلد ومنهم من عاد إلى موطنه لاحقًا بأهله أو متقلدًا وظيفة جديدة أو راعيًا لأعماله الخاصة. وبمرور الوقت وطول الفراق تتحول الصداقة إلى ذكرى قديمة قد يتذكرها العقل حينًا ويغفل عنها أحيانًا.

ما يقلقني حقًا هو شعوري بأني لم أترك علامات واضحة خلال السنوات الطويلة التي عشتها خارج مصر. فكأني قد أضعت العمر في

وضع بصمات باهتة على رمال الشاطىء التي إن لم تمحوها نسمات الخريف المتتالية فبالتأكيد ستمحوها موجة واحدة من موجات البحر. لم أمكث في مصر إلا ستة سنوات بعد تأهلي كمهندس وقبل سفري إلى الإمارات قضيت بعضها في الخدمة الإحتياطية بالقوات البحرية ثم إلتحقت لأشهر قليلة بالوظيفة التي كلفت بها بالقطاع العام ثم أتبعت ذلك بالتنقل بين عدة وظائف بالقطاع الخاص. بالرغم من قصر تلك الفترة فقد كان إنخراطي في المجتمع أوسع وتفاعلي مع المتغيرات من حولي أشد. تأثرت بالغير وأثرت فيهم. تعلمت وعلمت ووضعت لمساتي هنا وهناك وبادلت أفكاري وهواجسي مع من حولي. كان الإيقاع أسرع والأفق أوسع.

قد يسرني من حين إلى آخر سماع كلمة من أحد أولادي أو إحدى بناتي ينوهون فيها بما علمته إياهم أو يشكرون بها حسن نشأتهم وأتمنى عند ذلك أن تكون كلمة حق تحتسب في ميزان حسناتي وألا تكون مجرد مجاملة للأب الذي قارب على الستين من عمره. كذلك أسعدني كثيرا سماعي بعض الزملاء القدامى من غير المصريين يستشهدون بدرس علمته لهم أو حكمة حفظوها عني وذلك عندما قابلتهم بعد فراق دام ما يقرب من إثنى عشر عاما. ولكن هذا لا يكفي ولا يمكن أن أعتبره بصمة واضحة أتركها في الدنيا قبل ذهابي عنها. فكرت كثيرا وجائني خاطر بأن ألجأ إلى الكتابة كطريقة لتوصيل ما أرغب في قوله إلى دائرة أوسع من المعارف في كلا البلدين.

قد يمر الناس في طريق سفر طويل ولا يتركون ورائهم أثرًا وقد يتوقف بعضهم ليرسم اسمه على جدار أو ينقشه على حجر أو يحفر وجه حبيبه على جذع شجرة ظنا خاطئًا منه أن ذلك قد يخلد ذكراه. بالطبع لم يكن هذا ما أبغيه ولكني أردت أن أصنع من فصول كتابي هذا علامات أضعها عند كل موقع توقفت عنده في طريق رحلة عمري كي أرشد بها

الآخرين من أجيال عاصرتها أو أجيال تأتي من بعدي ليتجنبوا خطأ قد إقترفته أو كبوة وقعت بها وليصلحوا نقصًا رصدته أو يكملوا نجاحًا أحصيته وليحصلوا علما ألممت به أو يدركوا حكمة انتفعت بها.

راجعتني نفسي وحدثتني بأنه قد لا يكون هناك الكثير في بلادنا ممن يشترون الكتاب ويقضون وقتهم في قراءته بعد أن شغلت الإنترنت عقول الشباب وخطفت القنوات الفضائية بأفلامها وتمثيلياتها وأغنياتها ومبارياتها ألباب الجميع إلا من رحم ربي منهم وكذلك ذهب الكثير منهم إلى إضاعة الساعات من وقته في اللعب على الأجهزة الإلكترونية المتقدمة مثل "بلاي ستيشن ٣" و "إكس بكس". ولكني قاومت هذه الأفكار المثبطة للعزيمة وعزمت أمري على أن أمضي قدمًا في إعداد هذا الكتاب ونشره والعمل على توصيله إلى أيدي الكثيرين عسى أن يكون بينهم قاريء ينتفع به. وحدثت نفسي ساخرا بأنني إن لم أستطع تسويقه فسوف أوصي بتفريقه مجانا على المعزين عند مماتي فكثيرًا ما كنت أرى في مجالس العزاء من يوزع كتيبات بها أدعية وأحاديث على المعزيين.

إن أكثر الكتب التي تلخص التجارب وتستخلص الدروس الشخصية قد كتبت بأيدي المشاهير من أهل الأدب والعلم والسياسة. تعددت خبراتهم وتخصصاتهم ولكن ما كان يجمع بين كثير منهم هو الشهرة. وكما نعلم فإن الشهرة تتحول في كثير من الأحوال إلى سياج يحيط بصاحبه فيمنعه من الإختلاط بكل طبقات المجتمع والتعرف على حقائق الأمور ويدفعه إلى قصر اختلاطه على أهل الصفوة والمريدين. لم أكن يومًا من هؤلاء المشاهير الذين تتشمم أخبارهم الصحف وتترصد حركاتهم عدسات المصورين بل كنت دائمًا في أوسط المجتمع. انخرطت مع طبقات الشعب المختلفة وساعدتني وظيفتي على التمرس في تحليل نظم المعلومات فتمكنت عبر السنين من إرساء قدرات عالية في تحليل

الأمور وردها إلى أصلها وتشخيص أوجه القصور والبحث عن العلاج. كان مما يلفت نظري افتقار مجتمعاتنا إلى السماع لرأي الإنسان العادي الذي يشعر بما تشعر به الأغلبية وحتى إن لم يصبه الألم فمن المؤكد أنه قد رآه في عين قريب وإن لم تغمره السعادة فمن المؤكد أنه رآها في عين حبيب. الإنسان العادي الذي يرى من أوجه النجاح والفشل ما قد يعجز عن رؤيته من علت مكانته وذاعت شهرته فلم يعد يرى الدنيا إلا من وراء عدسات خادعة. بالرغم من كل ذلك فإنني لا أستطيع أن أنكر أن تجربة الإنسان قد لا تكون مفيدة للغير إلا بتميزها.

لقد أنعم على الله بتجربة متميزة في الحياة فقد ساعدتني إقامتي خارج مصر مع استمرار زياراتي لها على فترات متقاربة على أن أرى أحوال البلاد بصورة أشمل وأنظر إليها عن بعد قبل التدقيق في تفاصيل الأمور وما أشبه ذلك بنظرة الصقر حين يرتفع إلى السماء فيرى الصورة كاملة ولا ينقض إلا بعد أن يحدد هدفه بوضوح. لقد مكني ذلك في الكثير من الأحيان على رصد بعض التفاصيل الدقيقة التي لا يلحظها من إنغمس في ضوضاء الحياة وراح يلهث وسط زحامها. ساعدني العمل بالإمارات على التعرف من قريب على الكثير من الزملاء الذين ينتمون إلى العديد من الجنسيات العربية وغير العربية وخالطتهم في العمل وخارج العمل فتكونت لدي بعض قناعات عن سلوكيات الأفراد والشعوب. ثم زادت كثرة الأسفار من خبرتي فقد زرت العديد من بلدان العالم بغرض السياحة أو لحضور المؤتمرات والتدريب أو لعقد الاجتماعات وتبادل الآراء أو لتقديم الاستشارات الفنية. تفاوتت مدد زياراتي للبلدان من أيام قليلة إلى أشهر عديدة. لقد قمت بمئات السفريات نزلت خلالها بتسعة دول عربية وعشرة دول أوربية ودولتين أفريقيتين وخمسة دول آسيوية بالإضافة لخمسة ولايات أمريكية. وصل عدد المدن التي رأيتها بعيني إلى حوالي المائة وخمسين مدينة داخل مصر وخارجها.

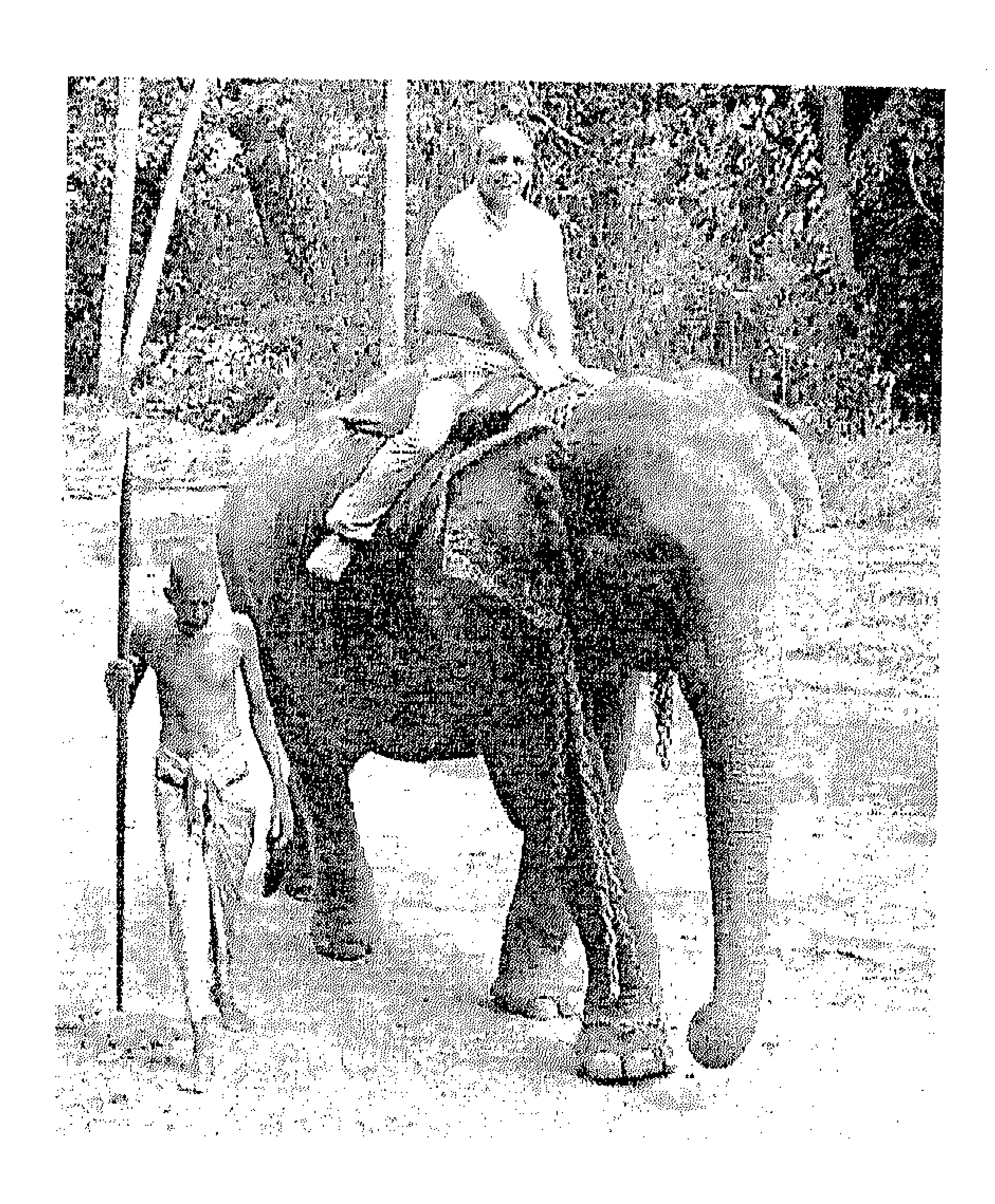
بدأت سلوكياتي وقناعاتي تتغير عندما عملت كاستشاري لدى إحدى الشركات العالمية. كان من متطلبات الوظيفة أن أقضي معظم وقتي لدى العملاء فبدأ ارتباطي بالمكان يقل فلم أعد أهتم بأن يكون لي مكتبًا مميزًا ولم أعد أسعي كي تكون المساحة الخاصة بي واسعة تمتلأ بالأرفف والكتب والمراجع والمستندات. أصبح اعتمادي أكثر على حاسبي الشخصي أضعه في الحقيبة التي أحملها على كتفي. رضيت بأي مكان يوفره لي العميل. قد يوفر لي مكتبا في غرفة خاصة أو مشاركة مع الآخرين بل وفي بعض الأحيان لم يتوفر لي إلا مكان في "بورتكامب" صغير. غالبًا ما كانت الشركات التي أذهب إليها تقع خارج الإمارات فأقيم هناك لعدة أيام ثم أعود في نهاية الأسبوع إن كانت في بلاد الخليج أو في نهاية الشهر إن كانت في بلاد تقع وراء البحار. تعودت على أن أعمل بجد وتفان أثناء ساعات العمل وما بعدها ولكن إذا جاء يوم السفر واقترب ميعاد الطائرة ووصل السائق ليقلني إلى المطار فإني أسرع بحمل حقائبي تاركا كل شيء يتعلق بالعمل ورائي على ما هو عليه مهما كانت أهميته لحين العودة في أسبوع تال إن كان في العمر بقية. لقد روض ذلك المنهاج من الحياة نفسي وأدركت أن كل شيء مهما كانت أهميته ستجيء لحظة يجب على فيها تركه وكأني أستحضر أمامي ما نقل من الحديث عن رسولنا الكريم ﷺ حين قال "إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها".

لم أرغب في جعل هذا الكتاب سردا لسيرة حياتي فمن أنا بين مشاهير هذا الزمان كي يقبل الناس على قراءة سيرتي. بل أحببت أن أحشد فيه بعض المشاعر والأفكار التي استقرت بوجداني أو مرت سريعًا بذهني ولم أجد من حولي من أنقل إليه أو أهمس في أذنه بما يجول بخاطري. كان منهجي هو تقسيم الكتاب إلى فصول بكل منها موضوع قد يكون مستقلًا بذاته أو يكون مكملًا أو مرتبطًا بشكل ما بموضوع ورد في

فصل آخر من فصول الكتاب. وضعت لكثير من المواضيع أبطالا فجعلت من نفسي بطلا لبعضها وإتخذت من بعض الشخصيات الحقيقية التي حرفت أسمائها أبطالًا لبعضها الآخر وأما المواضيع الباقية فقد نسجت لها أبطالًا من الخيال. وكذلك نسجت فصول هذا الكتاب من مزيج من أحداث قد عشتها بنفسي أو رأيت شخص أعرفه يمر بها ثم أضفت إلى ذلك أحداث تخيلت وقوعها من حولي كي أكسب النسيج رونقه وأستطيع تجسيد الفكرة في شكل محسوس.

وقبل أن أترك القارئ يتجول في أنحاء الكتاب أرجو منه المعذرة بسبب قدراتي المحدودة في النحو والبلاغة ولا أرغب في أن أنفي القصور عن نفسي وأرفع اللوم عنها ولكني أريد أن أسجل حقيقة بأن جيلي قد نشأ في حقبة من الزمان بدأ فيها تغلغل الضعف في نظم التعليم وأهمل فيها تدريس قواعد وأصول اللغة التي كرمها الله وجعلها لغة للذكر الكريم. ولكنني قد تحديت هذا الوضع وقررت ألا يوقفني الشكل عن المضمون فلجأت إلى لغة سهلة وبسيطة. بعدت عن كتابة الشعر لعدم تمكني من علومه وأوزانه فاستعنت بالعامية في بعض فصول الكتاب لأعبر بها عن بنات أفكاري حين لزم مزج النغم مع الكلمة كي تصل إلى قلب القارئ ولا تتوقف عند أذنيه.

تجربة مسافر



كما ذكرت في مقدمة الكتاب فإني قد قمت بمئات السفريات زرت خلالها تسعة دول عربية وعشرة دول أوربية ودولتين أفريقيتين وخمسة دول آسيوية بالإضافة لخمسة ولايات أمريكية شاهدت فيها من خلق الله صحراء ووديانًا وجبالًا وبحارًا وخلجانًا. أقمت خلالها بمدن كبيرة كالقاهرة وباريس ولندن وهيوستن ودلهي وكراتشي وكوالالمبور وأنقرة وإسطنبول والدار البيضاء. وسكنت الجبال في تسوج بسويسرا، وماري بباكستان وخيمت بصحراء عمان والواحات البحرية وخورفكان وتجولت بغابات كينيا وتنزانيا وكاليفورنيا وماليزيا، ووقفت متأملًا أمام الكثير من بحيرات أوكلاهوما. صعدت إلى قلاع الروم في الكرك والأيوبين في القاهرة واللاذقية والإغريق في أزمير والعثمانين في البسفور والأندلسين في ملقة. وقفت مسبحا للخالق البديع أمام تدفق الماء من شلالات يوسمتي بكالفورنيا وشلال يوركا بالمغرب، والعيون المعدنية بجبال حتا العمانية. ركبت النيل بين الأقصر وأسوان، وعبرت البحر من كاليه إلى دوفر. صعدت على سطح العبارات والبواخر التجارية العملاقة كما صعدت على سطح المدمرات ولنشات الصواريخ. واستمتعت بركوب الفلوكة في النيل والقوارب الضيقة بمياه بانكوك كما سعدت بالجندول في قنوات فينيسيا.

أدركت كم كان الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عالمًا وحكيمًا حين قال في فوائد السفر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشةٍ وعلمٍ وآدابٍ وصحبة ماجد

وقد قال أيضًا مشجعًا على السفر:

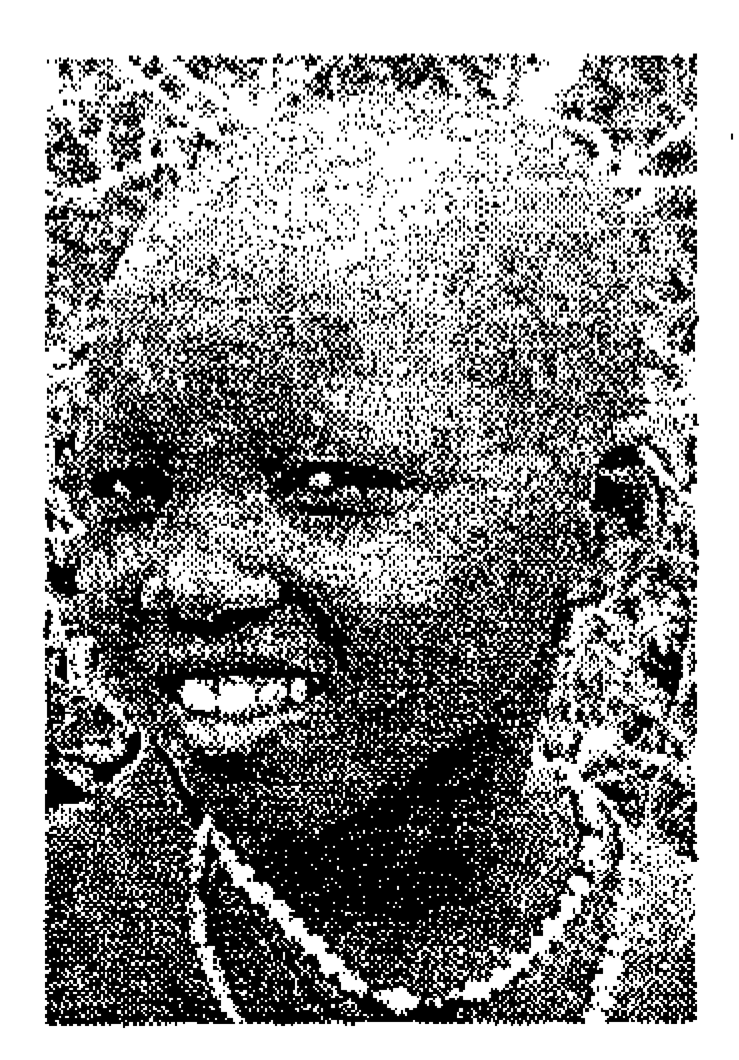
مـا في المقام لـذي عقـلٍ وذي أدب	مـن راحة فـدع الأوطـان واغتـرب
سـافر تجـد عوضـًا عمـن تفارقـه	وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إنـي رأيـت وقـوف المـاء يفسـده	إن سـاح طاب وإن لم يجر لم يطـب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست	والسهم لولا فراق القوس لم يصـب
والشـمس لو وقفت في الفلك دائمـة	لملها الناس مـن عجـم ومـن عـرب
والتبـر كالتـرب ملقـي فـي أماكنـه	والعود فـي أرضه نوع مـن الحطـب
فـإن تغـرب هـذا عـز مطلبـه	وإن تغـرب ذلـك عـز كالـذهـب

لا تقاس تجربة المسافر بالمسافات التي قطعها والأيام التي اغتربها بل بالقدر الذي أصاب من الفوائد الخمسة التي لخصها الأمام الشافعي ببلاغة في بيت واحد من الشعر. فكم من أبناء بلادنا العربية من سافر وتنقل في أرجاء العالم ولم تزد معرفته إلا بالقدر الهين اليسير فإن سألته عن أخبار ما رأى يصف لك أماكن التسوق وبيوت الأزياء الراقية أو يعدد أسماء المطاعم التي تقدم ما لذ وطاب من الطعام أو أماكن اللهو والتسلية. أما البعض الآخر فلا يعود إلا بالأخبار عن أماكن الرذيلة وعن تجاربه التي يحكي عنها بلا حياء. وإني لأحمد الله كثيرًا أن جعل لي في أسفاري العديد من الفوائد فبالإضافة لما حصلت عليه من الرزق فقد إكتسبت من العلم والآداب ومعرفة الناس ما لم أكن أستطيع تحصيله في عشرات السنين إن مكثت ساكنا في المكان الذي ولدتني فيه أمي.

ما رأيت من أخلاق الناس

رأيت من أخلاق الناس الكثير فرأيت إحترام بعضهم لبعض أثناء إقامتي في الولايات المتحدة. رأيت كيف تحترم إشارات المرور، وكيف يتوقف السائق للماشي، وكيف يصطف الناس في انتظار دورهم، وكيف يبتسم الشاري في وجه البائع، وكيف يتحدث البائع بلباقة مع عملائه؟!

رأيت كيف تعامل معي شرطي المرور بكل إحترام حين أوقفني ليلا بسبب زيادة السرعة في الطريق بين طلسا وبارتلسفيل ثم إكتفى بتحذيري لأنه كان الخطأ الأول لي. وجدت نظاما ولم أجد زحاما ولم أر العبوس على وجه أي من الموظفين عندما ترددت على سفارات لبلدان يقدر تعداد شعوبها بأضعاف شعوبنا ويقل متوسط دخل الفرد عندهم عما عندنا. أحببت الإبتسامة على الوجوه السمراء في تنزانيا وكينيا. إبتسامة لم تقتصر على الميسور منهم بل أيضًا كست وجوه البسطاء والفقراء وكأنهم قد رموا بهمومهم خلف ظهورهم وقالوا بلغتهم السواحلية "هاكونا ماتاتا" بما معناه "ليس هناك مشكلة".


ابتسامة طفل تنزاني

وفي المقابل رأيت كيف يتعدى الكثيرون على حقوق الآخرين في بلادنا العربية لمجرد شعورهم بالأفضلية نتيجة الإنتماء العائلي أو العرقي أو بسبب الثراء وإن لم يكن فبأسلوب الفهلوة والبلطجة. ورأيت كيف يتعامل بعض المترددون على الأسواق ومراكز التسوق الحديثة في بلادنا مع البائعين بصلف وكأنهم عبيدًا مارقين. رأيت كيف يتكاسل بعض البائعون خاصة في محلات القطاع العام وكيف لا يعيرون اهتمامًا للمشتري ويبخلون عليه حتى بالابتسامة ورد التحية.

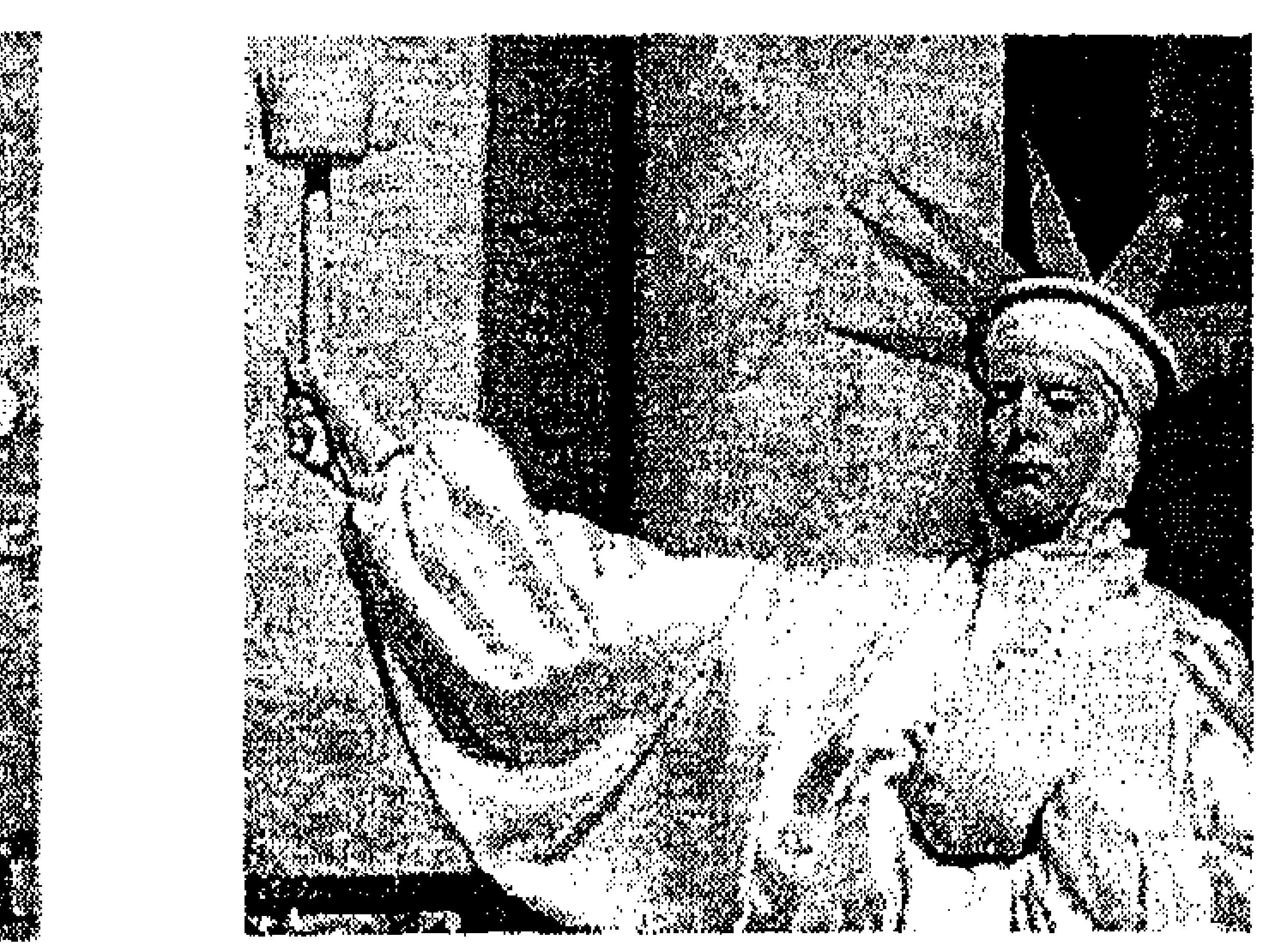
رأيت شعوبًا في أوربا وأمريكا وفي شرق آسيا ينامون مبكرًا ليستيقظوا مع بصيص أول أضواء الفجر ناشطين ساعين في طلب الرزق، ورأيت في المقابل عندنا من يسهرون الليل ويبدأون يومهم متكاسلين بعدما ينتصف النهار.

رأيت كيف ترتدي المرأة الملابس الخشنة وتعمل بأعمال البناء القاسية وبنظافة الشوارع وتنسيق الحدائق في شوارع رومانيا، ورأيت كيف تنقل

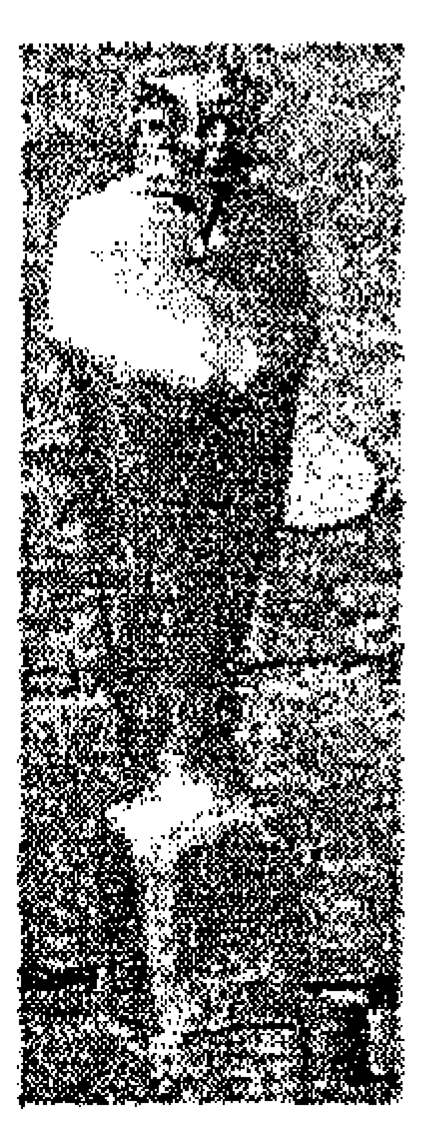
على كتفها صناديق المشروبات في جد ببعض مطاعم هيوستن، ورأيت كيف خرجت المرأة إلى شوارع صنعاء ساعية وراء مصالحها وكيف عملت بعضهن في كنس الشوارع بالرغم من التزامهن بارتداء النقاب. وفي المقابل رأيت بعض النساء العاملات في بلادنا العربية تذهبن إلى العمل وقد أكثرن من زينتهن ثم تقضيين الكثير من أوقاتهن في إجراء المكالمات التليفونية أو التسامر مع بعضهن البعض.

رأيت الأمانة عندما طلب صديقي طبق من لحم النعام في أحد مطاعم دنفر بكلورادو فسألت النادل إن كان النعام يصعق أم يذبح بالسكين فلم يفت بلا علم بل ذهب إلى المطبخ وقام ببعض الاتصالات ثم عاد وأكد أنه يذبح يدويا لأن حجمه أكبر من المقاس المسموح به في خط الإنتاج الآلي بالمجزر.

رأيت المتسولين والبائعين المتطفلين يسببون الضجر في الأماكن السياحية بالقاهرة ومراكش كما رأيتهم في تدمر بسورية وعلى مقربة من الحرم في مكة ورأيتهم عند إشارات المرور في صنعاء وفي الكثير من الأماكن في دلهي.



التسول في روما



التسول في روما

وفي المقابل رأيت متسولين يتقنون عملهم ولا يسببون الإزعاج للآخرين بل يتنافس المارة على إلتقاط الصور التذكارية معهم. رأيتهم في شوارع أمستردام وأترخت أمام آلة البيانولا الشهيرة، ورأيتهم يعزفون الموسقى على الجيتار في لندن، ورأيت الإبداع في باريس وروما من هؤلاء الذين يرتدون ملابس لشخصيات مشهورة أو تاريخية ويقفون كالتماثيل بلا حراك في الميادين العامة والأماكن الأثرية. ورأيت أيضًا الفنانين يبدعون في رسم الصور الرائعة بالطباشير على أرصفة فلورنسا ويجنون من وراء ذلك ما يسد حاجتهم من المال. .



الرسم على أرصفة فلورنسا



التسول في بلويشت برومانيا



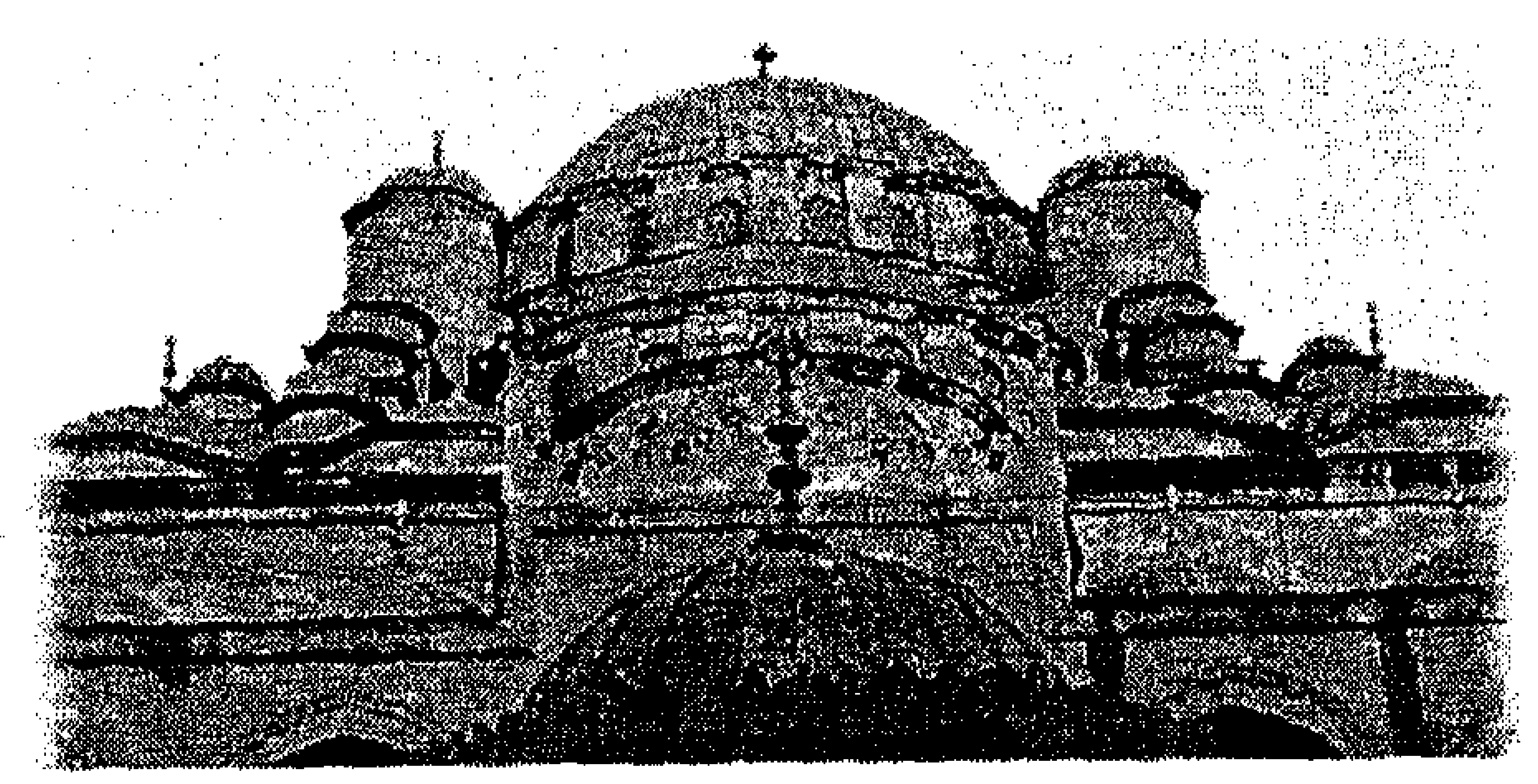
التسول بالثعبان في دلهي

رأيت الاحتفاء والتقدير لإحدى المومياوات الفرعونية وضعت في تابوت من الزجاج الفاخر وعرضت بمتحف الفاتيكان. وفي المقابل رأيت عشر مومياوات مكسيات بالقماش المشبع بالذهب وقد وضعوا في صناديق متهالكة من زجاج رخيص بمخزن حقير بمتحف بالواحات البحرية. ولقد روعني ما رأيت من الإهمال والتقصير فقد وضع أحد المسؤلين عن المتحف كيسا من القطن الطبي داخل أحد الصناديق ليسند به رأس أحدى المومياوات. ليت شعري أتعجز هيئة الآثار عن إعداد صناديق حسنة المظهر لحفظ المومياوات من التلف.

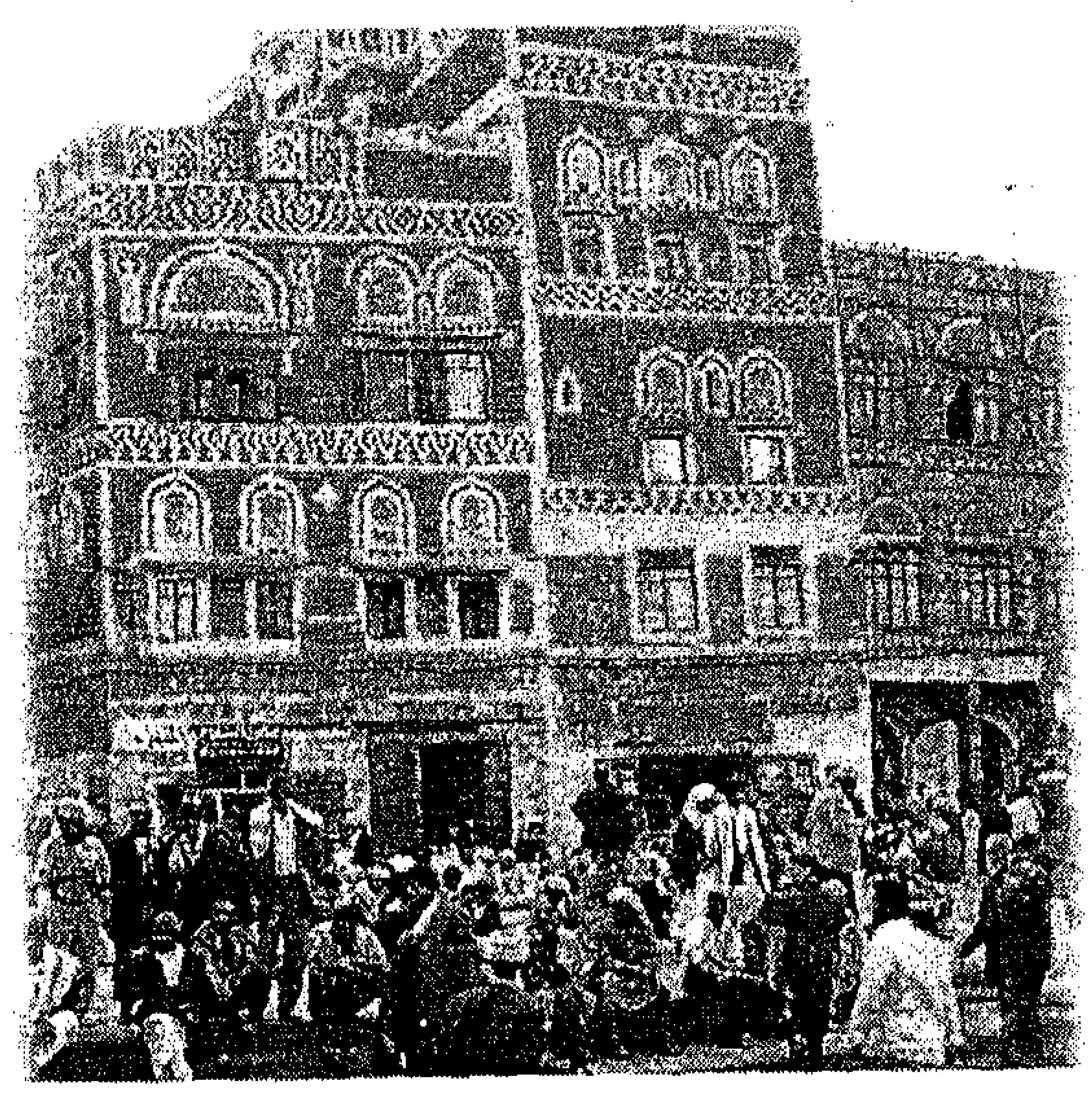
ما أحببت من البلاد

أحببت المشي في قاهرة المعز بادئًا من باب الفتوح بشمالها إلى باب زويلة بجنوبها ومارا بما تمتلئ به من مساجد وتكيات ومدارس وخانات تنافس في تشيدها الفاطميون والأيوبيون والمماليك وكنت أستمتع بالنظر إلى ما حولي من تجار البصل والنحاسين والخيامية. وأمضيت الساعات متجولا بين حواري دمشق القديمة بجوار المسجد الأموي وخلف سوقها القديم وعند مقهى النوفرة الشهير. وجدت نفسي ضئيلًا في وسط إستانبول عندما وقفت أمام جوامعها الشامخة ذات القباب المتعددة. رأيت فيها فنًا فريدًا نتج عن امتزاج حضارة بيزنطا العريقة بحضارة الترك المسلمين. ووقفت مزهوًا داخل مسجد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة متأملًا ما وصل إليه الاهتمام بالعلم وبطلبته في عصر الحضارة المملوكية وتكرر المشهد حين وقفت مرة أخرى بمدرسة بن يوسف بمراكش التي جعل منها السعديون محرابًا يقصده طالبوا العلم من أنحاء العالم. مدارس آوت آلاف الطلاب وكرم فيها العلماء وتخرج منها من نبغ في علوم الدين والدنيا.

أحببت عبق الحضارة يفوح من عواصم الإسلام العظيمة ولم تكتمل سعادتي حتى عبرت باب اليمن ودخلت إلى صنعاء القديمة وظننت أني قد ركبت آلة الزمان وغصت في أعماق الماضي السحيق. وكدت أن أقسم أنه لو إختفت السيارات وأسلاك الكهرباء من الطرقات لما أدرك الزائر إن كان في قرننا هذا أم فيما سبقه بعشرات القرون.. .



مساجد إسطنبول



باب اليمن بصنعاء القديمة

رأيت باريس وأنا في العشرين من عمري فاستولت على مشاعري وكأنها فتاة قد أوتت من الحسن ما لم تظفر به غيرها فلم يكفها ذلك بل ذهبت تضع على جسدها الحرير والديباج وكحلت عيونها السوداء وغسلت وجهها بماء الورود وزينت جيدها باللؤلؤ المعقود. عدت إليها في رحلة عمل بعد سبع سنين فوجدت حسنها في زيادة وكل معالمها جذابة ثم تركتها وقلبي إليها مشدود فلم أستطع أن أغيب عنها إلا كالمرة الأولى سبع سنين لأعود إليها سائحًا جوالًا ثم تركتها مرة أخرى وعاودت الكرة بعد خمسة عشر عاما فلم أجد عليها أثرًا للسنين وكأنها ما زالت في شبابها القديم.

كنت في الرابعة والخمسين من العمر عندما قررت تحقيق حلمي القديم واتخذت طريقي إلى روما. بالرغب من إشتياقي إلى الذهاب إليها إلا أن ذهني كان قد شغل بحشد من أحداث التاريخ. فلقد كانت عاصمة لدولة واجهتنا بالحديد والنار حين كان شعبنا يعبد آمون وإيزيس وزاد ظلمها عندما أصبح بالإسكندرية أعظم كنيس وأعماها الحسد ففرضت لكنيستها الزعامة واضهدت في بلدنا كل ناسك وقديس فهربوا بدينهم وعاشوا في أديرة الصعيد رهبانًا. ولم يصرف الروم عنا أن هدانا الله إلى عبادة التوحيد بل زادهم ذلك حقدًا وطغيانًا فأرسلوا إلينا السفن وجيشوا الجيوش فهزموا بالإسكندرية وعادوا إلى بلادهم مدحورين. لم يكن العداء يومًا عداء مذهب أو دين بل كان صراعًا بين ظالم ومظلوم وبين ناهب ومنهوم.

عندما وقعت عليها عيناي نسيت كل ما دار في ذهني ولم أشعر إلا وقد أصابتني الحمى كعاشق ولهان فنسيت ما أحببت قبلها من البلدان. لم تكن بحاجة للتجمل والتزين كصاحبتها باريس لم تكن مثلها في ريعان الشباب بل كانت كامراة في منتصف العمر جمالها خلاب وسحرها جذاب تأسر القلوب بابتسامة وتشغل العقول بإيمائة. قضيت أيامي في نشوة أنهل من فنونها وأمتع نظري بحسن قوامها. أينما خطوت وجدت

تحفة قائمة وأينما نظرت وجدت مباني شيدت ورسوم نقشت وتماثيل نحتت ونوافير أبدعت. مدينة تتحول ميادينها ليلا إلى مسارح وساحاتها إلى مطاعم وتزدحم طرقاتها بالعباد وتمتلئ مقاهيها بالأحباب..

وكلما عدت من سفري إلى أبوظبي أخذت أتأملها من جديد وكأنني أراها لأول مرة. فمهما عشق القلب وتعلق النظر وشغل العقل فلها مكانها المحفوظ وكأنها أخت حنون في سن الصبا فتحت قلبها للجميع وراحت تنشر بينهم الزهور. كل ما فيها جديد وكأن شوارعها قد سطرت تسطيرا ورتبت المباني من حولها ترتيبا بتصميمات جذابة وإرتفاعات عملاقة. وجدت فيها النظافة وحسن الرونق وعهدت بها الهدوء والراحة ولمست في أهلها دماثة الخُلق. وأغرب ما في المدينة أنها تغير جلدها من آن لآخر فيذهب القديم إلى زوال ليستبدل بجديد فإن غبت عنها عشر سنوات إستغربت أمرها حين تجد مبني قد اختفى ليحل مكانه بنيان يفوقه إرتفاعا ويزداد عنه أناقة وترى البحر قد ردم ليفسح عشرات الأمتار كي ينتقل إليها طريق الكورنيش ولقد رأيت بعيني النادي الذي قضي أولادي فيه أحلى سنين عمرهم يختفي ويظهر مكانه مول ورأيت الحديقة التي أمضينا فيها وقتا من شبابنا تتوارى أشجارها لتصبح موقفا للسيارات.

سألني البعض لماذا مازلت تعشق إسكندريتك القديمة فإن كنت تحن



تماثيل روما الخلابة

للبحر والشطئان فعندك ما يعوضك عنها ولماذا مازلت تذهب في أجازتك لتنظر إلى الأزهر والحسين وتسير بين القصرين ألا يكفيك ما تجده في الخالدية من راحة وألا يسري عنك التجول بين مراكز دبي للتسوق من خيراتها وللنظر إلى أبراجها. فأجبت على سائلي بأن الفارق كبير بين رغيف ذو رائحة نفاذة تأكله عند الحواوشي بالتوفيقية وشريحة لحم أمريكية مما يطلق عليها "تندرليون ستيك" تأكلها طازجة طرية في مطعم من المطاعم الأرستقراطية. فبالرغم من علمك بما يحويه الأول من خليط من اللحم والشحوم ممزوج بالفلفل الحار والبهار المطحون فإنك أمامه لا تستطيع أن تقاوم وتستمتع بالتهامه وكأنك تبتلع حمما من بركان ثائر. أما الآخر فلحمه فاخر ولكن طاهيه يتبع نظم التغذية بطريقة طبية فلا يخلطه بالتوابل ولا يضيف إليه أى من الزيوت الحيوانية. فالأمر ليس بالتنسيق والترتيب بل هو مشاعر وعواطف يتبعها ميل وإنجذاب وحب مجنون.

تنوع الأحوال

تعمقت المعرفة التي اكتسبتها أثناء أسفاري بسبب التنوع في المستوى المادي الذي أتاح لي مشاهدة نفس البلدة أكثر من مرة. فرأيتها مرة بعين المسافر المحروم ومرة بعين السائح الميسور ومرة أخرى بعين الضيف المأثور.

ففي زيارتي الأولى لباريس عندما كنت طالبا نزلت بفندق رخيص كنت أدفع فيه تسعة عشر فرنگا مناصفة مع أحد الأصدقاء مقابل الليلة الواحدة وكنا نذهب في بعض الليالي للمبيت بين الأشجار أمام برج إيفل كي نقلل من إستنزاف ما نحمله من مال محدود في زمن كان شراء الفرنك والدولار والخروج بهما من مصر يعد من الجرائم التي يعاقب

عليها القانون . وتغير الوضع في زيارتي التالية لأوربا بعد سبع سنوات فنزلت في فندق تشيرشر العريق بميدان بورتمان بوسط لندن وكانت الإقامة شاملة للوجبات الثلاث.

أقمت ليلتان في لوكاندة محمد على الكبرى بالإسماعيلية الخالية المهدمة بعد حرب استمرت سبع سنوات وكان لا يمكن تقييم هذا الفندق في ذلك الزمان إلا بأقل من ربع نجمة بينما ترددت بعد عقد من الزمان على الفنادق ذات الخمسة نجوم أثناء سفرياتي المتعددة إلى الولايات المتحدة ودول الخليج وكنت أنزل بها أسابيع بل وأشهرًا كاملة. وبالرغم من إقامتي بتلك الفنادق فقد كنت أخرج للتجول بين الحين والآخر لأروض نفسي وأعيدها إلى التواضع بالتردد على بعض المطاعم الشعبية..



رياض بمدينة الرباط بالمغرب

نزلت بالفنادق ذات الطابع الكلاسيكي بأوربا كما نزلت بفنادق ذات طابع شرقي عتيق بدلهي وسريسكا في الهند ونزلت أيضًا في الفنادق ذات الطابع الحديث جدًا والتي كسيت حوائطها بالزجاج والمعدن بدبي وأبوظبي. ولا أخفي الحقيقة أن أكثر ما أحببت من الفنادق وتمنيت إطالة الإقامة فيها كانت تلك الرياض التي نزلت بها في الرباط وفاس ومراكش وهي بيوت قديمة ذات طابع شرقي تجعلك تعيش في أجواء ألف ليلة وليلة. وتحتوي تلك الرياض على القليل من الغرف التي قد يصل عددها

إلى ما بين الخمسة والعشرة فقط وعادة لا يكون لأبواب الغرف مفاتيح ولكنهم يخبرونك بأن الدار أمان.

لم يقف التنوع في المستوى المادي عند الفنادق فقط بل شمل أيضا وسائل المواصلات فقد اضطررت لركوب قطارات الدرجة الثالثة في بعض الأحيان حيث يصعد الباعة بأقفاص اليوسفي ويأخذون في تخفيض ثمنه كلما قرب القطار من التوقف في محطته التالية وكذلك ركبت أتوبيسات القاهرة العامة في السبعينات عندما كان يصعد إليها باعة متجولون ومنهم من يبيع فلايات للشعر ويدعو الركاب مداعبا لشرائها كهدية لحماتهم. وفي المقابل ركبت الليموزينات الفارهة ذات الماركات الفاخرة كالرولزرويس والهامر وكانت تنقلاتي في إحدى زياراتي لبريطانيا بطائرة هليكوبتر خاصة فاخرة..

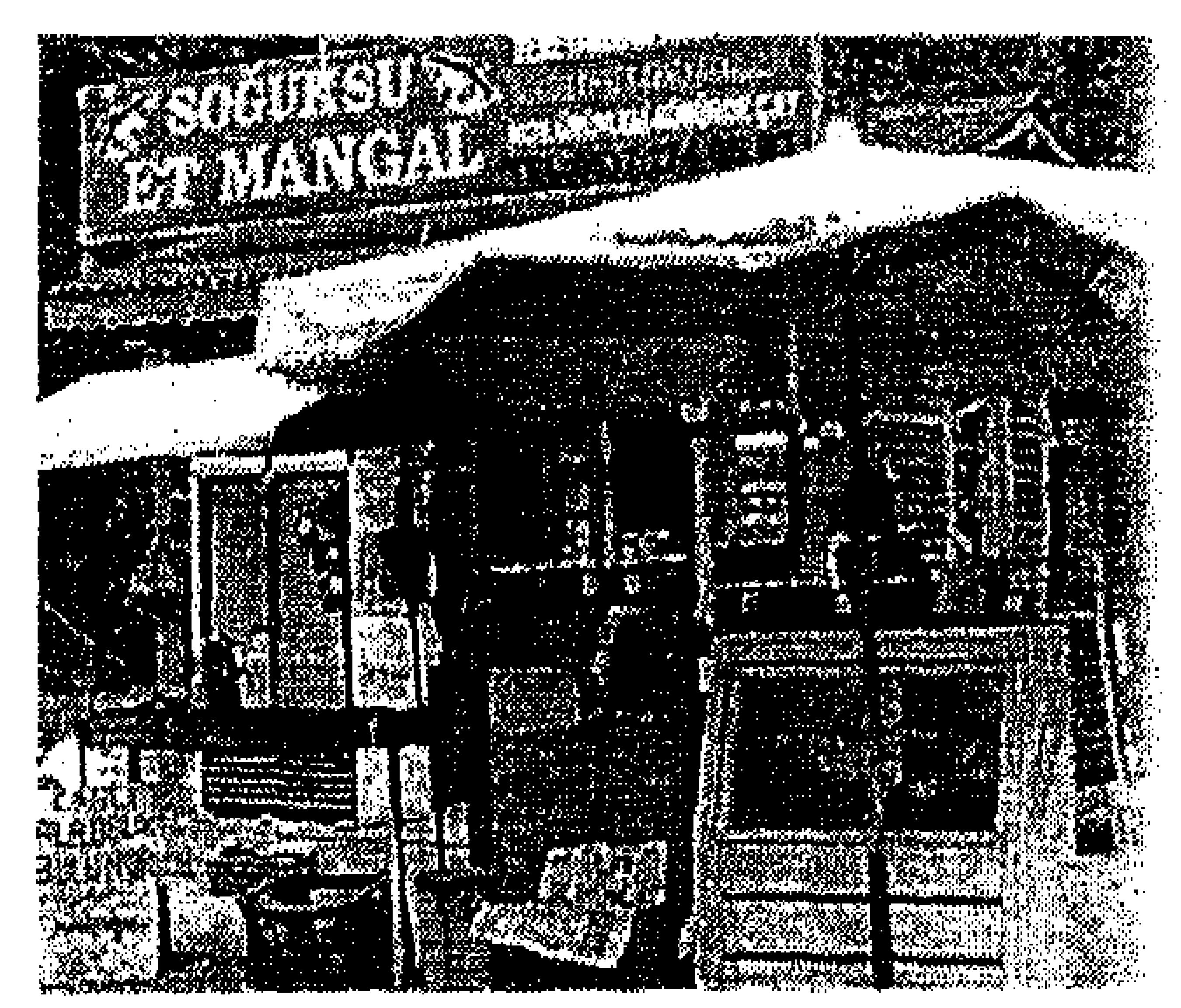


الإقبال على بائع الفول بالغورية

وكذلك تنوع الطعام فأكلت الفلافل عند محمد أحمد وجاد والوحيد والرشيدي بالإسكندرية وعند الدمياطي ونجف والشبراوي في القاهرة وزهرة لبنان ومروش في أبوظبي والعكاوي في الدوحة كما أكلتها أيضا في مدينة طلسا بأكلاهوما. تذوقتها بالفول على الطريقة المصرية وبالحمص على الطريقة اللبنانية. أكلت الكبدة الإسكندراني في الحواري خلف شارع صفية زغلول كما أكلتها بالطريقة المصراوية في المطاعم

المتواضعة بباب اللوق. أكلت الذرة المشوية على كورنيش الإسكندرية وفي إسلام أباد وأكلت السميط بالدقة على شاطئ سيدي بشر كما أكلته بدون الدقة أمام أياصوفيا في إستنبول.

وأكلت السمك المملح من البائعين في طرقات أمستردام كما أكلت الكابوريا أمام رصيف الصائدين ٣٩ بمدينة سان فرانسيسكو وأكلت محار بلح البحر في مطاعم مدينة بروج البلجيكية وأكلت السجق على الطريق عند مدخل بلدة آبانت التركية، ورأيت الناس يأكلون الصراصير والديدان المقلية في طرقات حي سيلوم ببانكوك. أكلت البوظة في سوق الحميدية كما أكلت الچيلاتي والجرانيتا عند نافورة تريڤي الشهيرة بروما.



السجق بضواحي أبانت التركية


بائع الكابوريا بسان فرانسيسكو

أكلت من بائعي الحواري وفي مطاعم شعبية كما أكلت في أرقى المطاعم في لندن ودنفر وهيوستن والقاهرة والدوحة وأبوظبي وكذلك في مطعم المحارة بفندق برج العرب الشهير ذو السبعة نجوم بدبي والذي يتكلف عشاء الفرد فيه ما يقرب من ألف وأربعمائة جنيه مصري. بالرغم من ذلك كله فإني ما زلت أجد متعة عند أكل سندوتش الفلافل الطازجة الممزوجة بالطحينة لا تقل عن متعتي عند أكل أجود وأشهى أنواع شرائح السلمون المدخن.

تعددت الأسفار وإختلفت الأغراض والأحوال وتباين المأكل والمسكن في كل منها ولكن ما أستطيع أن أقره هو أني وجدت فيها كل ما قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه:

تفــرج هــم واكتســاب معيشــةٍ وعلــمٍ وآدابٍ وصحبــة مــاجـد

وأنا أقدر أقول غير كده



لست ممن اعتادوا الجلوس على المقاهي ولكني جلست هذه المرة على المقهى المجاور للمحكمة في المنشية في إنتظار الأستاذ صلاح المحامي الذي كنت على موعد معه لمناقشة بعض الأمور الخاصة بالشهر العقاري. كان حذائي في حالة يرثى لها بعد ما غطي بالأتربة عندما تجولت في إحدى المناطق الصحراوية وأنا في طريقي من الساحل الشمالي إلى الاسكندرية. رفعت رأسي مبتهجًا عندما سمعت صوت ماسح الأحذية وكأني وجدت ضالتي المنشودة وطلبت منه تنظيف الحذاء بعناية. خلعه من قدماي ثم وضع تحتهما قطعة من الورق وإختفى مسرعا عن نظري فأخذني حينها القلق وجاءني هاجس بأن الرجل قد لا يعود وعندها سأضطر لمقابلة المحامي حافيًا ثم أسير كذلك إلى السيارة التي أوقفتها بعيدًا عن المقهى. لم يذهب عقلي بعيدًا مع هذه التصورات السخيفة فسريعًا ما أحضر القهوجي فنجان القهوة التركي وطمأنني عن ماسح الأحذية وأخبرني أنه جالس بجانب القهوة منهمكًا في عمله.

أخذت أنظر إلى الفنجان وأستعرض كيف بدأت علاقتي مع القهوة منذ كنت طفلا لا أتجاوز الخامسة عندها كان أبي معتادًا شرب فنجانًا من القهوة عند الصباح وآخر بعد الغداء. كان أبي لا يدخل المطبخ إلا نادرًا ولكن كانت القهوة هي الاستثناء فكان يحب أن يعدها بنفسه في بعض الأحيان. كان رغم شدته يدللني كثيرًا ولا ينهرني حين أطلب منه بعض الرشفات من فنجانه. ثم إنقطعت عن شرب القهوة عندما أصبحت صبيًا فقد كانت التقاليد المتعارف عليها أنه لا يليق للصغار أن يشربون القهوة أمام الكبار وخاصةً آبائهم.

عندما أصبحت طالبًا بالجامعة كنت أفضل النوم مبكرًا في أيام الشتاء القارص ثم أستيقظ في حوالي الرابعة صباحًا لأستذكر دروسي قبل الذهاب للجامعة. كنت أحتاج لتناول القهوة كي أبعد عني الرغبة في

العودة إلى الفراش ولكني لم أتعود وكذلك لم أحب أن أعدها بنفسي وفي الوقت نفسه كنت أجد أنه من السخف أن أطلب من أمي أن تقوم من نومها لتعد القهوة برغم أنها ما كانت لتنهرني بل كانت دائمًا على أتم الاستعداد لتهيئة الأجواء المناسبة للمذاكرة لي ولأخواي. حلًا لهذه المعضلة فقد تعودت أن أذهب إلى المطبخ وأتناول ملعقة من القهوة وملعقة من السكر ثم أتبعهما بقليل من الماء ثم أمضغ الخليط ثم أبدأ مذاكرتي بعد ذلك. بالرغم من ذلك فاني لم أدمن شرب القهوة ولا الشاي وكنت أستطيع ، وما زلت، أن أبقى أيامًا بل أسابيعًا وشهورًا بدونهما.

عندما التحقت بالقوات البحرية كضابط إحتياط كنت أخدم في إحدى الوحدات الفنية وكانت العلاقات مع قادتي من المهندسين العسكريين علاقات مهنية معتمدة على الاحترام المتبادل أكثر من اعتمادها على الأوامر العسكرية. اعتدت أن أذهب إلى مكتب العقيد سمير، وكان المسئول عن الأجهزة التي تخصصت في صيانتها، بدون غطاء الرأس وأكتفي بإلقاء السلام بدلًا من التحية العسكرية. كان في أغلب الأحيان يطلب مني الجلوس ويسألني عما أريد شربه. في البداية كنت أطلب كوبًا من الشاي ولكني لاحظت أن حديثي معه كان كثيرًا ما ينتهي قبل أن يبرد الشاي فأصبح في حرج هل أترك الشاي وأنصرف أم أبقى حتي أشربه وفي الخيارين عدم لياقة. لذلك فقد قررت ألا أطلب إلا القهوة فهي تبرد أسرع من الشاي وكميتها أقل ثم إن الفنجان لا يشف عما تبقى بداخله سواء كان قليلًا أو كثيرًا مثلما الحال في كوب الشاي.

جاء ماسح الأحذية فقطع على حبل أفكاري وألبسني الحذاء بعد ما أصبح له بريق كالجديد. أخذت أرشف من فنجان القهوة الزيادة الذي لم يكن جيدًا وأنا أترحم على الأيام التي كنت أعمل فيها في شركة ICL منذ أكثر من ثلاثة وعشرين عامًا حيث كان أحمد ذلك الساعي النوبي يعد لي كل صباح فنجانًا من القهوة التي كما يقولون "تعدل الدماغ". كان أحمد في الخمسينات من العمر وكان أسمر البشرة قصير الشارب

وكان يمتع الجميع بإجادته لعمل القهوة.

حين تمر صورة أحمد بخاطري تستدرك معها حديثي معه حين طلبت منه فنجانًا من القهوة في منتصف نهار أحد أيام العمل فاعتذر بأنه يستعد للذهاب للإدلاء بصوته في أحد الاستفتاءات التي دعي إليها الرئيس الراحل أنور السادات. تطرق الحديث معه عن الأوضاع فأخذ يشكو من الغلاء والفساد الذي عم البلاد ثم أخذ يسب ويلعن السادات وكل من هم حوله.

كثيرٌ من البسطاء من أمثال أحمد تتاح لهم الفرصة للإطلاع على الأخبار ومتابعة الأحداث الجارية من حولهم في أنحاء البلاد وكذلك يسمعون التعليقات ممن هم محيطون بهم في مجال العمل فتتكون لديهم خلفية سياسية قد تكون واسعة ولكنها كثيرًا ما تكون ضحلة تبعًا للمستوى الثقافي والتعليمي لهم فيترتب على ذلك أن يخلط بعض هؤلاء بين الحق والباطل ويتهمون الساسة بما فيهم وبما ليس فيهم.

ظهر أحمد مرة أخرى في المكتب بعد حوالي الساعتين أو الثلاثة فأسرعت بتوجيه السؤال إليه "ماذا قلت في الاستفتاء يا أحمد" فرد بتلقائية صادقة "طبعًا نعم" واستطرد قائلًا "وأنا أقدر أقول غير كده". أدهشني الرد الذي كنت لا أتوقعه فكيف ينتقد هذا الرجل الأوضاع ويعرب عن رفضه المطلق للإستفتاء ثم يذهب ويدلي بصوته لصالحه. فمم يخاف الرجل فهو يعلم أنه لن يراه أحد وهو يضع علامة بقلمه في احدى خانتي الاستفتاء. إما أن المشرفون في اللجنة الانتخابية يستغلون البسطاء ويطلبون منهم الكتابة أمامهم بدون ساتر أو أن الرجل قد زرع الخوف وترعرع بداخله نتيجة لما تعود عليه من الجبن عن إبداء الرأي حتى أنه تطبع على ذلك وأصبح يخاف من السلطة حتى وإن لم يكن هناك من يرقبه.

دائمًا ما ننظر إلى نتائج الإستفتاءات التي تجيء بأرقام لا يمكن تصديقها مستهجنين ومتهمين العاملين عليها بالتزييف والخداع ولكن ما لا ندركه أن جزءً من هذه النتائج صادق ولكنه جاء نتيجة عدم أمانة

بعض الناخبين وإدلائهم بآرآء مخالفة لما يسرون في قرارة نفوسهم.

إن موقف أحمد هذا ما هو إلا نموذجًا للعديد من أفراد الشعب الذين نشأوا وترعرعوا في أزمنة القهر فلم يعد أحد منهم يصدق أن له الحق في إختيار الكلمة التي ينطق بها. ففي مجتمعاتنا يبدأ القهر منذ الطفولة المبكرة حيث يمارسه الأب والأم على أطفالهم ثم يتلوه تسلط القائمين على التدريس بمدارسنا. وعندما يشب الطفل ويبدأ في الاعتماد على نفسه في المجتمع فيجد نفس المعاملة التسلطية القهرية من ضابط الشرطة بل ومن كل موظف قد تسوقه الأقدار إليه لتخليص ورقة أو إنجاز معاملة.

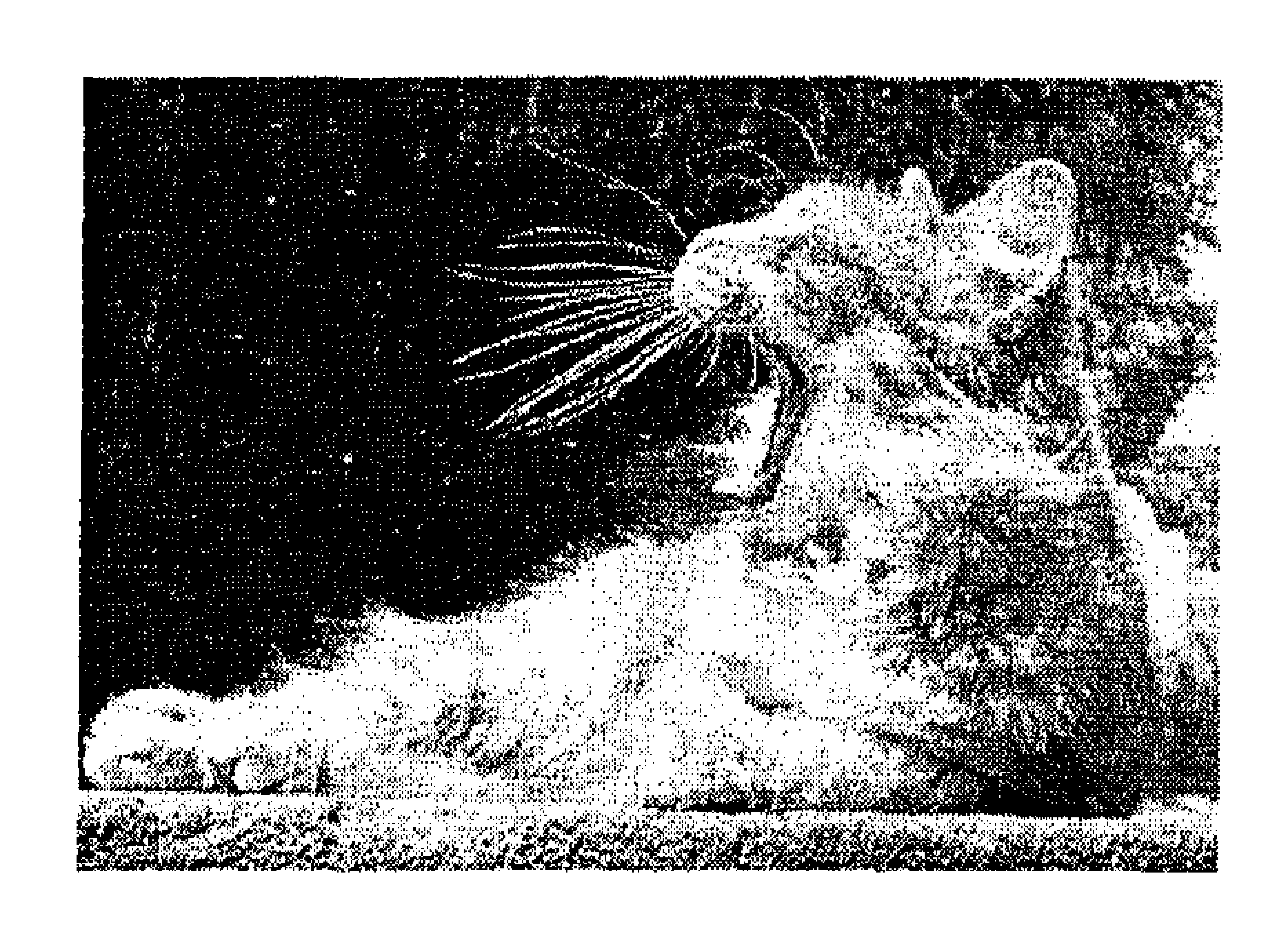
لقد لاحظت أن الكثير من أبناء الشعب من البسطاء يستحيون أن يعبروا عن آرائهم ولو في أبسط الأمور بل وأن يطلبوا حقًا من حقوقهم. ففي إحدى المرات جلس رجل من المزارعين من أبناء الصعيد بجانبي بالطائرة وكان يتردد كثيرًا ويستحي من أن يطلب كوب الماء من المضيفة ومن الغريب أن المضيفة نادته بـ "بلادينا" ولم يوبخها الرجل أو ينهرها عن مناداته بهذا اللقب الذي يحوي شيئًا من التهكم.

إن الشعور بالحرية يجب أن يبدأ أولًا داخل أنفسنا ثم يخرج ليشمل من حولنا وهكذا تتوسع الدائرة حتى تشمل الوطن كله.

بلعت أفكاري هذه دفعة واحدة حين أقبل على أحمد سائلًا إذا ما كنت ما زلت أرغب في فنجان القهوة الذي طلبتهُ منه قبل ذهابه إلى الاستفتاء، نظرت إليه نظرة شاردة وأجبت "خلاص ما عدش المزاج ممكن يتعدل" وتناولت بعض الأوراق وقررت أن أغرق نفسي في العمل كي أبعدها عن هذه الأفكار التي قد تدفعني إلى اليأس.

عدت مرة أخرى من ذكرياتي إلى الواقع عند وصول الأستاذ صلاح المحامي فتركت ثمن فنجان القهوة على الطاولة وذهبت معه متوجها إلى إحدى غرف الإجتماعات بالمحكمة.

إلا أنت يا مشمش



حضرت أحد الدروس الدينية التي ألقاها الشيخ صلاح أبو إسماعيل رحمه الله في ليلة رمضانية بأحد مساجد مدينة أبوظبي، وقد كان ذلك قبل بضعة أيام من وفاته؛ حيث إنه قد فارق الحياة وهو في طريق عودته إلى مصر. اشتهر شيخنا، إلى جانب علمه وحسن حديثه، بالألمعية وروح الدعابة. تطرق شيخنا أثناء الجلسة الرمضانية إلى حادثة قد مر بها أثناء إدلائه بشهادة أمام إحدى المحاكم المصرية التي شكلت خصيصًا إثر بعض الأحداث الجسيمة التي مرت بها البلاد وأتُهِمَت فيها إحدى الجماعات التي أطلق عليها اسم "الجماعات الإسلامية".

ذكر شيخنا أن القاضي قد سأله أثناء الشهادة عن رأيه في ادعاء بعض هذه الجماعات المتطرفة بأن القضاء غير عادل، وأنه لا يتبع الحق في أحكامه فنظر الشيخ إلى القاضي وأخبره بأنه قد أصابه الإجهاد والتعب بسبب أسئلتهم المتتالية منذ الصباح الباكر واستأذن في أن يسرد عليهم فكاهة قد خطرت بذهنه حتى يرفه عن نفسه وعنهم ويستطيع مواصلة الشهادة في هذه المحاكمة الطويلة. فابتسم له القاضي وطلب منه أن يأتي بما عنده.

قص عليهم شيخنا الحكيم أنه يحكى أن فأرًا قد استطاع الدخول إلى إحدى الحانات وكان لصاحبها قطًا سمينًا شرسًا يسمى "مشمش". أخذ الفأر يلعب ويمرح بالقفز بين القوارير حتى سقط في وعاء للنبيذ الأحمر فأخذ يشرب منه حتى سكر ولعب برأسه الخمر، فأخرج رأسه وأخذ يصيح "هاتولي أجدع قط وأنا أشرحه".

حين سمع مشمش كلام الفأر غضب وكشر عن أنيابه ورفع أظافره

وأتي بمواء مخيف كاد يتجمد له دم الفأر. فسارع الفأر وقال مستدركًا "إلا أنت يا مشمش". هنا استطرد الشيخ حديثه للقاضي وقال له قد يكون كلامهم صحيحًا إلا بالنسبة لهذه المحكمة.

لا يهمني الآن ما كان من رد فعل القاضي ولكن ما يهمني أن هذه الدعابة قد تعلقت بذهني حتى أنني لم أنسها للحظة واحدة، وبالطبع ليس هذا بسبب طرافتها فحسب فكم من القصص الطريفة والنكات المضحكة أسمع ولكني لا أكاد أذكر أيًا منها بعد مرور بضعة سويعات. الحقيقة ما شد إنتباهي في قصة "مشمش" أن أسلوب الفأر يتطابق مع الأسلوب الذي يتبعه كثير من أصحاب الكلمة والمسيطرون على وسائل الإعلام في زماننا هذا ليس فقط في بلدنا العزيز بل وفي سائر البلدان العربية.

للأسف فان هذه الظاهرة "المشمشية" قد انتشرت واستفحلت بين مختلف العباد وعلى كل المستويات وأصبح للكثير ألسنة طويلة وحناجر قوية في انتقاض الآخرين ولكنهم لا يجرءون على انتقاض من هو مازال قائمًا على السلطة أو من يستطيع أن يطولهم بأظافره المشمشية. وبتشخيص بسيط لواقعنا الحالي أستطيع أن أصنف ظاهرة العقدة المشمشية في بلادنا العربية إلى صنفين هما المشمشية الزمانية والمشمشية المكانية.

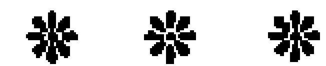
مثال ظاهر للمشمشية الزمانية ذلك النقد بل الهجوم على العهد الناصري والذي امتلأت به الصحف ونُشرت له الكتب في السبعينات بعد موت الرئيس السابق جمال عبد الناصر. والمثير للشفقة على أصحاب عقدة المشمشية الزمانية أنهم كانوا هم أنفسهم أصحاب الأقلام التي لم تتكاسل لحظة عن المديح بل والنفاق الفاضح "للزعيم الملهم" ناصر وأصحابه طوال ما يقرب من عقدين أمسكوا فيهما بزمام الأمور. ثم تجتهد

نفس الأقلام في مدح "القائد المؤمن" أنور السادات حين رأوا فيه صورة مشمش الجديد وصورت لهم نفوسهم الضعيفة أنه سوف يفترسهم إن توقفوا عن مديحه. ثم تعود الكرة وتعود نفس الأقلام والألسنة بعد مقتله إلى سبه والتشكيك في إنجازاته بل وفي وطنيته لتبدأ جولة جديدة من النفاق بمدح من تقلد الحكم من بعده. ويستمر نفس أسلوب النفاق ليقول لصاحب الصولجان "الكل فاسد إلا أنت يا مشمش طالما أنت حيٌ".

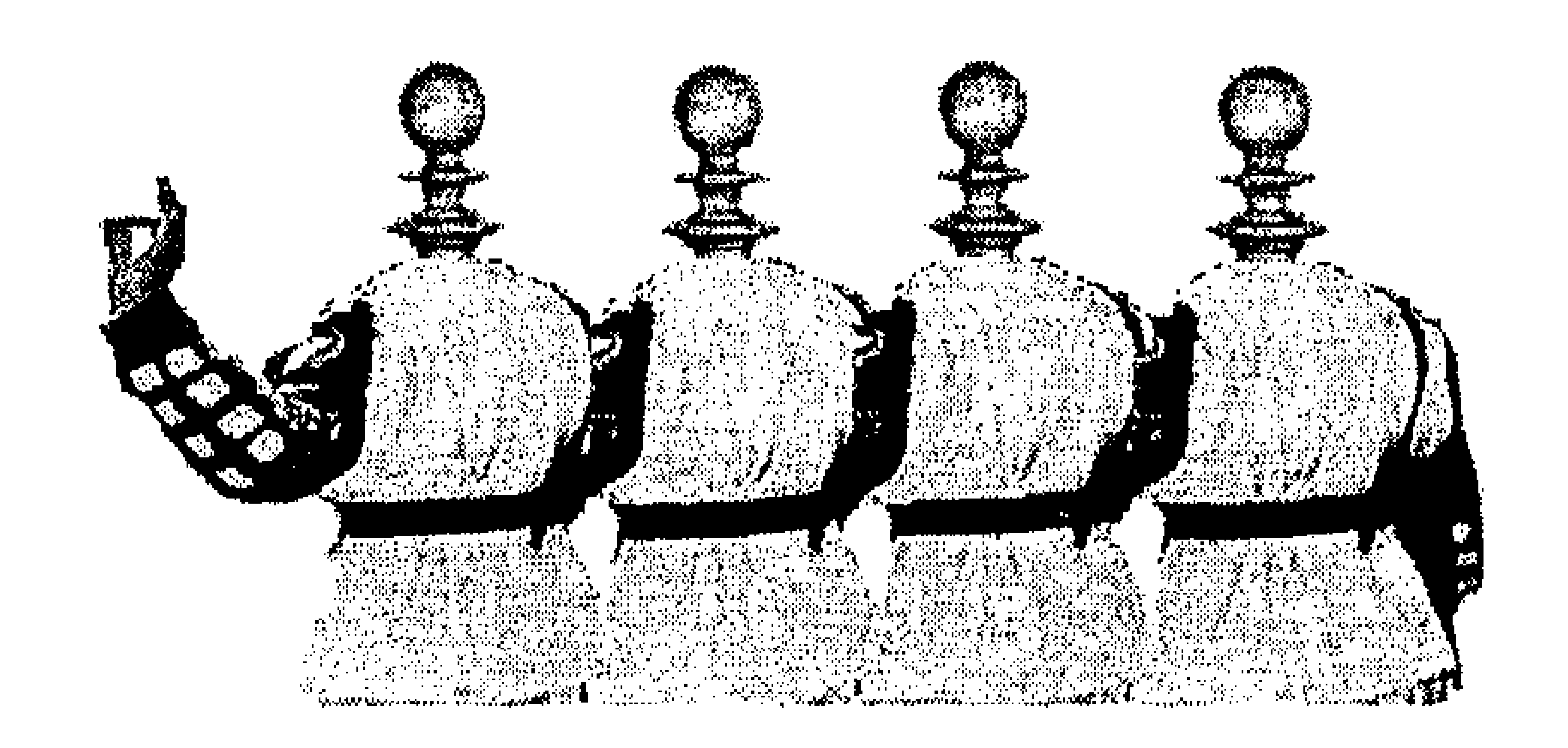
أما المشمشية المكانية فنراها واضحة في بعض القنوات الفضائية التي تسارع إلى بث الأخبار وفضح الطغاة وتقوم بعقد الندوات محللة للأحداث معريةً صانعيها مهما كانت مكانتهم في بلادهم ومجتمعاتهم. قد يبدو هذا عظيمًا ولكننا إذا أمعنا النظر نجد أنه لكل قناة من هذه القنوات منطقة سوداء لا تنشر أخبارها ولا تنتقد أفعال أهل السطوة حتى ولو أكثروا فيها الفساد. ويمكن تفسير ذلك ببساطة بأن أيدى الطغاة داخل المنطقة السوداء تستطيع أن تبطش بمعدى البرامج والأخبار وتستطيع في الوقت نفسه أن تدللهم وتغدق عليهم المال وغيره من متاع الدنيا. وبرغم ما يدعيه القائمون على تلك القنوات من نزاهة إلا أنهم في الحقيقة يتبعون نفس أسلوب النفاق ويقولون للطاغوت "الحرية والنقد على الجميع إلا أنت يا مشمش ما دمنا في متناول يدك".

ولا تقتصر هذه الظاهرة على القنوات التليفزيونية فقط بل قد تمتد إلى المسرح وغيره من وسائل الإعلام. فلقد حضرت منذ بضع سنوات إحدى المسرحيات السياسية الجريئة وكان اسمها "ضد الحكومة" أثناء زيارتي لعاصمة عربية عريقة لها مكانة خاصة في قلبي. أعجبت بالمسرحية ولكني دهشت من مدى ما وصلت إليه جراءة النص ومن قوة السخرية التي انطلقت على ألسنة أبطال المسرحية خاصة حين وصلت

الدرامة إلى قمتها بتجسيد شخصية "عبد الرحمن الناصر"، بطل الأندلس القوي، على خشبة المسرح فقلت محدثًا ومهنئًا نفسي لقد تغيرت الأحوال وأصبح الفن حرًا في هذا البلد الحبيب. ولكني أفقت على صوت بطل المسرحية وهو يستطرد مستثنيًا رئيس دولته الشجاع مما وصف به حالة التخاذل التى وصل إليها بقية العرب وقادتهم على امتداد البلاد! بالطبع أدركت أن أبطال المسرحية وكاتبها قد آثروا السلامة خوفًا من أن يأكلهم "مشمش" وهم في طريق عودتهم إلى منازلهم بعد انتهاء العرض.



عسكر ووزير



دأبت على أن أخصص يوما أو نصف يوم في كل من سفرياتي المكوكية للقاهرة ، أثناء عملي بأحد المشروعات بدولة الكويت ، للذهاب إلى مدينتي الحبيبة الإسكندرية كي يتسنى لي أن أزور أمي التي كانت ترقد بالمستشفى منذ أن أصابها مرض عضال أفقدها القدرة على الحركة والكلام. ولكنها كانت ماتزال تقوم برسالتها السامية في لم شمل الأخوة ووصل الرحم فها أنا في كل زيارة أجتمع مع أخواي حول سريرها كما كنا نجتمع في بيتها العامر من قبل. والي جانب ذلك فإني كنت أنتهز فرصة وجودي بالإسكندرية كي أستعيد ذكريات الطفولة والصبا فأمر بشاطئ سيدي بشر وأذهب إلى محطة الرمل لأستمتع بالجلوس في مقهى ديليس أو تريانون حيث أستطيع النظر إلى تمثال سعد زغلول الذي يقف شامخًا أمام الميناء الشرقي وأتذكر أيام الطفولة عندما كان يصطحبني والدي معه إلى تلك الأماكن.

في هذه المرة، وكانت في أحد أيام شهر أبريل من سنة ٢٠٠٤، عقدت العزم على ألا أسافر بالقطار بل استأجرت سيارة كي أستطيع أن أمر في طريقي على قطعة الأرض التي أمتلكها بمنطقة كنجي مريوط. استيقظت مبكرا كعادتي لأستمتع بنسمات الربيع قبل أن ترتفع سحب الغبار في سماء القاهرة وتزدحم طرقاتها بكل وسائل المواصلات من قديمها وحديثها. استعنت بالله وتوجهت إلى الطريق الصحراوي قاصدًا الإسكندرية ولكن ما لفت نظري في هذه المرة وجود الكثير من أفراد شرطة المرور بزي أسود تعلوه حلة فسفورية صفراء يقفون على طول الجانب الآخر من الطريق في الاتجاه القادم من الإسكندرية وكان يبعد كل منهم عن الآخر بما يقرب من كيلومتر واحد.

شد هذا المنظر انتباهي فأخذت أفكر في السبب فقلت محدثا لنفسي

ربما هناك رئيسا لإحدى الدول الهامة يزور مصر ويتنقل بالطريق البري من الإسكندرية إلى القاهرة ولكني تذكرت أن فخامة رئيس مصر كان في زيارة للولايات المتحدة خلال اليومين الماضيين وأنه من غير الممكن أن يأتي مباشرة بعد عناء السفر ليستقبل ضيفًا هامًا ويسافر معه بالطريق البري.

توقفت عند إحدى الاستراحات لتناول طعام الإفطار حيث أني قد تناولت هناك إفطارًا منذ عدة أشهر وقد كان شهيًا بالرغم من رخص ثمنه. في هذه المرة كان الوضع مختلفًا فحين طلبت من النادل أن يحضر إلى الإفطار اعتذر بأنهم لا يقدمون وجبة كاملة ولكن بإمكاني أن أطلب طلباتي منفصلة، فطلبت منه أن يحضر إلى طبقًا من الفول وبيضتان مقليتان ولكنه اعتذر مرة أخرى بأن الوقت مازال مبكرًا وأن الفول لم يجهز بعد. عندئذ تذكرت ما اعتاد أولادي أن ينبهوني إليه من حين إلى آخر بأن "زماني غير زمانهم". فحقًا يبدو أن الزمان قد تغير ولم يعد أحد يتناول إفطاره قبل الساعة السابعة والنصف صباحا إلا أنا. تناولت طعامي الذي لم أجد فيه ما وجدته في المرة السابقة من حسن المذاق وإتقان الصنعة ثم استأنفت رحلتي إلى الإسكندرية.

كان العسكر ما زالوا يزينون الطريق بلونهم الفسفوري الزاهي. وعند اقترابي من منتصف المسافة تقريبًا بين الاستراحة وبوابة الإسكندرية وجدت اثنين من العسكر يلوحان لي كي أقلهم معي فتوقفت ودعوتهما للصعود إلى السيارة. وحين استقر بهما المقام انتهزت الفرصة لإشباع فضولي وسألتهما عن السبب في وقوفهم بهذا العدد وبطول الطريق فجاء جوابهما صدمة لي أصابتني بخيبة الأمل، فقد أخبرني أحدهم بأن وزير الداخلية هو الذي كان بالإسكندرية وعاد هذا الصباح إلى القاهرة. وكذلك علمت منهما أنه قد أُتيَ بهم إلى الطريق منذ الرابعة والنصف صباحًا من أجل سيادة الوزير.

استطرد قائلا إنهما قد أتيا من طريق مرسى مطروح. نظرت إلى وجه الشرطي فرأيت التعب والعناء باديان عليه فسألته وأنا أرسم السذاجة على وجهي كي لا يفطن لما أضمره من قصد، "ومن إذن يشرف الآن على تنظيم المرور في طريق مرسى مطروح" فأجابني مقتضبًا ومحاولًا تغيير الموضوع بأن هناك الآخرون يقومون بذلك. وتابعت أسئلتي وسألته ألا توجد سيارات للشرطة لتعيدكم إلى مواقعكم فأخبرني بأن جمعهم من على الطريق يستغرق وقتًا طويلًا وأنهما يتوقان إلى العودة إلى بيتاهما كي ينالا قسطًا من الراحة التي لم يذوقاها منذ الفجر.

لم أكد أتوقف عن الحديث لبضع لحظات حتى راح الرجلان يغطان في نوم عميق وأما أنا فقد تركت عيناي ترقبان الطريق ويداي تمسكان بالمقود أما عقلي فقد غاص في تفكير عميق متأملًا الوضع الغريب الذي رأيته هذا الصباح. فهل يعقل أن يصطف أكثر من مائتي رجل بطول الطريق لأن وزيرهم سيمر عائدًا إلى القاهرة؟ لماذا يقفون هكذا؟ ألغرض الحماية؟ بالطبع لا فكيف يستطيع هؤلاء العزل حماية سيادة الوزير؟ هنا لاحظت أن ملابس الرجلين تبدو جديدة وكأنها لم تلبس من قبل، فقفزت فكرة إلى خاطري فلا بد أن المسئول عن المرور قد قرر أن ينظم عرضًا للأزياء وبدلا من أن يجلس الوزير ويمر أمامه كل هذا العدد من العسكر يقدمون خطوات إلى الأمام ويؤخرون أخرى إلى الخلف، كما تفعل الحسناوات من عارضات الأزياء حين تعرضن الغريب والجديد من الملابس، فقد قرر هذا المسئول بأريحته المبدعة أن يصف العسكر ويدعو الوزير للمرور أمامهم بسيارته والاستمتاع بلونهم الأسود المزدان بالأصفر الفسفوري. بهذه الطريقة يستطيع الوزير أن يرى الشكل العام دون التفاصيل حيث إنه لا حاجة له في أن يمعن النظر في وجوه العسكر وسيقانهم كما هو الحال حين تعرض الحسناوات ملابس السهرة الفاتنة. ارتحت حين وصلت لهذه الفكرة الذكية وكنت عند إذن قد وصلت إلى

مفترق الطرق وكان يجب على أن أتجه جهة اليسار في اتجاه ضاحية كنج مريوط فأيقظت الرجلين وتركتهما على قارعة الطريق ينتظران من يرسله القدر ليقلهما إلى غايتهما.

اتجهت إلى قطعة الأرض التي أقصدها كي أطمئن على سلامتها وألفت أنظار أهل المنطقة إلى أن للأرض أصحاب كشكل من إثبات وتثبيت الملكية في زمن ضعف فيه القانون وتباطأ القضاء وسنحت الفرص لكل لص طامع ومحتال ظالم كي ينقض على ممتلكات الغير ويستولي عليها. حين وصلت أمام السور ترجلت من السيارة ومعي مفتاح البوابة الحديد ولكنني قد صدمت حين نظرت فلم أبصر البوابة. أقبل على حارس أحد البيوت المجاورة وأخبرني بأن سرقة البوابات وكل ما هو حديدي قد إنتشرت في الآونة الأخيرة بعدما تم نقل سكان بعض البيوت التي تم هدمها بسبب إنشاء كوبري القباري الجديد للإقامة في مناطق مجاورة، وأخبرني بأن الكثير منهم من العاطلين الذين إحترفوا السرقة ووجدوا في الحديد ضالتهم بعد الإرتفاع الكبير في سعره. أرسلت في طلب الغفير فجاء ليخبرني أن عداد المياه أيضًا قد سرق.

أخذت أضرب كفًا على كف وأقول حسبي الله ونعم الوكيل فمن أوكل غير الله وقد غاب الأمن حين انشغل القائمون عليه بإرضاء غرور رؤسائهم والتملق لهم ولم يعد يشغل بالهم أن تسرق ممتلكات المواطنين ما داموا ليسوا من فئة الباشوات الجدد.

مررت في اليوم التالي وأنا في طريق العودة إلى القاهرة على الغفير ثم ذهبنا إلى نقطة الشرطة لإثبات واقعة السرقة قبل الذهاب إلى مرفق المياه لطلب عداد جديد. كانت النتيجة تأكيدًا جديدًا على انشغال الشرطة بما هو أهم من توفير الأمن لأمثالي من المواطنين فقد وجدت شرطيًا ممن لاحول لهم ولا قوة يقف على باب النقطة وقد أخبرنا بأنه لايوجد أحد

الآن بالداخل فقد ذهب الضابط في مهمة. حدثت نفسي بأنه قد يكون مشغولًا بمهمة عظمى كمثل التي إنشغل بها المئات بالأمس وقررت عدم الانتظار والذهاب مباشرة لشراء العداد وأن أستعض عن المحضر بدفع ما يلزم من الاكراميات.

سافرت إلى الكويت بعد ظهر نفس اليوم ثم عدت عند إنتهاء مهمتي بعد بضعة أيام إلى مقر أقامتي بإمارة أبوظبي وجلست مستمتعًا بالسويعات التي أقضيها في بيتي بدون سفر أو ترحال. فجأة سمعت صوت إبني وهو يصرخ في وجه صديقه الذي يلعب معه الشطرنج قائلا "مات الوزير يا حلو". كان لكلمة "الوزير" وقعًا غريبًا في أذني وكأنها قد ضغطت على زر في عقلي فأعاد لمخيلتي عرض أحداث اليوم المشهود يوم إصطفاف العسكر للوزير.

هنا نظرت إلى رقعة الشطرنج وأدركت أن هذه اللعبة تطابق واقعنا المحزن فها هو الوزير أهم شخصية على الرقعة بعد الملك ومن الممكن أن يُضَحي بالعديد من العسكر في سبيل الاحتفاظ بالوزير سالمًا. إن مصمم هذه اللعبة قد أعطى الوزير الكثير من الصلاحيات التي لا يتمتع بها غيره فهو القادر على الحركة والقتل في ثمانية اتجاهات في حين يعجز عن ذلك الجميع من دونه.

تعلمت اللعبة منذ طفولتي وكنت ألعبها من حين لآخر ولكن هذه هي المرة الأولى التي يتطرق فيها تفكيري إلى قواعد اللعبة لأكتشف كم هي مبنية على الاستحواذ على القوة من جهة الوزير وعلى عبودية الشعب التامة للملك لدرجة أنه يحكم على الجيش كله بالموت بمجرد موت الملك ولا يسمح له بمواصلة القتال حتى ولو كانت لديه القدرة على الاستمرار. إن ذلك ليذكرني بما كانت عليه العادة قديمًا حين كانت تحرق الزوجة الهندوسية مع زوجها عند موته دليلًا على وفائها وإخلاصها له حتى

وإن كان ذلك ضد رغبتها.

إن المطاعم الأمريكية قد أخذتها العزة عندما لم تقف فرنسا مؤيدة لذهاب القوات الأمريكية إلى العراق مدعية تحريره من الديكتاتورية وقررت أن تغير اسم البطاطس المقلية من "فرنش فريز" إلى "بوتاتو فريز" ولكني لم أجد حتى اليوم من يقف مستنكرًا لديكتاتورية الملك الشطرنجي ووزيره ويطالب بإيقافهما عند حدهما وإعطاء الفرصة لاستمرار الحياة بعد مماتهما.

تساءلت كيف أني لم ألحظ ذلك من قبل وقفزت إلى مكتبي وأمسكت بورقة وقلم وأخذت أكتب خطابًا شديد اللهجة إلى الاتحاد العالمي للشطرنج أطالبه بتغيير فوري لقواعد اللعبة التي ترسخ منطق الديكتاتورية والسيادة المطلقة للحاكم على المحكوم في زمن تدعي فيه الدول الكبرى حمايتها للديمقراطية وتحرك جيوشها لأقاصي الأرض لمحاربة وتدمير من يتهمونه بالديكتاتورية والاستبداد.

* * *

قطًا أم فأرًا



"لعبة القط والفأر" بهذا التعبير يرمز الناس إلى المواجهة التي تتخذ طابع الكَرِّ والفَرِّ ويكون فيها الكـرُّ من نصيب أحـد الطرفين دون الآخر. وهكذا يبدو للكثير من الناس أن القـط قد خلق ونشأ متفوقًا وبالتالي فليس أمام الفأر إلا أن يقبل بالفر أو بالهلاك بين فكي خصـمه.

الحقيقة أنني لا أوافق على تعميم هذه القاعدة وأنني على يقين بأن الأدوار سـجال وأنه من أراد أن يكون قطًا كان قطًا ومن رضي لنفسه أن يكون فأرًا كان فأرًا. وكذلك فإنني على يقين بأنه ما كان أحد منا سيصف القط بالقوة إن لم يكن أمامه فأرًا خائفًا مرتعدًا. فها نحن نصف القط نفسه بالجبن حين نراه مرتعدا عند سماعه لنباح كلب.

قد يظن البعض أنني قد تأثرت بموجة الإعلام الموجه إلينا حتى صرت أتكلم وكأن شجاعة "جيري" أمام "توم" قد أصبحت مصدرا لالهامي. كلا فإني أستلهم المعرفة والحكمة من مدرستين وجدت فيهما ضالتي من صدق الرسالة فدأبت على أن أرجع إليهما لأستخلص العبر ولأقوي يقيني حين تختلط الأمور ولا يستطيع المرء أن يميز الحقيقة من الزيف. أنهما مدرسة الحيوان ومدرسة التاريخ الإنساني. والآن دعوني أسوق إليكم مشهدين من عالم الحيوان لأبرهن على صدق ما أهدف إليه من وراء سطوري هذه.

المشهد الأول قد شاهدته ومن المؤكد أن بعض القراء أيضا قد شاهدوه على شاشات التليفزيون. هو مشهد لحيوان نضرب به المثل في القوة والعنفوان ألا وهو الثور. لكننا حين ننظر إلى هذا المشهد نجد صورة مختلفة تماما عن ما نرى عليه الثور وهو يجول كمصارعا شرسا في الحلبات الأسبانية لمصارعة الثيران. في مشهدنا هذا نجد قطيعا مما يزيد على ثلاثين ثورًا وقد ولوا الأدبار وأخذوا في الفرار وقد تبعهم نمر عقد

العزم على أن يشبع جوعه بما يتاح له من لحومهم. ويتتابع المشهد حتى يقع أحدهم بين أنياب المهاجم الشرس ولا يلتفت إليه أحد من زملائه بل يتركوه ويواصلوا الفرار طلبا للسلامة دون أن يدركوا أن الكرة ستأتي إليهم واحدًا تلو الأخر على مر الأيام.

لو كان لهؤلاء الثيران حكمة أو حتى لو دفعتهم فطرتهم إلى التدبر لأدركوا أن لديهم من أسباب القوة ما يكفي لمواجهة هذا النمر بل وفصيل من أمثاله ولأدركوا أن في استطاعتهم أن يمزقوه إربًا أو على الأقل أن يرهبوه فيعود عن مهاجمتهم ويزهد عن لحومهم. قد يصاب أحد الثيران أو بعضهم في المواجهة ولكن ستكون النهاية حتما لصالحهم إن هم قبلوا التحدي ولم يرضوا بخيار الضعف والمهانة.

و في المقابل أسوق إليكم المشهد الآخر. انه لحيوان ضعيف الجسد ولكنه لا يرضخ للأمر الواقع بل يتغلب عليه بالتنظيم والعمل الجماعي فيخلق بذلك أسباب القوة التي تهيئ له الدفاع عن نفسه. انه ابن عرس الذي بهرني بحسن فطنته وبشجاعته حين اتخذ وزملائه من بينهم من يتناوب على الحراسة وينذر الآخرين عندما يتوعدهم الخطر. مشهد الاعتزاز بالنفس وقد اصطف ما لا يقل عن عشرة منهم في مواجهة ضبع ساورته نفسه أن يجعل منهم فريسة سهلة، تمضي دقائق عصيبة في المواجهة بين الضبع وعدوه الحذر يجد الأول نفسه مجبرا على احترام شجاعة خصمه فينسحب من المواجهة. وهكذا نتعلم أنه هيهات هيهات أن يُأكَلَ من أدرك أن القوة في الجماعة وأن السلامة في المواجهة الحذرة الواعية.

وإلى المدرسة الثانية أتوجه، إلى مدرسة التاريخ حيث إنه وخلافا لمدرسة الحيوان فإننا في كثير من الأحيان لا نستطيع استخلاص العبر من حياة الإنسان المعاصرة لافتقارنا إلى المصادر الصادقة الواضحة التي توثق الحقيقة كما هي بعيدًا عن نفاق المنافقين وتخاذل المتخاذلين وتسلط الجبارين. فعلينا إذن أن ننتظر حتى تمر السنون فتكشف الأيام

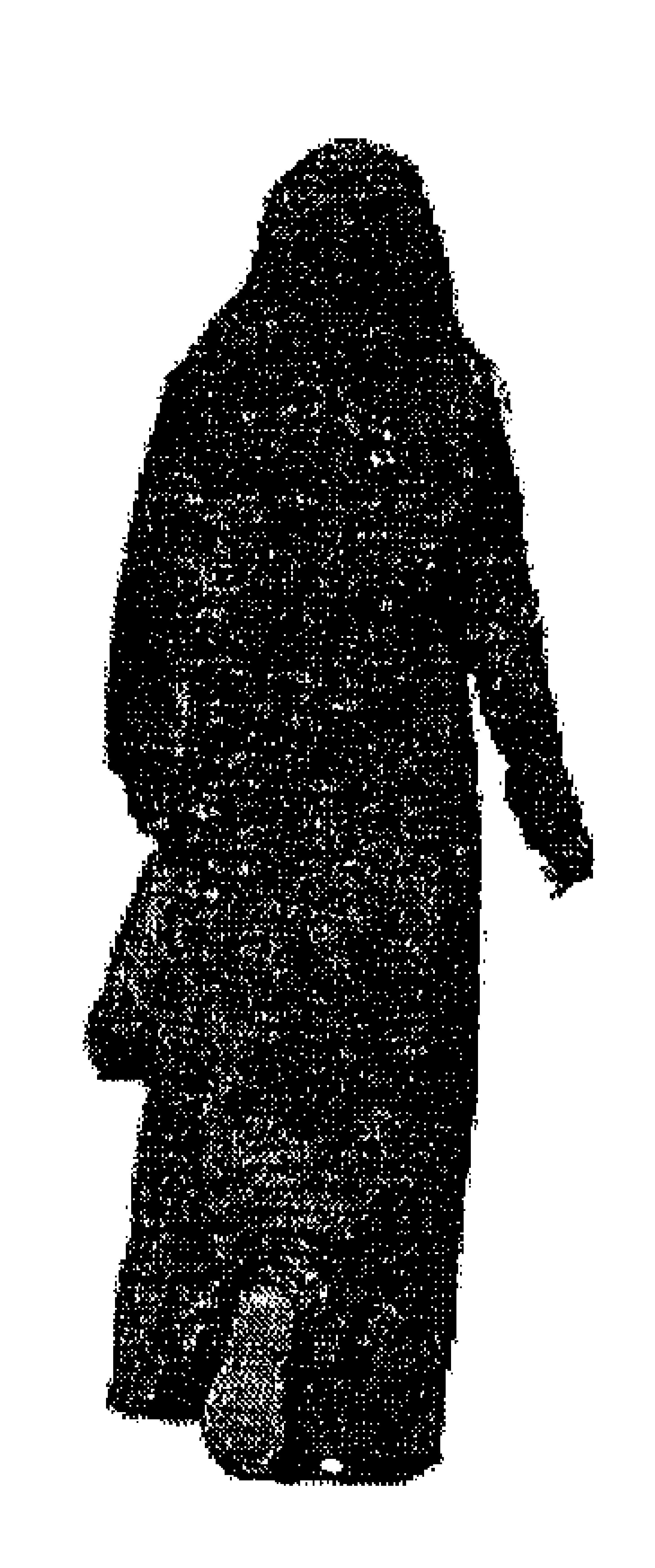
عما خفيَ وتصبحُ الحقيقة في متناول الباحثون الذين لا يدخرون جهدا فيغوصون إلى أعماق التاريخ ويعودون بالعبر والدروس.

دعوني أسوق مثالي من دولة ازدهرت حضارتها حتى علت وكبرت رقعتها وامتدت في أنحاء المعمورة وتنوعت ثقافتها حين انصهرت فيها المعارف والعلوم. دولة لم يكن حكامها الأوائل قططًا بل كانوا أسودًا. إنها الدولة العباسية التي أسسها السفاح وبناها المنصور وعمق حضارتها الرشيد وذاد عن ثغورها المعتصم. ثم جاء من خلفائهم من رضوا بأن يكونوا في موضع الفئران فتكالبت عليهم القطط حتى لم تدعهم إلا وقد أصبحت دولتهم أطلالًا يبكي عليها المخلصون ويتخطف أطرافها الطامعون.

و كالعادة يبدأ ضعف الحاكم حين لا يتخذ من شعبه سندًا بل بالعكس يخشى من حركته ويحسب عليه كلمته ويعد عليه أنفاسه. هكذا ضعفت الخلافة حين أتت ببطانة السوء ليكونوا زبانية جهنم التي يلقى فيها كل ناطق بصدق أو صارخ من ظلم. أتى الخلفاء بالعسكر من الترك الذين أرهبوا الناس في ديارهم وشاركوهم في أقواتهم ثم شيئًا فشيئًا أصبحوا قططًا سمانًا ونمت لهم الأظافر وبرزت لهم الأنياب والتفتوا إلى خليفتهم الذي فقد كل أسباب القوة منذ أن ركن إلى هؤلاء اللئام فوجد نفسه وكأنه فأرًا قد وقع في مصيدة تلعب بها أيدي الوحوش. فإلى هذا انتهت حياة كل من المتقي والمستكفي العباسي اللذان رضي كل منهما أن يكون مسخًا بين يدي حاشيته من العسكر والوزراء. زالت الحضارة واختفت الدولة حين أصبح هم الخلفاء الحفاظ على العرش بدلاً من الحفاظ على الأمة وحين لم يعد لهم شدة السفاحِ ولا حسم المنصور ولا فطنة الرشيد ولا نخوة المعتصم.

صورة إنهيار دولة وقعت مرارًا وتكرارًا في الماضي وتعيد نفسها أمام أعيننا دون أن يدرك أصحاب الأدوار الجدد أنهم سائرون كالفئران إلى نفس الجرف.

أو تزني الحرة



هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، اسم سجله التاريخ لإمرأة كان لها شهرة عالية قبل الإسلام وبعده. فقد كان أبوها سيد من سادات قريش وكان زوجها أبو سفيان بن حرب، وإبنها معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية. إمرأة كانت على درجة عالية من الحسن والجمال وإشتهرت برجاحة الرأي والعقل وشهد لها التاريخ بالبلاغة وفصاحة القول.

ما شدني من سيرة تلك المرأة هو ما تمتعت به، قبل وبعد إسلامها, من حرية في ممارسة كافة حقوقها لا تقل عن أقصى ما إدعت المرأة في بلاد الغرب الوصول إليه في عصرنا الحاضر.

تمتعت بالحرية في حياتها الاجتماعية والأسرية فرفضت معاشرة زوجها الفاكه بن المغيرة وأجبرته على الطلاق حين أهانها ثم قالت لأبيها "إني امرأة ملكت أمري، فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه علي" ووافقت على الزواج من أبي سفيان بكامل إرادتها لما إشتهر به من الحسب الكريم وشدة الغيرة على أهله. وفي حياتها الثقافية كانت هند شاعرة موهوبة وقد قالت الشعر في رثاء أبيها وعمها وأخيها بعد أن قتلوا في معركة بدر.

ولم تكن بعيدة عن مجال السياسة فقد راحت في جاهليتها تحرض القرشيين على قتال المسلمين حتى خرجوا إليهم في غزوة أحد. واتخذت موقفا سياسيا معارضا لزوجها وزعيم قومها فعندما رجع أبو سفيان إلى مكة ليلة الفتح وصاح: "يا معشر قريش إني أسلمت فأسلموا، فإن محمد أتاكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن"

أخذت هند رأسه وحرضت قريش على قتله بقولها: "بئس طليعة القوم أنت، والله ما خدشت خدشًا يا أهل مكة عليكم الحميت الدسم فاقتلوه، قبح من طليعة قوم". وعند إسلامها وذهابها لبيعة الرسول ﷺ لم تخش مواجهته بالرغم مما كانت تعرفه عن شعوره تجاهها بسبب قتلها لعمه حمزة وتمثيلها بجثته فعندما قال: "ولا تقتلن أولادكن" قالت: "قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا". قد يدل ردها بهذا الشكل على أن الحب لرسول الله لم يكن قد تمكن من قلبها بعد ولكنه بدون شك يدل على أن المرأة كانت تتمتع بحرية كاملة وشجاعة بالغة في إبداء الرأي أمام رجل إن لم تؤمن بأنه رسول من الله فهي على يقين بأنه القائد الذي فتحت جيوشه مكة بالأمس وأن من حوله رجال يتمنون الموت فداء له ونصرة لدينه.

وفي المجال العسكري كان لها دور سجله التاريخ عليها في جاهليتها فقد حرضت هند عبدها وحشي على قتل حمزة بن عبد المطلب في يوم أحد ثم خرجت مع مشركي قريش وراحت تحرضهم على قتال المسلمين وهي تنشد فيهم: "نحن بنات طارق .. نمشي على النمارق .. إن تقبلوا نعـانق .. أو تدبروا نفـارق .. فـراق غير وامـق" ووقفت ومعها بعض النسوة يمثلن بالقتلى من المسلمين ويذكر أنها قد صنعت من آذان الرجال وأنوفهم قلائد. وكانت قسوتها بالغة حين قتل وحشي حمزة فجاءت إلى حمزة وشقت بطنه ونزعت كبده ومضغتها ثم لفظتها وعلت صخرة مشرفة وأخذت تردد في نشوة أبياتا من الشعر. ولم يتوقف نشاطها في المجال الحربي بعد إسلامها فقد اشتركت في الجهاد مع زوجها أبي سفيان في غزوة اليرموك، وأبلت فيها بلاءً حسنا، وكانت تحرض المسلمين دائما على قتال الروم.

أما في المجال الإقتصادي فقد مارست هند التجارة على أثر طلاقها

من أبي سفيان، ولم تكن تملك المال الكافي فاقترضت المال وخرجت إلى بلاد كلاب فاشترت وباعت حتى إزدهرت تجارتها.

نحن بلا أدنى شك أمام نموذج يجسد ما وصلت إليه المرأة العربية منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنًا من ممارسة لكامل حقوقها في كافة مجالات الحياة. ومع كل هذه الحقوق والحريات التي تمتعت بها هند فقد كان موقفها من النواحي الأخلاقية واضحًا وحاسمًا لخصته في كلمات قليلة عندما اجتمعت نساء مكة لمبايعة الرسول ﷺ وحين وصل في المبايعة إلى قوله لهن "ولا يزنين" قاطعته هند مستنكرة قائلة "أو تزني الحرة". كان قولًا خالدًا سجله لها التاريخ شاهدًا على عفة المرأة العربية الحرة.

كلماتها تدل على أنفة وعزة وكرامة، وذلك هو المقياس الحق للحرية. فأي مقياس نحن متخذون؟ مقياس لجان الفساد والتحلل التي تبث سمومًا تحت شعار العالمية وحقوق المرأة أم مقياس الفطرة الطاهرة الذي أمسكت به هند فشعرت بجرح لكرامتها حين افترض أنه من الممكن أن تكون هي ممن يزنين. لم يكن رفضها للزنى فقط خوفًا من الله تعالى شديد العقاب ولكن كان أيضًا أنفة من حرة كريمة لا تقرب هذا الفعل الحقير.

وإذا نظرنا إلى العالم في زمننا هذا نجد أن إحدى لجان الأمم المتحدة الخاصة بالمرأة، قد جاءت لتعرف العنف الأسري بأنه كل القيود التي تحد من حرية تصرف المرأة في جسدها سواء كانت هذه القيود دينية أو أخلاقية. وكذلك ترى أن بقاء الفتاة عذراء إلى أن تتزوج وتكون أسرة هو من مظاهر العنف ضد المرأة. وكذلك تعتبر أن عدم إباحة الإجهاض للفتيات للتخلص من الحمل غير الشرعي هو عنفًا ضد الفتاة. وبالإضافة لذلك فهي تعتبر أن من حق الفتاة ممارسة الشذوذ الجنسي. وكذلك تضع

الكثير من البنود التي تيسر العلاقات غير الشرعية وتحفظ لها سريتها وخصوصيتها والدعم لتحمل نتائجها.

مما يدهشني في هذه الحملة العالمية أنها ترفع شعار حرية وحق المرأة في المساواة في حين أنها تتجاهل تمامًا ما يتعرض له المجتمع ككل، في كثير من بلداننا، من ضغوط وهدر لحقوق الإنسان سواء كان رجلًا أو امرأة أو حتى طفلًا. فلماذا المرأة إذن دون غيرها؟ إن هذه اللجان والمنظمات تبتدع بعض المصطلحات والتوصيات والقوانين التي تحاول أن تقتحم بها خصوصياتنا وتهدم بها قيمنا. ومما يدهشني بل ويفجعني أيضًا هو البلاهة التي تواجه بها بعض النظم الحاكمة في بلادنا هذا الاختراق الخطير فبدلا من الرفض أو استخدام وسائل الهجوم المضاد فإنها توقع على وثائق يترتب عليها الكثير من الالتزامات الدولية التي لا يمكن أن تساهم إلا في دمار مستقبلنا وضياعنا في الدنيا والآخرة.

إن معظم المجتمعات الغربية قد نبذت نواميس الدين والطهر والعفاف واستعاضوا عنها بقوانين وضعوها على هواهم والتزموا بها واستطاعوا أن ينظموا حياتهم عليها. وأما في مجتمعاتنا، فبالرغم مما وصلنا إليه من فقر وتخلف عن التقدم في العلوم التطبيقية، إلا أننا ما زلنا موجودين على خريطة العالم بما تبقى لدينا من إيمان بالله وباتباع أهل الخير من المسلمين والنصارى لما أمر به الرحمن من التقوى وبما غرز في نفوسنا من حياء وعفاف.

لماذا يهتم الغرب بحقوق المرأة في مجتمعاتنا ويجعل من نفسه وليًا على تصرفاتنا في هذا المجال؟ هل هو نوع من الحب لنا أم هو إنصاف لمبادئ حقوق الإنسان؟ هل هو هدم للأسس التي تقوم عليها حياتنا

أم هو وسيلة لفرض وصاية جديدة علينا؟ هل هو وسيلة لتحويل نظم حياتنا وقوانينها إلى صورة مما عليه الحال في بلادهم فيصير استقرارهم وتواجدهم في بلادنا سهلًا؟

في تقديرى أن ما أراه هو سياسة مدروسة من بعض الجهات الغربية تستهدف هدم الثقافة الأخلاقية التي تشكل هوية المجتمعات الشرقية خاصة الإسلامية منها وذلك لتسهيل عملية استعمارنا فكريًا والاستيلاء على ثرواتنا. وبالإضافة إلى هذه الجهات سيئة النية هناك مجموعات من الأفراد ترى، تحت تأثير ثقافة مجتمعاتها وما تبثه وسائل الإعلام الغربية من مزيج من معلومات حقيقية وأخرى مغلوطة عن حياة المرأة في بلادنا، أن من واجبها التدخل انصافا للحق ونصرة لحرية المرأة.

من المجحف أن نأتي بمقاييس قدرها البعض في بلاد الغرب كأسس لقياس حرية المرأة ونستخدمها كما هي في مجتمعات أخرى. إننا إن عدنا إلى هذه البلدان نفسها قد لا نجد إجماعًا على صحة هذه الأسس. فمثلا لا يرضى الكثير من الرجال على إستيلاء مطلقاتهم على نصف ممتلكاتهم وقد يلجأون إلى طرق ملتوية للهروب من هذا الحكم القاسي. وكذلك فإن ما سمحت به بعض الدول الأوربية من زواج الشاذات من بعضهن لم تقره بلدان أخرى ولم تقره معظم القوانين الكنسية. وإذا قارنا ما لديهم بما لدينا من عرف وعادات فقد نجد إنهم يجحفون حق المرأة ويظلمونها بل ويهينونها في كثير من الأحيان.

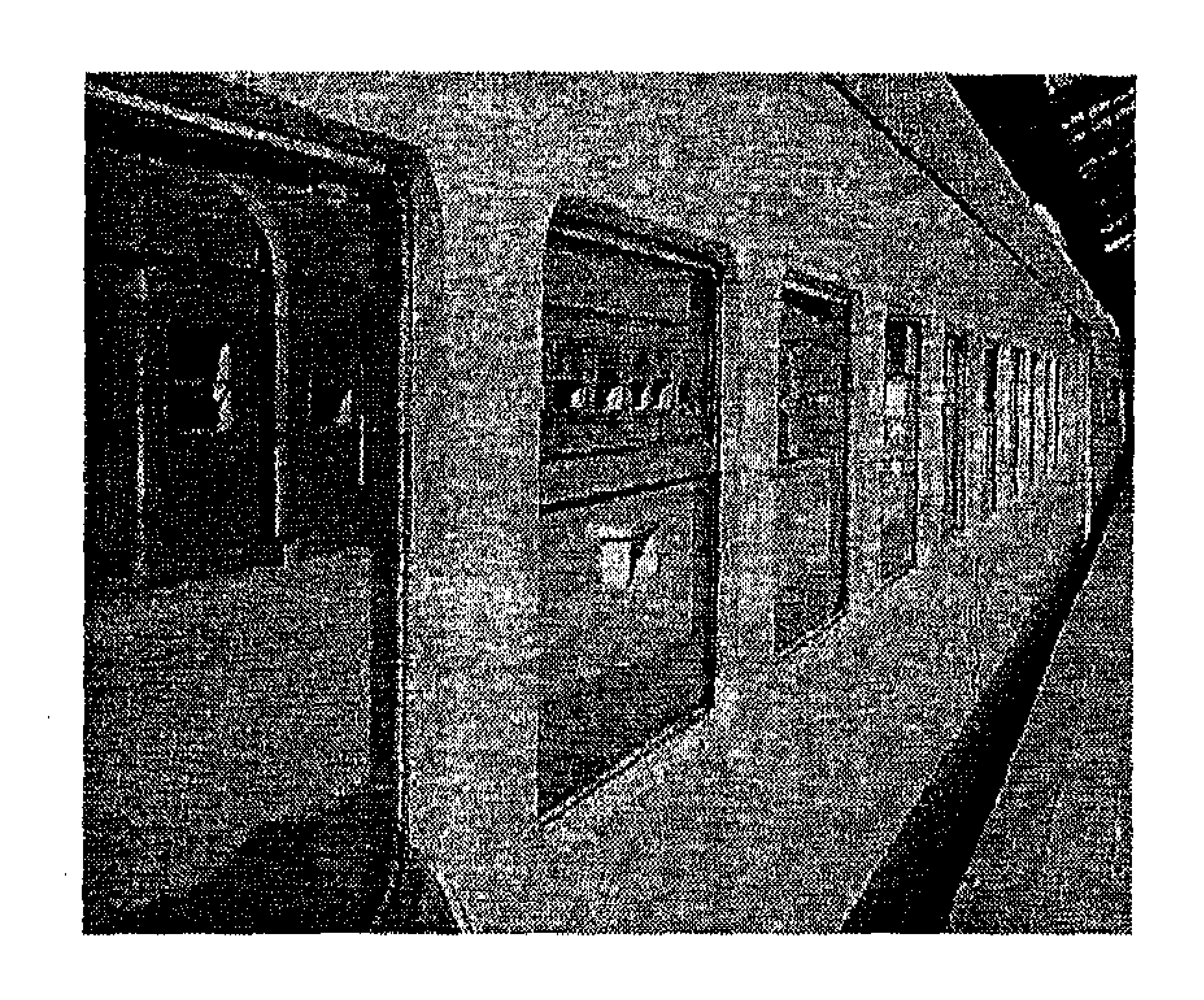
فعلى سبيل المثال يتغير اسم العائلة للمرأة في الغرب بعد الزواج لتحمل اسم زوجها وقد يستمر ذلك حتى بعد انفصالهما. إنني لأجد في ذلك إهانة للمرأة وسلبًا لأبسط حقوقها ألا وهو الاحتفاظ باسمها الذي نشأت عليه منذ الولادة وتميزت به ذاتها. وكذلك أرى أن استغلال المرأة

في الإعلانات واستعراض كل ما ظهر وخفي من مفاتن جسمها بغرض الدعاية لبعض المنتجات التجارية ما هو إلا صورة من صور الرق الحديث. ولا يفوتنا أيضًا أن ننظر إلى النتائج المترتبة على ما يسميه الغرب بحرية تصرف المرأة في جسدها فقد ساعد ذلك على الإنتشار العلني للبغايا المحترفات ولا يستطيع أحد أن ينكر أنهن قد أمتهنت كرامتهن إلى أقصي ما يكون الإمتهان ولا يمكن إلا لغافل أن يظن أنهن يتمتعن بأي قدر من حقوق الإنسان.

من المنطقي أن نشن هجومًا مضادًا على من يريد أن يسن قوانين مجحفة حسب ما يملي عليه هواه أو مصلحته ويفرضها علينا بصفة ما يسمى بالشرعية الدولية. يجب أن نعرض وجهة نظرنا بالحجة والمنطق وندعمها بالإحصائيات لنظهر تميزها عما لديهم من فساد وضياع لحقوق المرأة. فإذا أرادوا أن يغيروا نمط حياتنا فليغيروا هم أيضًا ما هو قبيح في أنماط حياتهم أو فليتركونا وشأننا ولنصلح حالنا بأنفسنا بإتباع أوامر الله وليتكاتف الجميع مسلمون ونصارى ليبعدوا الفحشاء عن مجتمعاتنا وليحافظوا على بناء الأسرة النقية الفاضلة.

* * *

قطار الليل



جلس طاهر على مقعده بالدرجة الأولى بالقطار المتجه من سيدي جابر إلى القاهرة مساء أحد أيام الشتاء الباردة وأخذ يتصفح إحدى المجلات حتي بدأ يغالبه النوم على النغمات الرتيبة لصوت عجلات القطار فوضع المجلة جانبًا وترك لنفسه العنان لتسترجع أحداث من الماضي وتتنقل بين ذكرياتها مع السفر ليلًا بالقطار والتي في أغلبها كانت سفرًا إلى المجهول.

تذكر أول مرة ركب فيها القطار من القاهرة إلى الإسكندرية وكان في حوالي الثامنة من العمر حين سافر هو وأخواه مع أمهم إلى القاهرة لقضاء عطلة نصف السنة. كان سفرهم بسيارة من تاكسيات القاهرة ذات اللونين الأبيض والأسود وكان نوعها مرسيدس من خمسينيات القرن العشرين، كانت جدته قد أعتادت على السفر عدة مرات مع سائقها من قبل. أقلهم السائق إلى باب بيت خالته بضاحية مصر الجديدة في أول مرة يتسنى له فيها السفر خارج الأسكندرية. بالطبع كانت رحلة رائعة وكان كل شيء فيها مدهشًا لطفل في مثل سنه ومرت أيامها في استكشاف القاهرة من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها وبصحبة خالته وأولادها.

لحق بهم والده في آخر يومين من الرحلة ثم أصطحبهم إلى محطة السكة الحديد بميدان رمسيس، حيث استقلوا القطار عائدين إلى الإسكندرية وقد كان الليل قد بدأ في الهبوط تدريجيًا على الأراضي الزراعية المحيطة بطريق القطار حتى أسدل ظلامه الدامس حولهم إلا من بعض الأضواء التي كانت تظهر على بعد أو قرب وقطارهم ماض بعزم فوق قضبانه الحديدية. كان لصوت القطار أثرًا عجيبًا في نفس طاهر فقد كان يشعر برهبة من ذلك الصوت الممزوج بالظلام والبرد.

كبر سنه ولكن لم يفارقه نفس الشعور في كل مرة يستقل فيها قطار الليل. فها هو وقد بلغ العشرين عامًا يسافر إلى أوربا، لاستكشاف عالم الغرب الذي كان يسمع عنه ولا يراه إلا من خلال الأفلام والمسلسلات التليفزيونية غير الملونة، ركب القطار من باريس إلى مدينة تزوج السويسرية القريبة من زيورخ ملبيًا دعوة إحدى الصديقات ولم يكن يعلم أي شيء عن المكان ولا أية تفاصيل عن العائلة التي سوف يحل عليها ضيفًا لبضع أيام. جلس على مقعده بالدرجة الثانية وكانت العربة مقسمة إلى دواويين بكل منها ثمانية مقاعد ولها باب جرار. لم يستطع التعرف على أي من الركاب بالرغم من أن معظمهم كان في مثل سنه بسبب جهلهم باللغة الإنجليزية أو إذا صح القول بسبب جهله هو بكل من اللغتين الفرنسية والألمانية. مضت الساعات من المغرب حتى الصباح لم يتبادل فيها إلا كلمات قليلة مع الفتاة الجالسة بجواره وأقل منها مع مندوب الجوازات السويسري. أما باقي الوقت فلم يكن أمام طاهر إلا الإسترسال مع الخيال مفكرًا فيما قد ينتظره من المفاجآت ومستمتعًا بهذا الشعور الغامض بالقشعريرة وهو يتابع سير القطار مجتازا أنفاقا تحت الجبال يبلغ طولها ما يقرب من العشرة كيلومترات.

تكرر المشهد ولكن هذه المرة في قطار مستواه أقل بكثير من الدرجة الثانية بالرغم من أنه قد كتب عليه ذلك. وبخلاف المرة السابقة فكان يعرف كل من حوله فقد كانوا كلهم من زملاء وأصدقاء الدراسة. المسافة طويلة بين القاهرة والأقصر والجلوس مدة طويلة على المقاعد الصلبة كان صعبا فكان لا بد لطاهر من التجول بين الأصدقاء من حين إلى آخر. أما القطار فكان حاله متغيرًا ففي بعض الأحيان يمضي مسرعا ويطلق صفارته متحديًا كل ما يمكن أن يعترض طريقه وأحيانًا أخرى يتلكأ بل ويتوقف تاركًا الطريق لمن له الأفضلية من القطارات الأخرى.

لم تكن الشبابيك محكمة وكان ليل الصعيد باردًا وصوت القطار

عاليًا فأنتابت طاهر قشعريرة أشد من المرات السابقة فأخذ يلف نفسه بغطاء ثقيل. كان ذكيًا في التقرب من زميلاته مع الإحتفاظ بحاجز من الاحترام وعدم الإقلال من كرامته أو ظهوره بمظهر المندفع الولهان. قرر ألا يستسلم كثيرًا للنوم وأن يستغل طول السواد وقرب المقام في تدعيم أواصر الصداقة والثقة مع من أراد محققًا هدفًا لم يكن له فائدة ترجى إلا رغبة في نفسه قضاها فزادته سعادة وثقة في نفسه.

كانت لها شخصية فريدة وسط الآخرين. كانت ذكية لماحة متفوقة في الدراسة تجيد الحديث مع الجميع ولكن بدون أن يفارقها الحياء. لبست الحجاب حين لم تلبسه إلا القليلات وأثناء الرحلة غنت بصوتها العذب على نغمات العود أغنيات لأم كلثوم حين لم تقدم غيرها على الغناء. كان إعجاب طاهر بها من نوع روحي فلا يذكر أنه تجرأ على أن ينظر إلى جسدها نظرة الرجل للمرأة ولكنه كان يكتفي بالنظر إلى وجهها فكان يرى فيه القمر الوضاء ويستمع إلى حديثها فيحس فيه بعذوبة وصفاء. كل ما يذكره أنها لم تكن طويلة ولا شديدة القصر وكانت وسطًا بين النحافة والسمنة. قد أحبها العديد من زملائه. سمع عن ذلك من كثير من الأصدقاء بل ورآه بنفسه في أعين بعضهم واضطرابهم أمامها. لم يكن طاهر يدري إن كان قد أحبها حقا ولكن ما أدركه هو أنه قد شد إليها شدا وقد كان أصغر منها بعام أو أكثر وكان لا يستطيع أن يقدم على أي إرتباط مثله مثل الكثير من زملائه قبل أن يؤدي الخدمة العسكرية وكان ذلك بعد حرب أكتوبر بثلاثة أشهر وكانت مدة الخدمة في ذلك الحين تتراوح بين السنة والثلاثة سنوات.

استرسل طاهر في تذكر الأيام الحلوة التي قضاها في تلك الرحلة وتذكر عندما حمل كاميرته وأقترب منها وكان معها زميلة أخرى فتوقعتا أنه جاء يلتقط لهما صورة يملأ نهر النيل وبر الأقصر الغربي خلفيتها ولكنه أثار حفيظتهما حين قام بتجاوزهما وذهب يلتقط الصورة لحمار

يقف بالقرب من الشاطئ. لم يطل الأمر حتى تتهيأ الفرصة له أو لأي من الزملاء للتقدم إليها خاطبًا بل جاء من هو أكبر سنا وأكثر استعدادًا وتزوجها بعد تخرجها مباشرة وأخذها معه إلى إحدى الولايات الأمريكية فأفاق الجميع من حلمهم.

لم تكن كل ذكرياته مع قطار الليل سعيدة مثل ذكريات رحلته تلك إلى الأقصر وأسوان فهو لا يستطيع أن ينسى ذلك اليوم العصيب الذي قضى فيه ما يقرب من أربع عشرة ساعة في قطار الدرجة الثالثة بين الإسكندرية وضاحية الزيتون. ولكنه يتذكر أنه قد إنتابه في ذلك اليوم نفس الشعور الغامض الذي يتولد من تلك التوليفة الرباعية من ظلام وبرد وصوت عجلات القطار وذهاب إلى مجهول. انتهت الرحلة في حوالي الثانية من صباح اليوم التالي بافتراش الأرض الغير ممهدة والتي تمتلأ بالحصى الصغير في منطقة التجنيد بضاحية الزيتون. التف ببطانيته الخشنة ونام على التراب بجوار مخلته حتى سمع صوت البروجي القوي عازفًا نوبة صحيان فقام ينفض آثار يوم عصيب مع ظهور أولى نسمات الصباح.

تم توزيع طاهر مع بعض زملائه كجنود على إحدى وحدات الجيش الموجودة بمدينة نصر ليخدموا فيها وقد حسدهم الكثير على حظهم العظيم حيث كانت الخدمة في ذلك المكان سهلة وكان بإمكانهم المبيت خارج الوحدة منذ اليوم الأول. ولكن الأمر لم يطول إلا لسبعة أيام صدر بعدها قرار وزاري بإرسال كل المهندسين المجندين في ذلك الشهر إلى كلية ضباط الإحتياط. وبعد عدة أيام صدر الأمر إليهم بالسفر إلى حيث توجد الكلية في ضواحي إسنا وكان قدره مع أطول وأشق رحلة قطار قام بها في حياته.

وصل عصرًا إلى محطة القطارات برمسيس قادمًا من الإسكندرية بعد وداعه لأمه وأخواه مرتديا زي العسكرية وحاملا معه مخلته وحقيبة

صغيرة. كانت المحطة على ما هي عليه دائما من إزدحام وحركة دؤوب وأعداد غفيرة من البشر يتحركون في جميع الاتجاهات فتتقاطع خطواتهم جيئة وذهابًا. كانت القطارات تقف على أرصفة المحطة ومنها الفاخر المكيف ومنها الغير مكيف بل ومنها الغير آدمي الذي يكتظ باطنه وخارجه وحتى سقفه بالركاب من الطبقات الكادحة ومن الغوغاء.

لم يكن حال المحطة يختلف في ذلك اليوم عن أي يوم آخر ولكنها وقعت في نظر طاهر موقعا لم تقعه من قبل فأنقبض قلبه وهو يخطو خطوة تلو الأخري متجها نحو قطار مظلم تكسوه الأتربة يقف على رصيف بعيد من أرصفة خط الصعيد، إنه القطار المسمى بمخصوص إسنا.

وضع قدمه على سلم القطار ولم يكن يدري أنها الخطوة الأولى في رحلة عذاب تستمر لما يقرب من اثنين وعشرين ساعة. كانت العربة في حالة يرثى لها وكأن هيئة السكة الحديد قد جمعت العربات من مخازن الكُهنة أو أنها اختارت أسوأ عربة من كل قطار من قطارات الدرجة الثالثة وبدلا من إرسالهن إلى التقاعد فقد تم جمعهن ليكونن هذا القطار العجيب. كانت النوافذ لا يمكن إغلاقها وإن أغلقت فلا يمكن إحكامها. دورات المياه تفوح رائحتها في كل أنحاء العربة. مقاعد من الخشب الغير منجد والمسافات بينها متقاربة لا تكفي لموطئ قدم.

مكث مع الماكثين عدة ساعات حتى سمع أن الأمر قد صدر من ضابط عظيم القطار بتحرك القطار العسكري الذي بدأ يسير ببطئ شديد وكأن مصلحة السكة الحديد قد تبرعت بتسييره على ألا يتسبب في تعطيل حركة قطاراتها الأساسية بما فيها قطارات النقل البطيئة التي تجر خلفها عشرات العربات المحملة بالبضائع.

ليلة طويلة كان فيها الإحساس بالإرهاق وقلة النوم مع صعوبة

الجلوس مختلطا مع الشعور ببرد خريف الصعيد القارس يحمله الهواء المتسلل من النوافذ المكسورة متجولًا في كل أرجاء العربة ثم خارجًا من أبوابها المفتوحة. صوت سيمفونية غامضة تعزفها عجلات القطار على القضبان المتآكلة. صفير متقطع من حين إلى حين. صوت إحتكاك الفرامل يتبعه سير بطيء أو توقف تام لمدة قد تطول إلى ما هو أكثر من نصف الساعة. جرس نحاسي يقرعه ناظر المحطة وهو يرتدي معطفًا من الصوف الثقيل ويلف كوفية حول عنقه ويغطي رأسه بطاقية خضراء. يلوح للسائق بيده فيعاود القطار سيره ثم يمشي الناظر بكسل شديد وكأنه يجر قدماه جرًا عائدًا إلى كشكه. يرتفع صوت القطار من جديد فيتضاءل بجانبه صوت شخير النائمين على الأرفف بين المخل. لولا غطيطهم لحسبتهم أمواتًا. مر الوقت برتابة توقد شعورًا بالقلق والخوف من المجهول المنتظر وسط صحراء وادي الجن بإسنا. ذكرى مع قطار الليل حُفرت في عقل طاهر وبقيت معه تعاوده كلما ركب القطار ليلًا.

خرج من تخيلاته واعتدل في جلسته وأخرج التذكرة وناولها لمفتش القطار ثم أعادها إلى جيبه وعاد إلى الاسترخاء ليسترجع المزيد من ذكرياته مع قطارات الليل. مر قطار النوم مسرعًا بجانبهم عندما كان مع زملاء الدراسة في طريقهم إلى الأقصر. نظر إليه متمنيًا أن يستطيع السفر على متنه بدلًا من قطارهم المتواضع وإذا به بعد ما يزيد عن السنتين يركب قطار النوم وهو برتبة الملازم أول احتياط ذاهبًا إلى قنا في طريقه إلى قاعدة سفاجا لإصلاح عطل فني أصاب أحد الأجهزة الموجودة على متن إحدى المدمرات. كان تواقًا لركوب هذا القطار ولكنه لم يجد الراحة عندما فرد جسمه وأغمض عينيه طالبًا النوم فوق سريره الصغير. كان ارتجاج القطار يهز رأسه فيسبب له الصداع ففضل الجلوس على النوم وتذكر كيف كان بعض زملائه يمددون أجسامهم على الأرفف ويذهبون في نوم عميق أثناء السفر بالقطار العسكري إلى إسنا. تمنى لو

كان يملك تلك القدرة مثلهم وأيقن أن الراحة يمكن أن تأتي من الشعور الداخلي للإنسان وبتجاهله للظروف المحيطة به مهما كان افتقارها إلى أي وسيلة من وسائل الرفاهية.

رن جرس المحمول مع الرجل الجالس في الجهة المقابلة على اليمين وبدأ حديثًا بصوت مرتفع أدرك منه طاهر أن الرجل يسافر كل صباح بالقطار من القاهرة إلى طنطا ثم يعود ليلًا. كان يظن بنفسه الخبرة الواسعة مع السفر بالقطارات ولكنه أدرك أن عدد مرات سفره تتضاءل عندما تقارن بسفريات مثل هذا الرجل ولكن بالرغم من ذلك فهو على يقين بأن السفر بالقطار خاصة ليلًا له مكانة وذكرى في باطن عقله قد لا تجد مثلها عند أغلب المسافرين ولو تعدد وطال سفرهم.

* * *

دعاء الأم



كانت أول مرة تطأ فيها قدمي طاهر أرض الكويت. لقد جاء في مهمة عمل لمدة ثلاثة أيام ولكنها لن تكون الأخيرة فسوف يأتي إلى الكويت مرات تلو مرات حتي يقضى ما يزيد عن السنتين مسافرًا إليها مع بداية كل أسبوع من موطن إقامته بأبوظبي.

وكعادته كان طاهر شغوفًا باستكشاف أي بلد يسافر إليه وبأن يرى كل ما يستطيع أن يراه أثناء زيارته. ولم يضع وقته فبمجرد عودته من عمله في اليوم التالي لوصوله سأل زملائه في العمل عن الأماكن التي يمكن الذهاب إليها باستخدام سيارات الأجرة فدلوه إلى "سوق شرق" الذي يعد واحدًا من أكبر مراكز التسوق بالكويت واستدعى له أحد الزملاء سيارة أجرة تعود سائقها أن يوصلهم إلى العمل في أغلب الأيام فجاء السائق وقام بتوصيل طاهر من حي سلوى إلى سوق شرق.

عندما انتهى طاهر من جولته خرج من إحدى بوابات المركز التجاري وذهب إلى سيارة من سيارات الأجرة وسأل سائقها الهندي إذا كان بإمكانه توصيله إلى شارع أربعة في المنطقة الرابعة بحي سلوى فلم يتردد السائق ورحب به. وصل السائق إلى حي سلوى وأخذ يذهب من شارع إلى شارع ثم أخبر طاهر أن ذلك هو الشارع المقصود. نظر طاهر فرأي بعض اليافطات التي ظن أنها هي نفس اليافطات التي رآها عند وصوله مساء اليوم السابق فأعطى السائق أجرته التي قاوله عليها ونزل إلى الطريق. بعد أن خطى بضع خطوات تيقن أن المكان غير المكان فقد كان الشارع كأغلب شوارع سلوى يمتلئ بالبيوت الخاصة ولم يكن به أية محال تجارية بل ولم يكن هناك من يسير على قدميه فاحتار طاهر ولم يدري كيف يستدل على اتجاهه فهو في شارع أربعة ولكن من المؤكد أنه ليس في المنطقة الرابعة.

لم يكن قد اشترك بعد في خدمة التجوال التي تسمح له باستخدام هاتفه المحمول أثناء السفر خارج الإمارات وحتى لو كان معه فكيف يستطيع أن يطلب سيارة أجرة وهو لا يعلم مكانه. أخيرًا وقع نظره على رجل بنجالي يسير في الطريق فسأله عن المكان فعلم منه بصعوبة أنه في المنطقة الثانية عشر وليس في المنطقة الرابعة. كان الجو حارًا وكانت الرطوبة شديدة ولكن لم يكن أمام طاهر خيارًا غير المزيد من السير على قدميه. إختار اتجاهًا وقرر أن يسير فيه ويرى إن كان رقم المنطقة يقل أو يزيد فيصحح اتجاهه ويسير إلى المنطقة الرابعة. لقد كان مخطئًا في تفكيره هذا لأن المناطق لم تكن مرتبة بطريقة متتالية حسب الرقم ولكنه لم يكن على علم بذلك وظل يسير قرابة نصف الساعة حتي أدركه الفرج ووجد ثلاثة محال تجارية صغيرة وقليلًا من الرجال أمامها. تقدم إلى رجل ظنه هندي وسأله عن الحي الرابع فأخبره الرجل أنه بعيد عن ذلك المكان وأنه سوف يجد عناءً إن واصل السير على قدميه مع إرتفاع رطوبة الجو. سأله طاهر عن وسيلة يطلب بها سيارة أجرة فأشار إليه الرجل أن يجلس قليلًا على أحد المقاعد أمام المطعم الشعبي الصغير الذي يعمل به. عاد الرجل يحمل كوبًا من الشاي فقدمه له وأخبره بأنه سائق سيارة توصيل الطلبات إلى المنازل وسوف يقوم بتوصيله عندما يتم تجهيز الطلبات. كانت فرصة لتبادل الحديث بين الرجلين فعرف طاهر أن محيي هو عامل بسيط جاء من سريلانكا باحثًا عن الرزق في الكويت. الغريب أن الحديث كان مماثلا لأحاديث طاهر مع أصدقائه المصريين والعرب حديث كله شجون وحسرة عما صار إليه حال المسلمين من ضعف ووهن في هذا الزمان. رغم تأثر طاهر بهذا الحديث الحزين إلا أنه قد أحس ببعض السعادة في داخله لأنه قد أيقن أن مشاعر المسلمين واحدة رغم إختلاف الموطن واللغة بل وتفاوت مستوى التعليم والثقافة.

ذهب الرجل ثم عاد محملًا بطلبات الزبائن ودعا طاهر للصعود إلى السيارة الخاصة بالمطعم لتوصيله إلى مبتغاه. وصل طاهر الي الجهة المقابلة لمكان إقامته فوضع يده في جيبه وأخرج دينارين ووضعهما في يد محيي شاكرًا مودعًا ولكنه فوجئ بالرجل الفقير يرفض ان يأخذ أي أجر على صنيعه ويؤكد له أنهم أخوة في الإسلام فسأل طاهر له الله البركة وأخذ يدعو له بالرزق في الدنيا والآخرة.

جلس طاهر على سريره ومدد رجليه المتعبتين وأخذ يستعرض الأحداث التي مرت به في طريق عودته إلى النزل وقال لنفسه لا يمكن أن يكون هذا الرجل إلا ملاكًا قد بعثه الله لي ثم تذكر أن هذه ليست أول مرة في حياته يصادف فيها التوفيق من الله ويجد أمامه من يمد له يد العون من حيث لا يدري. وبدأت الذاكرة تعود به إلى ما يقارب السبع وعشرون عامًا عندما كان طالبًا في الجامعة. لقد ودع أهله وسافر حاملًا مائة دولار على أمل قضاء ثلاثة أشهر من الإجازة متنقلًا بين بلاد أوربا فقد كانت موضة شباب الجامعة في أوائل السبعينيات السفر إلى الغرب صيفًا للسياحة أو لكسب المال ثم العودة مع ذخيرة من الذكريات يتمتعون بالحديث عنها بين زملاء وزميلات الدراسة.

وصل طاهر قبل مغيب الشمس إلى بلدة بولون التي تقع على الساحل في شمال فرنسا. كان كل همه أن يوفر بقدر ما يستطيع من مصاريف الإنتقال والإقامة كي يستطيع أن يبقى أطول مدة ممكنة من إجازته الصيفية في أوربا بما يحمله من قدر يسير من المال. استطاع أثناء قضائه الأسبوع الأول في باريس أن يحجز لنفسه مكانًا لمدة أسبوعين في أحد معسكرات العمل بمدينة "برك بلاج" على شاطئ المانش. كان العمل مجانًا في ذلك المعسكر ولكن كان يكفيه أن يقضي وقتًا ممتعًا ويتعرف على الكثير من الشباب من مختلف الدول بدون أن يصرف فرنكًا واحدًا في الطعام والمبيت فقد كان يحسب لكل فرنك يصرفه حسابًا.

كان طاهر يجيد النظر في الخرائط وحفظ الأماكن ومعرفة الاتجاهات. وكان قد تمرن أثناء رحلة العام السابق في هولندا على التنقل بطريقة "الأتوستوب". لذلك فقد استيقظ مبكرًا صباح ذلك اليوم وذهب إلى شمال باريس حيث تقع بداية الطريق إلى "بولون". كان قد أعد قطعة من الكرتون وعدة قطع من الورق المعد ككسوة لقطعة الكرتون ومكتوب عليه أسماء المدن المختلفة التي يأمل زيارتها. وضع الكرتون داخل ورقة مكتوب عليها "بولون" ورفعها منتظرًا الفرج من الله. كانت العملية مسلية ولكنها كصيد السمك تتطلب الصبر مع بعض الخبرة في إختيار مكان الوقوف بالطريق. توقفت له إحدى الفتيات وأخبرته أنها ذاهبة إلى "كاليه" وعرضت توصيله إلى نقطة على مفترق الطرق مع طريق يؤدي إلى "بولون". لم يستغرق وقتًا طويلًا في التفكير فعصفور باليد خير من الانتظار ثم إن صحبة فتاة في السيارة قد تكون أفضل من صحبة شاب أو الجلوس في الخلف في حال توقف سيارة بها اثنان.

مرت قرابة الساعتين في الطريق لم يشعر بهما طاهر لأنه كان منشغلا بالحديث مع قائدة السيارة وكذلك بالتمتع بالنظر إلى الطريق فلم يكن معتادًا على هذه الطرق السريعة المرتبة ولا على مناظر الطبيعة الخلابة المحيطة بها. وأخيرًا وجد نفسه خارج السيارة في مكان لا يعلم عنه شيئًا. قام بالسير قليلا كي يقف عند بداية الطريق الفرعي المتجه إلى "بولون". لم يكن الأمر يسيرًا كما كان في أول رحلته في شمال باريس فالحركة على الطريق هادئة والسيارات قليلة فاضطر للمكوث أكثر من ثلاثة أرباع الساعة حتى توقفت له سيارة بها شاب وصديقته. كانت السيارة في حالة من الفوضي وأرضيتها ممتلئة بالأكياس وعلب المشروبات الفارغة.

وصلت السيارة إلى بولون وأوصل صاحبها طاهر إلى موقف للحافلات وأبلغه أنه يستطيع أن يستقل حافلة من هذا الموقف إلى أي مكان يشاء

الذهاب إليه من ضواحي بولون. ولكنه أصيب بخيبة الأمل عندما سأل عن الحافلة الذاهبة إلى برك، ففهم بقدرته المحدودة على فهم الفرنسية، أنه لا توجد حافلة إلا في الصباح التالي. عند ذلك رأي طاهر رجلًا يسير أمام المحطة وكان يبدو عليه أنه من أصل يرجع إلى إحدى بلاد المغرب العربي. فتقدم إليه وسأله بالإنجليزية فلم يفهمه فأعاد السؤال بالعربية فرحب به وعرفه أنه جزائري الأصل ودعاه إلى شرب القهوة معه في إحدى المقاهي. لبى طاهر الدعوة وعند دفع الحساب رفض الرجل الجزائري أن يسمح لطاهر بالدفع وقام هو بذلك.

تجاذبا أطراف الحديث أثناء تناول القهوة وسأل طاهر الرجل عما إذا كان يستطيع أن يدله على بيت للشباب أو على فندق رخيص بالمنطقة فعرض عليه الرجل أن يصطحبه إلى سكنه وأن يقضي الليل ضيفًا عليه. شكره على الفور ولم يستطع الموافقة على هذه الدعوة فقد انتابه شعورًا كان مزيجًا من الحرج من أن يتطفل على الرجل ويكون ضيفًا ثقيلًا عليه ومن الخوف من أن يذهب مع رجل لم يعرفه إلا منذ ساعة من الزمان ولا يعرف عن خصوصياته شيئًا ولكنه قبل الدعوة في النهاية أمام إصرار الرجل الذي بدا صادقًا في كرمه.

ذهبا معًا إلى مبنى قريب وصعدا إلى غرفة متواضعة بها سرير واحد وملحق بها مطبخ صغير. قام الرجل على الفور بإعداد الشكشك وهي وجبة من البيض المخلوط بالبصل والطماطم. وبعد أن تعشيا أخذ الرجل مرتبة من على السرير ووضعها على الأرض وأصر أن ينام هو عليها وأن يترك السرير لضيفه. لم يستغرق طاهر إلا قليلًا من الوقت حتى ذهب في النوم بعد عناء يوم سفر طويل. استيقظا في الصباح وكان يوم أحد فقدم الرجل الكريم الخبز والمربى لطاهر ثم اصطحبه إلى المحطة حيث لحق بالحافلة المتجهة إلى برك بلاج.

أفاق طاهر من ذكريات الماضي وقام من سريره ليطفئ ضوء الغرفة الرئيسي ويكتفي بالإضاءة الخافتة القريبة من سريره، فقد كان عليه ألا يتأخر عن النوم كي يستطيع أن يستيقظ مبكرًا ويستعد قبل وصول السائق شفيق في السادسة والنصف ليقله هو وزملاءه إلى شركة البترول الكويتية بمنطقة الأحمدي. عاد مرة أخرى إلى سريره ولكن بدلًا من الاستسلام للنوم فقد ذهب به عقله مرة أخرى إلى الماضي وانطلقت ذاكرته إلى واقعة أخرى حدثت له بعد ما يقرب من ثلاثة أسابيع من مقابلته للجزائري الكريم ببولون.

بعد انتهاء إقامته في برك بلاج، قامت إحدى صديقات المعسكر باستضافته هو وما لا يقل عن ثمانية من أصدقائهم الجدد الآخرين من سويسريين وألمان ليقضوا بعض الأيام الممتعة، حيث تقيم في ضاحية فرساي الأنيقة. تمكن طاهر أثناء تلك الفترة من الحصول على تأشيرة زيارة لبريطانيا من سفارتها بباريس ثم اتصل برجل مصري يدير أحد أفرع مطعم شهير للمشويات في لندن، كان قد تعرف خاله عليه أثناء تناوله الطعام بالمطعم في إحدى زياراته للندن، فوعده الرجل بتوفير عمل له لمدة أربعة أسابيع كي يتمكن من توفير بعض الجنيهات تمكنه من السياحة في بريطانيا. عقد طاهر العزم على السفر إلى لندن واتبع نفس طريقة الأوتوستوب للذهاب إلى كاليه ثم سافر بالعبارة إلى ميناء دوفر الإنجليزي.

استقل الأتوبيس من الميناء إلى محطة القطار بوسط المدينة فوجد أن أول قطار إلى لندن سيتحرك في صباح اليوم التالي، فذهب إلى أحد بيوت الشباب القريبة عاقدًا العزم على قضاء ليلته هناك ولكن لم يحالفه الحظ فوجد المكان مزدحمًا ولم يجد مكانًا للمبيت. أخذ يجر قدميه جرًا وعاد إلى محطة القطار المغلقة ووضع حقيبته على الأرض وجلس عليها مفكرًا فيما يمكن فعله. لن يكون في إمكانه المبيت في فندق إلا إذا كان

رخيصًا فالنقود قليلة وسوف يحتاج إليها في لندن ولكن كيف له أن يجد ذلك النزل الرخيص.

مر عليه ما يقرب من ثلث الساعة وهو يتفكر في أمره وإذا بسيارة أجرة تتوقف له ويطل إليه سائقها ويسأله عما يجلسه هكذا أمام المحطة وهي مغلقة. أجابه طاهر باختصار شارحًا له مسألته فعرض عليه السائق أن يستقل السيارة معه ليذهب به إلى أقرب نزل رخيص. ارتاب طاهر في أمر السائق وحدثته نفسه أنه من الممكن أن يستغله ويأخذ منه أجرة عالية نظير توصيله أو أن يكون على اتفاق مع أحد الفنادق ويأخذ منهم عمولة على حسابه. لم يستغرق الأمر الكثير أمام عرض السائق فتوكل على الله وركب السيارة. أفهم طاهر السائق عما يعانيه من قلة المال حتى لا يطمع به. ذهب به الرجل إلى ما لا يقل عن أربعة من أماكن المبيت وكان في كل مرة يدخل إليها ويسأل ثم يعود إليه معتذرًا لعدم وجود أماكن شاغرة. في النهاية اقترح السائق عليه أن يعيده إلى صالة الوصول بميناء دوفر، حيث يستطيع أن يقضي ليلته هناك ثم يعود إلى المدينة بالحافلة في الصباح الباكر ليستقل القطار إلى لندن.

وجدها فكرة رائعة فوافق على الفور ولكنه كان يخشى اللحظة التي يصل فيها إلى الميناء وعندها يطلب منه السائق الأجرة. فتح طاهر الباب وقبل أن يهم بالخروج سأل عن مقدار الأجرة ففاجأه السائق بقوله إنه قد فعل ذلك خدمة له وإنه لا ينتظر على ذلك أجرًا. لم يصدق نفسه وأكثر الشكر للرجل وبات ليلته مطمئنًا شاكرًا لله على فضله.

لا يمكن أن يكون ما تكرر له من الأحداث وظهور رجل خير ينقذه مما يصادفه من متاعب في كل من المرات الثلاثة من قبيل الصدفة. الغريب أن صفات المنقذ كانت تختلف في كل حالة فالأول عامل عربي من شمال أفريقيا في أواخر الثلاثينات والثاني سائق بريطاني من شمال أوربا

في أوائل الستينات والأخير موصل طلبات مسلم في حوالي الأربعين من جزيرة آسيوية. اختلفوا في الكثير ولكنهم اجتمعوا على صفة الشهامة والمروءة.

لقد أصبح طاهر الآن على يقين بأن الله قد بعث له هؤلاء استجابة لدعوات أمه التي قلما مر عليها يوما دون أن تدعو له قائلة "ربنا يوقف لك أولاد الحلال". ما أحلى وأطيب الكلمات التي توارثتها عن أمها وجدتها والتي كانت تدعو الله بها فقد كان من دعائها "ربنا يحبب فيك خلقه حتى الحصى في أرضه" و "ربنا يفتح كل الأبواب في وشك" و "ربنا يصلح ما بين إيديك".

كل أم قد تدعو لولدها ولكن ليس كل دعاء يخرج من القلب. قد يكون الدعاء للولد بصفة روتينية مبنية على الشعور بالأمومة، وقد يكون دعاء نابعا من أعماق القلب المنشرح بسبب عمل صالح قام به الابن إرضاء لأمه ووفاء لفضلها عليه. وشتان بين الاثنين.

أثناء دراسته بالجامعة كان كثيرًا ما يمر طاهر على بيت جدته ليأخذ قسطًا من الراحة في الفاصل بين محاضرات الصباح والعصر. وكان يتصادف في بعض الأحيان مرور خاله الطبيب على جدته محضرًا إليها بعض الخيرات مما رزقه الله أو على الأقل مسلمًا عليها وهو في طريقه إلى عيادته. كان يسمع كلماتها ويرى وجهها أثناء الدعاء، وكان يأتيه الشعور بأنه دعاء صادق يسمعه الله من فوق سبع سماوات فيستجيب له. وقد رأى بنفسه كيف أعطى الله خاله البار فأوفى له العطاء وأعلى من مكانته العلمية وأكثر من ماله وشهرته. فلا يضيع الله أجر من أحسن عملًا خاصة من أحسن لوالديه وبرهما ولم يسئ لهما أبدًا.

وجعلنا الليل لباسًا



انتهزت فرصة وجودي بمدينة أبردين بشمال أسكوتلندا ونظرت في الأنشطة الفنية المختلفة التي تعرضها مسارح المدينة لأرى ما أستطيع مشاهدته خلال فترة إقامتي القصيرة فوقع اختياري على عرض لفرقة الباليه الأسكتلندية باسم كارمن. كان أول أيام العرض هو يوم الأربعاء وكان موعد سفري في فجر يوم الخميس. اضطررت للبقاء في العمل حتى الساعة السادسة مساءً لأنهي كل الأعمال المطلوبة من جهة الشركة المتعاقدة معنا ثم عدت مسرعًا إلى الفندق وكان على مسافة ما يقرب من العشرة دقائق سيرًا على الأقدام. تركت حقيبتي وصليت ثم خرجت متجهًا إلى مسرح "هيز ماجستي". عرجت في الطريق على مطعم صغير يملكه رجل باكستاني فالتهمت قطعة من البيتزا الساخنة في بضع دقائق ثم أكملت سيري إلى المسرح.

وصلت قبل ميعاد العرض بعشر دقائق وكانت معي التذكرة التي حجزتها عن طريق الإنترنت. كان مكاني في الصف الخامس حسب المخطط الذي رأيته عند الحجز، ولكني فوجئت بأن مكاني على الواقع في الصف الأول وعلي بعد مترين من الفرقة الموسيقية. شد جمال المسرح انتباهي وتذكرت الأيام الخوالي عندما كنا نذهب في الستينات والسبعينات إلى دور السينما الكبيرة بالإسكندرية مثل أمير ومترو ورويال والتي كانت تتمتع بكثير من الأناقة التي تفتقر إليها صالات العرض الصغيرة التي تمتلئ بها الآن مراكز التسوق الحديثة.

بدأ العرض في تمام السابعة والنصف وكان شيقًا وتميز الراقصون بالألوان الجذابة لملابسهم الرائعة ذات الطراز الأسباني. عند انتهاء العرض في التاسعة والربع، لبست سترتي الجلدية الثقيلة وخرجت إلى الطريق وكانت الشمس قد غربت منذ مايقرب من الأربعين دقيقة، ولكن

كما هو المعتاد في بلاد الشمال، لم يكن الظلام قد حلّ بعد.

كان الهدوء هو أهم ما لفت نظري عندما أوصلتني قدماي إلى "ينيون إستريت" أهم شوارع أبردين التجارية، فقد أغلقت جميع المحال أبوابها بحلول الساعة السادسة وخفت حركة الناس بعد ما انتهى رواد المطاعم من تناول عشائهم. إن التشابه لعظيم بين صورة هذا الشارع وبين صورة شارعي صفية وسعد زغلول في الإسكندرية التي عرفتها في صباي. الإسكندرية التي كانت شوارعها تتسم بالنظافة والهدوء. الإسكندرية التي كانت تنام مبكرًا بعد أن تغلق محالها التجارية في الثامنة مساءً وتهدأ حركة أهلها في محطة الرمل بعد صعود رواد السينما، الخارجين من الحفلات المنتهية في ما يقرب التاسعة مساءً، إلى عربات ترام الرمل الزرقاء.

كم اشتقت إلى منظر الإسكندرية القديم بعد التاسعة والنصف مساءً. ما أشبه الإسكندرية في الستينات بمدن أوربا المتحضرة. فماذا حل بنا وقلب كل الموازين والمعايير في حياتنا كمصريين بصفة خاصة وكعرب بصفة عامة. كيف اختفى النظام وترك الحبل على الغارب وأصبحت أماكن التسلية والمقاهي، بل والمحال التجارية أيضًا، تفتح وتغلق أبوابها في أي وقت تشاء. كيف يعمل وينتج شعبًا سهر الليل ولم ينم إلا مع طلوع الفجر. يال عجبي كيف أصبح الليل وقتًا للحركة وأصبح النهار للنوم والخمول.

قد يتحجج البعض بأنهم مضطرون لمجاراة الآخرين وإلا فإنهم سيفقدون جزءًا من دخلهم أو سيخسرون علاقاتهم الاجتماعية. ولكن ما الحجة التي تملكها السلطة التنفيذية في تهاونها وتراخيها مع هذه الفوضى في تنظيم الوقت. وكذلك ما حجة السلطة التشريعية التي غابت عن سن القوانين التي يمكن أن تعيد الأمر إلى نصابه.

إن دول العالم المتقدم كلها مازالت متفهمة ومطبقة للمنطق ولسنة الحياة التي سنها الخالق للبشر فاستطاعت أن تمشي بخطوات سريعة بل وتعدو أو تطير نحو التقدم. أما نحن فأخطأنا الطريق وسرنا نحو التخلف ولا نريد أن نصلح من حالنا ونعود إلى إعادة تنظيم حياتنا. كم من الساعات نضيع وكم من ضوء الشمس نحرم أنفسنا وكم من الطاقة نستهلك لإضاءة مدننا في ظلمات الليل. إذا نظرنا إلى أية دولة أوربية أو أية ولاية أمريكية، وكذلك إلى دول آسيا المتقدمة وإلى أستراليا ونيوزلندا، فسنرى الحياة تدب في الشوارع من قبل السادسة صباحًا والهدوء يخيم على معظم الأحياء قبل حلول التاسعة مساء باستثناء بعض الأماكن السياحية والمصايف حيث يقضي الناس عطلاتهم.

لقد كان الليل عند الأجداد رمزًا للشر والمعصية فقد أطلقوا لفظ أولاد الليل على اللصوص وقطاع الطرق، كما أطلقوا لفظ بنات الليل على البغايا وبائعات الهوى. لا مجال للشك في أن الله قد جعل الليل لنسكن فيه ولم يجعله للهو والعبث ولا حتى للسعي والعمل إلا لمن اضطرته طبيعة عمله. لقد خلق الإنسان فأبدع خلقه ووضع فيه ساعة بيولوجية تتكيف مع حركة الشمس وينضبط بها نظام خلايا الجسم وغدده.

ومما يدعو للدهشة بل للأسف والأسى أن الكثير الكثير في بلادنا العربية في زمننا هذا، خاصة الشباب منهم، قد غفلوا أو عموا عن رؤية آية الله في خلق الليل والنهار فسكنوا بالنهار وسعوا في الليل. كم أتمنى أن نرجع ونمعن التفكير في سبع آيات من القرآن الكريم لم ينزلهن الرحمن لعبًا بل وضعهن هداية لنا لنتبعهن لعلنا نكون من القوم الذين يؤمنون فيسمعون ويهتدون.

﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الآية ٩٦ – سورة الأنعام)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (الآية ٦٧ - سورة يونس)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ (الآية ٤٧ - سورة الفرقان)

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الآية ٨٦- سورة النمل)

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الآية ٧٣ – سورة القصص)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (الآية ٦١ - سورة غافر)

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ (الآيات ١١،١٠ – سورة القصص)

أفبعد هذه الآيات هناك من أولي الألباب من يستطيع أن يجادل في ما يجب أن يكون سلوكنا في الليل والنهار. فهل جعل الله الليل لباسًا وسكنًا ليجيء من الغافلين العابثين من يحاول أن يبدل سنة الرحمن في خلقه.

* * *

قرار مدمر



قد تكون بعض القرارات التي نتخذها بسيطة لا يبقى أثرها إلا لبضع دقائق أو لسويعات قليلة، بينما قد يكون بعضها الآخر مؤثرًا على مجرى حياة صاحب القرار نفسه أو حياة من يهمه أمرهم من قريب أو بعيد. فقد لا يستغرق تفكيرك مثلًا أكثر من بضع ثوان كي تقرر إن كان الآيس كريم الذي تطلبه من البائع من نوع الفانيليا أو الشوكولاتة وقد يستغرق تفكيرك بضع دقائق لتتفق مع أصحابك على نوع الطعام أو اسم المطعم الذي تتجهون إليه لتناول غدائكم. ويكون القرار أصعب من ذلك إذا ما كان يتعلق بالسفر لقضاء الإجازة سواء ما كان السفر داخل البلاد أو خارجها، حيث إن القرار في هذه الحالة يتطلب اختيار الوقت والمكان المناسبين مع الالتزام بحدود الميزانية المخصصة لذلك، وقد يستلزم الأمر التشاور مع رفقاء السفر سواء كانوا الزوجة والأولاد أو الأقارب والأصدقاء. أما إذا ما كان الأمر يتعلق بزواج أو شراء سكن أو اختيار اسمًا لمولود جديد فقد يستغرق التفكير أيامًا بل أشهرًا؛ لأن القرار يمتد تأثيره إلى مدى حياة صاحبه بل وحياة ذريته من بعده.

وقد يقع الإنسان في المحظور عندما يتبع هواه في اتخاذ قرار مصيري دون تفكر وتدبر، فيتسبب في إفساد حياته وتخريب الناموس الذي تسير عليه. فما بالنا لو كان القرار سيترتب عليه تغيير مجرى حياة الملايين من البشر لمدة قد تمتد لعشرات السنين بل وقد تتجاوز ذلك بكثير. إن الواجب في هذه الحالة يحتم على متخذ القرار اللجوء إلى أصحاب الخبرة والعلم لطلب المشورة والنصح بعد دراسة الأمر بكل احتمالاته في تأنٍ وحكمة. وللأسف فإننا نرى الكثير من القرارات المصيرية تتخذ على هوى صاحب اليد العليا والسلطان ودون دراسة منهجية لما يتوقع وقوعه من نتائج متراكمة. لقد أعجبني تشبيه قرأته للكاتب الصحفي الشهير

محمد حسنين هيكل يشبه به أصحاب الصولجان في بلادنا حين يتخذون القرارات بمن يلعب الطاولة في حين يلعب عدونا الشطرنج، وشتان بين الاثنين فالأول يعتمد على الحظ أما الآخر فيحسب مقدمًا ما يترتب على قراره خطوة بخطوة آخذًا في الاعتبار ردود فعل الآخرين.

وفي رأيي فإن قانون الإسكان الذي أصدرته السلطة العليا بمصر في أوائل الستينات كان مثالًا صارخًا لتلك القرارات المدمرة التي تأتي وليدة لحظتها بدون أية دراسة واعية. لقد جاء القرار بتغير قانون الإسكان بغرض شراء ود الملايين من المستأجرين وإظهار تآلف السلطة معهم تحت شعارات الاشتراكية التي كانت موضة ذلك الزمان.

جاء المشرع في أوائل الستينيات وتقمص شخصية "روبن هود"، ولكنه قد أخطأ في اختياره فقد سرق "روبن هود" من الغني بحجة أنه ظالم وأعطى الفقير لأنه مظلوم. لكن صاحبنا قد أقر سرقة حقوق المالك وأمواله لتوزيعها على السكان وقد فاته أنه لم يكن كل مالك غنيًا وظالمًا ولم يكن كل ساكن فقيرًا ومظلومًا. ففي كثير من الأحوال كان الساكن أكثر ثراء وسعة من المالك. وكذلك قد فات المشرع أن القرار يصطدم بكل القيم التي جاءت بها القوانين السماوية، فلقد حرم الله السرقة ولو كانت من غني وحتى لو كان الغني مستغلًا ظالمًا. لقد منح الله السلطان لولي الأمر ليحكم بمعاقبة الظالم بعد محاكمته محاكمة عادلة وليس لمعاقبة جميع الملاك بالرغم من عدم ارتكاب أغلبهم أي خطأ. خفّض المشرع الإيجارات ثم قام بتجميدها إلى الأبد وسلب المالك حق التصرف في ملكه ضاربًا عرض الحائط بمبدأين أساسيين قام عليهما قطاع الإسكان في مصر لمئات السنين ألا وهما "العرض والطلب" و "العقد شريعة المتعاقدين". لو درس وقدر صاحب القرار ما قد تصير إليه البلاد بعد خمسين عامًا من تطبيقه لهذه القوانين العشوائية لأدرك ما ستسببه من كوارث اقتصادية واجتماعية لكل من فيها من عباد ولتراجع فورًا عن

المضي في تطبيق قراره المدمر.

لقد مر قطاع الإسكان بمراحل متعددة من الأزمات بسبب ذلك القانون فبعد ما كان الناس سعداء بتوفر المساكن عندما كان العرض يزيد عن الطلب جاءت مرحلة تراجع فيها المعروض بالنسبة للمطلوب، حتى بدأت الأزمة تطل برأسها ويفرض الواقع نفسه، فتبرز على السطح ظاهرة خلو الرجل فيستغل الساكن تمكنه من الوحدة السكنية في ابتزاز المالك أو الساكن الجديد والحصول على المال منهما مقابل إخلاء العين المؤجرة. وأسرع المشرع في سن قانون جديد يعاقب به المتعاملين بالخلو رجل ولكنه عن جهل أو عناد لم يعِد النظر في قراره الأول الذي خلق الأزمة من أساسها.

ويتبع ذلك مرحلة جديدة من المحنة بعد انسحاب طبقة الملاك التقليديين من مجال الاستثمار في بناء وتأجير المساكن كردة فعل طبيعة لعدم جدوى الخوض في هذا المجال تحت جور قانون ظالم. ويجدر بالذكر أن كثيرًا من هؤلاء لم يكونوا من الإقطاعيين أو كبار المقاوليين، بل كانوا من الطبقات المتوسطة ممن أتيحت لهم فرصة السفر للعمل في قطاع التدريس في دولة الكويت عند نشأتها الأولى أو ممن توفر لهم المال من ريع التجارة أو الزراعة. ويحل محل الملاك القدامى طبقة من الملاك الجدد الذين لم يكن لهم هدف إلا الربح السريع فلجأوا إلى ابتداع ظاهرة مقدم الإيجار ليلتفوا من حول قانون الخلو رجل ويشترطوا على المستأجر دفع ما يزيد عن إيجار خمس عشرة سنة مقدمًا. وظهر من بين هؤلاء من احترف النصب والاحتيال فأخذ يؤجر الشقة لأكثر من مستأجر في نفس الوقت ثم هرب بالمال وترك المخدوعين من المستأجرين يتباكون ويضربون كفًا على كف. وقد تمادى البعض واستخدم في البناء خامات من الحديد والأسمنت الفاسد وكانت النتيجة هلاك الأرواح وضياع الأموال تحت الأنقاض.

وتزداد الأزمة يومًا بعد يوم وتدخل المشكلة إلى كل بيت ويتسرب اليأس إلى قلب كل فتى وفتاة وتمتلئ المحاكم بقضايا السكن وقضايا الغش والاحتيال وبقضايا الطلاق بل وبقضايا الزواج العرفي والزنا وهتك العِرض أيضًا. ويزداد الطلب ليكون أضعاف المعروض وتبدأ ظاهرة مقدم الإيجار في الاختفاء ليحل محلها ظاهرة التمليك، وتتكون طبقة الملاك الجديدة من أفراد وشركات يحترفون العمل في مجال المقاولات، فترتب على ذلك المغالاة في أسعار بيع الوحدات السكنية، مما سبب زيادة يأس الشباب من الحصول على السكن اللازم للزواج وانعكس ذلك سلبًا على إنتاجيتهم وعلى قدرتهم على التنقل بين الوظائف إذا بعد موقعها الجغرافي عن سكنهم، وكان لكل ذلك تأثير سيئ على انتمائهم وحبهم للوطن. ومع التمليك ظهرت مشاكل جديدة فلأول مرة يسكن المواطن المصري في عمارة لا صاحب لها ويصبح هو المسئول عن أمور الحراسة والنظافة والصيانة. ويبرز التحدي لملاك الشقق حين يتحتم عليهم مواجهة المسئولية بعمل جماعي بالرغم من عدم تعودهم على ذلك، بل وعدم دراستهم لمبادئ العمل الجماعي في أية مرحلة من مراحل التعليم الأولى والجامعي. وتكثر الخلافات وتتراكم القضايا في أروقة المحاكم وتسوء حالة العمارات ومظهرها من الخارج والداخل.

أراد المشرع إصلاح الأمر بعد فوات الأوان فلم يستطع إلا أن يصدر قانونًا جديدًا للإيجار يطبق على الجديد ويتغافل عن القديم من العقارات ليعمق مبدأ الظلم ويتجاهل تطبيق المساواة التي أقرها دستور البلاد بعدما فرضها الخالق الحكيم. لم يستطع القانون الجديد أن يعيد الأمر إلى نصابه فكل من اتبع النظام الجديد كانوا من ملاك الشقق الغير مستغلة فقاموا بتأجيرها بأثمان مرتفعة كي يستطيعوا تعويض بعض ما دفعوه للمقاولين الذين انفردوا بالربح الوفير. لم يستطع القانون أن يعيد ما كانت عليه سوق الإسكان في أوائل الستينيات حين كان المؤجر

هو مالك العمارة الذي يرضى بالربح المعقول ويتحمل المسئولية الكاملة للحراسة والنظافة والصيانة ليحافظ على ملكه الذي يدر عليه دخلًا يغنيه عن سؤال الناس عند الكبر.

وباستعراض سريع لما صارت إليه الحال بعد ما قارب الخمسين عامًا من اتخاذ القرار المدمر، نجد أن الغالبية من الشعب قد تلوّثت أيديهم بما أحلته السلطة الحاكمة من حقوق سلبت من الملاك القدامى الذين تحولوا إلى العسر من بعد يسر. حل غضب الله فواجه الجميع الأزمة، وحين بلغ الأبناء والبنات سن الزواج فشلوا في الحصول على السكن اللائق لهم. سكن الأحياء المقابر مع الأموات. انتشرت العشوائيات في كل مكان وأصبحت مزارع لتفريخ الجريمة والإرهاب. كثرت الشقق الغير مستغلة والتي هجرها سكانها دون أن يعيدوها للمالك كي يؤجرها لمن يستحقها. ظهر المقاولون وسماسرة الأراضي الذين اغتنوا غنى فاحشًا على حساب الملايين من الكادحين وانتشرت السفاهة بين البعض من هؤلاء الأغنياء الجدد فتباروا في إقامة حفلاتهم بفجور وصرف أموالهم على الغانيات والمحظيات.

وإذا غصنا في الأعماق وتلمسنا الأحداث وتعسسنا أخبار الناس خلال السبعين عاما الماضية لوجدنا فيما يلي من خبرهم عجبًا.

الإسكندرية في ٣ مارس ١٩٤١

أرادت دولت بعد إقامتها في شقتها لمدة أربع سنوات إعادة بياض الحوائط ودهان الأبواب، فنصحتها صديقتها نجية بالانتقال إلى سكن جديد بدلًا من قضاء أسبوع من التعب والقلق في متابعة العمال، ثم إنها يمكنها أيضًا انتهاز هذه الفرصة في التخلص من بعض الأشياء القديمة الغير مستخدمة وفي إقناع زوجها بتجديد بعض مفروشات البيت. حاول المالك دون جدوى أن يقنعهم بالبقاء على أن ينجز لهم أعمال الدهان

والتجديد في مدة خمسة أيام فقط. قام الحاج محمد حسن بناء على طلب زوجته بالبحث عن سكن جديد ثم أخبرها بعثوره على شقة جيدة في منطقة سيدي جابر.

حضرت سيارة الشحن في الميعاد المتفق عليه وتم تحميلها بمحتويات الشقة من مفروشات وحقائب وصناديق. عند الوصول إلى الشقة الجديدة فوجئ الحاج محمد باعتراض زوجته على مساحة الصالة وعلى عدم وصول أشعة الشمس إلى كل أنحاء غرف النوم. رفضت دولت إنزال المنقولات من سيارة الشحن وأخذت ابنتها يسرية وذهب معهما الحاج محمد ليبحثوا في الجوار، وبمنتهى السهولة وجدوا شقة أخرى أعجبتهم فقام بكتابة العقد مع المالك. تمت الإجراءات في دقائق معدودة وأنزلت حمولة السيارة في السكن الجديد.

الإسكندرية في ٢١ يوليو سنة ١٩٦٠

قدم طاهر، وكان في التاسعة من عمره، فرحًا على والده حسنين أفندي ليخبره بقدوم أحد الأشخاص مع زوجته لمعاينة إحدى الشقق الخالية في عمارتهم الجديدة. أسرع حسنين مستبشرًا ليستقبل ضيوفه بوجه بشوش، وأخذ يعدد لهم المزايا التي تتمتع بها عمارته. فغرف النوم تملؤها أشعة الشمس على مدار النهار والشرفة بالواجهة البحرية يغنيك الجلوس أمامها عن الذهاب إلى الشاطئ وإذا صعدت إلى الطابق الرابع فبإمكانك رؤية البحر عند منطقة طابية سيدي بشر، بل وقد ترى بعينيك ضوء فنار رأس التين، إذا كان الجو صافيًا بالليل. اتفق الطرفان وتعاقدا على أن يدفع الساكن مبلغ ثمانية جنيهات إيجارًا شهريًا للشقة ذات الثلاث غرف.

الإسكندرية في ١١ نوفمبر سنة ١٩٦٣

جلس حسنين أفندي حزينا مع زوجته يسرية ينعيان حظهما بسبب

صدور قانون بتخفيض إيجارات المساكن وتجميدها وحرمان المالك من حق إنهاء التعاقد مع الساكن. أخذا يستعرضان سنوات التقشف والكفاح التي مرت بهما أثناء بناء عمارتهما وكيف كانوا يوفرون من قوت يومهم ويحرمون أولادهم الصغار من وسائل الترفيه من أجل إنجاز مشروعهم العظيم. تذكرا كيف كان طاهر، وهو لم يجاوز السابعة، من عمره يساعد والده في الإشراف على عمال السباكة بدلًا من اللعب وبناء بيوت من الرمال على شاطئ سيدي بشر. لم يكمل حسنين أفندي شربه لفنجان القهوة وانصرف وهو يكرر بصوت هادئ قول "حسبي الله ونعم الوكيل".

المعادى في ٥ ديسمبر سنة ١٩٧٥

تم تسجيل أحد عشر محضرًا بقسم المعادي ضد السيد/ شحاتة النمر كل منهم بتهمة الاستيلاء على مبلغ من المال مقابل إيجار مقدم لمدة عشر سنوات بعمارة لم يتم بناؤها بعد بمنطقة زهراء المعادي. بالرغم من أنه كان من المفترض أن تتكون العمارة من خمسة طوابق يحتوي كل منها على شقتين فإن الرجل لم يكفه النصب والاحتيال على الراغبين في سكنى العشر شقق فحسب بل أجّر إحدى الشقق لشخصين في آن واحد. اختفى شحاتة ولم تستدل الشرطة على عنوانه. أكد الضابط المناوب بقسم المعادي أنها لم تكن أول حادثة بل كان هناك ما لا يقل عن سبع حوادث احتيال مماثلة. لم تقف حدود الخسارة على المال فقط بل كانت الخسارة الحقيقية في التدمير النفسي والاجتماعي لإحدى عشرة أسرة في دور التكوين أو حديثة العهد به قد دفعت مدخراتها لصاحب البيت وأضاعت أكثر من سنة من عمرها في انتظار السراب حتى تأكد لها هروب المالك بأموالها.

شقة ١: بعد ضياع الشقة لم يكن أمام المستأجر محمود إلا أن

يصرف النظر عن العودة إلى مصر للزواج من فتاة أحلامه سهام التي تعمل بوظيفة معيدة بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، وأن يستمر في عمله بالكويت. جاء بعد عامين في إجازة صيفية وقام بخطبة ابنة خالته التي سافرت إليه بعد ستة أشهر وعاشا معًا حياة مستقرة ولكنها تفتقر إلى مشاعر الحب الفياضة كتلك التي كانت بينه وبين سهام. أما سهام فلم يتقدم للزواج منها أي شخص آخر وقررت أن تركز اهتماماتها على الدراسة للحصول على شهادة الدكتوراه.

شقة ٢: استبدل الأستاذ حمدي الرشيدي جزءًا من معاشه وأضاف المبلغ إلى ما وفره في سنوات حياته وقدمه لشحاتة النمر مقدمًا لإيجار شقة جديدة لينتقل إليها هو وزوجته سناء ويترك شقته الحالية لابنه كمال الذي تزوج منذ أربع سنوات وأقام معهما. بدأت المشاحنات اليومية تشتد بين سناء وزوجة ابنها نورا منذ أن أنجبت ابنتها التي قاربت على الثلاث سنوات بسبب ثورة نورا على تدخل حماتها في العلاقة بينها وبين طفلتها الصغيرة التي تحاول تربيتها حسب الوسائل الصحية والتربوية الحديثة في حين تتهم سناء نورا بالافتقار للخبرة في تربية ابنتها. وجد كمال نفسه وسط هذا الخلاف وهو لا يريد أن تنتهي الأزمة بطلاقه من زوجة أحبها أو بإغضابه لأم قضت عمرها في خدمته، ولم تشغل بالها إلا بتوفير السعادة له. دخل حمدي في حالة من الاكتئاب بعد ما سرق ماله وتبدد أمله في إنهاء مشاكله العائلية بالحصول على سكن جديد.

شقة ٣: كان محسن الغنام أكثر حظًا من الآخرين فقد استطاع والده أن يدبر له مبلغًا من المال للحصول على شقة أخرى ولكنها كانت في ضاحية حلوان. تم زواجه من حبيبته ولكنهما كانا دائمًا يتشاجران بسبب ما كان يعانيه كل منهما من المهانة والتعب وسط الزحام الذي لا يطاق في عربات مترو حلوان.

شقة ٤: وقع الخبر على عبد الرحمن كالصاعقة فقد دبَّر مبلغ مقدم الإيجار بعد كفاح عدة سنوات ولم يتبق إلا شهران كي يتم زواجه من كوثر بعد خطبة طالت ثلاث سنوات. استدعته والدة كوثر وأخبرته بأنها لا تقبل أي تأجيل لموعد الزفاف فإما أن يتدبر سكنًا آخر وإما أن ينهي ارتباطه بابنتها.

عاد إلى بيته وهو لا يرى أمامه إلا اليأس جاء إليه ابن خالته الذي لم يكن معتادًا على رؤيته منذ أن أطلق لحيته وأصبح زاهدًا عن الاختلاط بالأقارب كما اعتادوا من قبل في المواسم والأعياد. جاء يواسيه ثم عرض عليه أن ينسى الأمر برمته ووعده بأن يزوجه من فتاة من الأخوات التقيات، والتي لن تشترط عليه توفير سكن خاص بل ستقبل الإقامة مع والدته وأخته.

أطلق عبد الرحمن لحيته وتزوج من عروسه المنقبة التي لم يرَ وجهها إلا لبضع ثوان غند الخطبة ولم يرَ من جسمها إلا القليل بعد الزواج فلم يكن لهما أن يتماسا إلا في الظلام كي لا تستحي منها الملائكة وتخرج من بيتهم. عاشت كالغريبة بين أهله حتى إنها لم تكشف وجهها أمام أخته التي درست الفقه لمدة أربع سنوات ثم أخذت تدرِّسه للفتيات بالمدارس الثانوية. كانت تشكك في إيمان أخته؛ لأنها لا ترتدي النقاب بالرغم من التزامها التام بالحجاب الشرعي وإقامة الصلاة في أوقاتها. وقد كانت تنصح أخاها عبد الرحمن من قبل بالالتزام بالصلاة ولكنه كان لا يستجيب لها إلا في القليل من الأحيان. مرضت أثناء حملها ورفضت الذهاب إلا لطبيبة مبتدئة من الأخوات، فأشتد عليها المرض وماتت وزاد التشوش والغموض الذي يعيشه عبدالرحمن. وفي عام ١٩٧٧ نشر اسمه في الجرائد بين أسماء المتهمين في جماعة التكفير والهجرة وقضى بقية شبابه وراء القضبان.

شقة ٥: اضطر بهاء الدسوقي تحت ضغط أهل زوجته زيزي التي لم يكن قد دخل عليها بعد إلى الموافقة على تطليقها. أصيب بصدمة نفسية أخذ يعاني منها لعدة أشهر. كان بهاء يعمل مأمورًا بمصلحة الجمارك بمخازن مطار القاهرة، وقد أمضى في عمله قرابة الثلاث سنوات رفض خلالها أن يمد يده لأية رشوة، وكان دائمًا ما يبتعد عن مواطن الشبهات ولكنه عندما أفاق من صدمته تحول إلى شخصية جديدة يحكمها مزيج من الحقد والطمع، وأخذ يمارس كل أنواع التحايل ليمرر شحنات من الطعام المستورد الغير مستوف للشروط القانونية، وخلال سنتين كان لديه من المال ما يكفي لدفع مقدم شقة فاخرة على كورنيش النيل بمنطقة دار السلام.

شقة ٦: كان حسن وأماني مقيمين في إمارة الشارقة، ولما علما بخبر اختفاء شقتهما من الوجود قررا أن يتمتعا بحياتهما كما هي وألا يفكرا كثيرًا في العودة إلى أرض الكنانة. كبر أولادهما الثلاثة وذهبوا إلى المدرسة. هتفوا لعلم الإمارات ولم يهتفوا لمصر، درسوا تاريخ منطقة الخليج بل وتاريخ إنجلترا واسكتلندا وويلز ولكنهم لم يلموا إلا بالقليل عن تاريخ الفراعنة. لم يسمعوا عن عرابي ولا عن سعد باشا ومصطفى كامل وعبد الناصر. لم يقرءوا تاريخ محمد على ولا شعر شوقي وحافظ. وكيف لهم ذلك مع عدم وجود مدرسة خاصة للجالية المصرية كما هو متوافر للجاليات البريطانية والأمريكية والهندية بل واللبنانية أيضًا. لم يرغب في العودة إلى القاهرة ولم يكن له سبيل في الحصول على جنسية الإمارات فتقدم حسن للهجرة إلى كندا. أرسل أسرته إلى منتريال واستقر بهم المقام وتخرج الفتية بتفوق من أرقى الجامعات وحصلوا على وظائف مرموقة في مجالات العلم الحديث. زاد تعداد كندا ثلاثة علماء متميزين فقدتهم مصر ولم تحتفظ بهم الإمارات.

شقة ٦: كان فؤاد مشرقي هو الساكن المكرر الذي تم خداعه بتأجيره

نفس الشقة التي أجرت لحسن صالح من قبل. لجأ فؤاد إلى الأستاذ وديع شكري والد خطيبته نيڤين الذي استغل علاقاته، واستطاع أن يوفر لهم شقة بمنطقة مصر العتيقة عن طريق إحدى الجمعيات الخيرية التي كان عضوًا بها. كان طموح فؤاد أبعد بكثير من السكنى في مثل تلك المنطقة الشعبية فسعى للهجرة إلى الولايات المتحدة، حيث استطاع الوصول إلى مركز مرموق في أحد مراكز الدراسات السياسية ولم يمضِ عليه إلا بضع سنين حتى بدأ ينشر المقالات المعادية لنظام الحكم في مصر بل وتعدى ذلك إلى إظهار العداء للدولة بصفة عامة والمطالبة بتقسيمها بين الطوائف الدينية المختلفة.

شقة ٧: استطاع سامح أن يدفع ضعف ما دفعه في شقته المفقودة كمقدم لإيجار شقة أخرى بنفس المنطقة، وبذلك لم يتبق له شيئًا مما ورثه عن أبيه الحاج حسنين. قبل هو وخطيبته هبة التحدي وقررا إكمال المشوار حتى النهاية بقدراتهما المحدودة وتزوجا بدون حفل زفاف وقبل أن يستطيعا شراء أية أجهزة كهربائية.

شقة ٨: لم يستطع هاني أن يحافظ على علاقته مع بنت خالته سحر التي تخلت عنه وتزوجت من صاحب محل تنظيف الملابس المواجه لبيتهم، بينما اضطر هاني إلى الاستمرار في وظيفته المتواضعة بالسعودية؛ حيث يقيم مع خمسة من الزملاء في شقة مكونة من غرفتين. لم تمكنه مدخراته المحدودة من الحصول على شقة بديلة إلا بعد مرور ثلاث سنوات.

شقة ٩: استغل يوسف عبد الملك وظيفته كمهندس تركيبات بهيئة المياه بمنطقة إسطبل عنتر ففرض إتاوة على كل من يرغب في توصيل المياه إلى منزله، واستطاع أن يتمم زواجه من زميلة الدراسة إيزيس، وسرعان ما استطاع أن يملأ منزله بكافة أنواع الكماليات وأن يشتري سيارة جديدة إيطالية الصنع.

شقة ١٠: كان فتحي أبو الحسن محتالًا كبيرًا، وبدلًا من أن ينعي حظه بسبب فقدانه للمبلغ الذي دفعه للمالك فقد قرر أن يستفيد من الدرس الذي تعلمه وأن يتحول بنشاطاته المريبة إلى مجال بناء وتأجير المساكن وخلال سنوات قليلة قام ببناء ست عمارات بخامات غير مطابقة للمواصفات واسترد ثمنها بالكامل مع نسبة ربح ضخمة، ثم خرج من البلاد بجواز سفر مزور وأقام لعدة سنوات بلبنان ثم استقر به المقام في قبرص.

الإسكندرية في ٢٩ يونيو سنة ٢٠٠٦

وقفت بين الركام تصرخ وتولول. لا تدري ما يمكنها أن تفعل. ترفع بعض الحجارة وتزيحها بعيدًا. تريد أن تسرع من العمل الذي يقوم به العشرات من رجال الإنقاذ. مرت تسع ساعات ومازالت ابنتها تحت الأنقاض. يجب أن تكون حية. لا لا لم تمت. ربما تتألم من الجوع. لقد انهارت الأعمدة ووقعت الأسقف قبل أن تتناول إفطارها. ذهبت لتوصل ابنها إلى ناصية الشارع المجاور كي يستقل أتوبيس المدرسة. لم تمض إلا خمس عشرة دقيقة عادت بعدها لتجد العمارة بطوابقها الثمانية وقد أصبحت كومة من تراب. بنيت العمارة في أوائل السبعينات ولم يتجاوز عمرها الخمسة والثلاثين عامًا. صرخت بكل ما تستطيع حتى انحبس صوتها.

على جانب آخر من الأطلال جلست سامية تبكي على حالها بعد ما أخرجت جثة أخيها عمرو من تحت الركام. كانت الابتسامة لا تفارق وجهه. كان سخيًا وبارًا بها وبوالدته. لم تشعر يومًا بحاجة إلا قضاها لم يكن أخ فقط بل كان صديقًا وكذلك أصبح لها أبًا بعد وفاة والدها. كان عمرو يحسها مداعبًا على استبدال صديقاتها بمن هن أكثر جمالًا؛ لأنه لم ينجذب لأي منهن ولم يكن يريد إلا أن يتزوج من صديقة لها كي لا تكون

علاقتها بزوجته فاترة مثل علاقة أمه بزوجة خاله. أين ستعيش هي وأمها وقد أصبحتا بلا مأوى. لا يمكن البقاء في بيت خالها إلا لفترة قصيرة. أصابها الإغماء فنقلها الجيران وأجلسوها أمام محل بقالة قريب.

وقفت سيارة سوداء على بعد عدة أمتار. نزل من جانب السائق رجل مفتول العضلات وفتح الباب الخلفي الأيمن فنزل منه رجل يبدو أنه ذو مركز مرموق. أسرع بعض رجال الدفاع المدني لاستقباله فأخذ يصدر إليهم التوجيهات. يبدو أنه مدير أمن المحافظة. سيارة إسعاف تقف على الناصية الأخرى من الشارع. قد تم إنقاذ عشرة أشخاص من تحت الركام منذ الصباح. الأمل كبير ولكن عامل الوقت ليس في صالح المفقودين.

في الدور الخامس بعمارة الحاج حسنين الصباغ على بعد ثلاثة شوارع من مكان الحادث جلست الحاجة يسرية تشرب كوبًا من الشاي وهي تخيط فتقًا في إحدى الستائر. دق جرس الباب. كانت عايدة بنت المرحومة نفيسة الساكنة في شقة ٤. سلمت عليها ودعتها للجلوس فشكرتها وقدمت إليها خمسة وسبعين جنيهًا إيجار الشقة لمدة عام. الشقة لا يقيم بها أحد مثل الكثير من شقق الإسكندرية التي مات أصحابها الذين اعتادوا قضاء جزء من الصيف بها. ورثها أولادهم ولكن أغلبهم زاهدين عنها. يقضون أيام المصيف مع عائلاتهم في مارينا وغيرها من قرى الساحل الشمالي. يحتفظون بالشقق بلا هدف. لماذا يتركونها وإيجارها في سنة كاملة لا يتجاوز ثمن أربعة فناجين من الكابتشينو مما تتناوله الست عايدة مع صديقاتها في مقاهي الكوربا بمصر الجديدة.

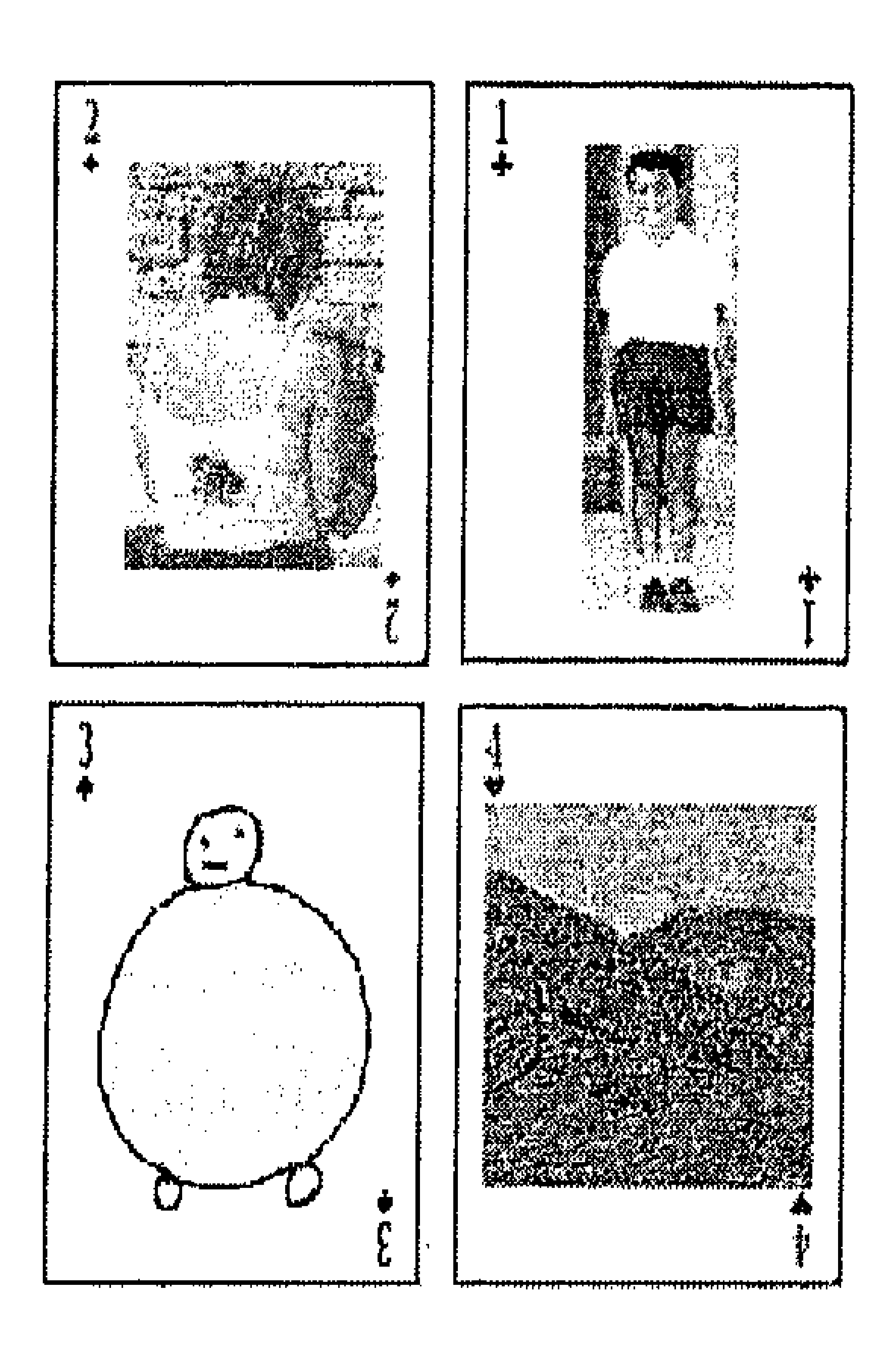
أخذت منها الإيجار وأعطتها إيصالات سنة كاملة. سألتها "هل فكرت يا بنتي في الموضوع اللي كلمك عليه ابني سامح الشهر اللي فات". فأجابت بأنها قد تشاورت مع إخوتها لكنهم لا يوافقون على ترك الشقة إلا في مقابل مبلغ قدره مائة ألف جنيه. فأجابت يسرية بأن ابنها لا يستطيع

أن يدفع إلا ثمانين ألفًا فقط، وأضافت بأن الإيجار الذي دفعته والدتها منذ أن سكنت الشقة وعلى مدى أربعين عامًا لم يبلغ ثلاثة آلاف وثلاثمائة جنيه. الشقة مغلقة وسامح لا يستطيع شراء شقة لابنه الطبيب حديث التخرج الذي خطب زميلته منذ سنتين ولا يدري كيف سيستطيع إتمام الزواج. اعتذرت عايدة وانصرفت. أغلقت الحاجة يسرية الباب وهي تقول بصوت لا يكاد يسمع "شكرًا يا بنتي .. ربنا يجازي اللي كان السبب". جلست تتذكر عشر سنوات من شبابها عاشتها مع الحاج حسنين رحمة الله عليه في تقشف وتدبر حتى استطاعا تكملة التشطيبات الأخيرة في العمارة. فرحا عندما تم تأجير شققها الثمانية. كانا يظنان أن ذلك هو نهاية سنوات التقشف وأنهما سيعيشان حياة رغدة ويغدقان بالخير على أولادهما الثلاثة. لم تمر إلا ثلاث سنوات وتبدل الحال وتبخرت الأحلام.

أمسكت بالجريدة وأخذت تتصفح صفحاتها. خبر عن فتاة اسمها زينب سقطت من الطابق الرابع بإحدى عمارات شبرا. هناك شبهة القتل والتحقيق مازال جاريًا. هل انتحرت الفتاة أم قتلها أخوها بعد ما اكتشف أنها متزوجة زواجًا عرفيًا. ذكر الزوج للمحقق أنهما تزوجا عرفيًا لعدم استطاعته توفير شقة على مستوى مناسب يمكنه من التقدم رسميًا للزواج من القتيلة أو حتى من أية فتاة أخرى. أخذت الحاجة يسرية رشفة من كوب الشاي وتحسرت على ما مضى من زمان العفة والفضيلة ودعت الله أن لا يحرمها هي وذريتها من الستر وقالت "ربنا يجازي اللي كان السبب".

* * *

حكم تعلمتها



لا تحكم بغير علم

لم يتبق إلا بضع دقائق للوصول إلى محطة سيدي جابر حين أخذ القطار يقلل من سرعته حتى توقف تمامًا. تطلعت إلى خارج النافذة لأتبين مكان توقفنا فلفت نظري وجودنا أمام مصانع النحاس. مررت أمامها كثيرًا من قبل ولكن لم تكن سرعة القطار تسمح لي إلا برؤية مخازن مفتوحة مشون بها الكثير من الخردة بطريقة غير منظمة ومن خلفها تظهر مباني الشركة. استطعت في هذه المرة أن أتفحص تلك المباني بعيني وأقرأ ما كتب على اللافتات المعلقة عليها. وهنا تذكرت على الفور أخي، الذي يكبرني بأربع سنوات ونصف، عندما جلس منذ بضعة أشهر يقص على أولادي متندرًا قصة عناد أبيهم عندما كان طفلًا في الصف الأول الابتدائي بمدرسة الإقبال القومية وكان هو في الصف الخامس بنفس المدرسة.

في ذلك اليوم أرسلت مدرستي في ندائه بسبب ركلي لأحد زملائي عدة مرات بالحذاء حتى أدميت ركبتيه. أرادت المدرسة إنهاء الموقف بدفعي للشعور بالذنب والتأسف لزميلي ولكني رفضت ذلك رفضًا باتًا. حضر أخي وحاول إقناعي ولكني لم أتزحزح عن موقفي وأخبرته بأني ضربت ذلك الغلام لأنه غبي ولا يستحق غير ذلك. كنت قد سألته عن مكان سكنه فأخبرني أنه يسكن في شركة النحاس فتعجبت وسألته عن مكان عمل والده فأجاب بأنه يعمل بشركة النحاس وأخذت أكرر عليه الأسئلة وكانت إجابته على جميع أسئلتي لا تتغير فاستأت لذلك وركلته بقوة.

لم يستطع أحد إقناعي وأنا طفل في السادسة بالاعتذار لزميلي فاضطر أخي إلى الاعتذار نيابة عني، ولكنه لم ينس لي تلك الحادثة

حتى الآن. لا أستطيع أن ألوم نفسي على ما فعلته فقد كنت غلامًا صغيرًا لا يدرك الحق من الباطل ولكن ما ألومه على نفسي أني قد سمعت هذه الرواية على لسان أخي مرات عديدة خلال ما يقرب من خمسين عامًا، وكنت دائمًا أعلق على ذلك ضاحكًا بأن ذلك كان جزاءه وجزاء أمثاله من الأغبياء.

ولكن اليوم عندما توقف القطار في هذا المكان بذاته، وكأن الله أراد أن يلقني درسًا بعد مرور كل ذلك الزمن، فقد أدركت مدى حمقي حين نصبت نفسي حكمًا على ذكاء الغلام ثم وظفت نفسي جلادًا عليه وآذيته بسبب ما اتهمته به من غباء. فاليوم قد رأيت إحدى اليافطات الموجودة داخل أسوار الشركة وقد كتب عليها "مساكن العاملين بشركة النحاس". لقد أدركت خطئي الفادح فمن المحتمل أن الغلام كان على حق وكل ما اقترفه من ذنب كان عدم قدرته على شرح أن سكنه يقع داخل حدود وممتلكات الشركة التي يعمل بها أبوه. وكيف يتسنى لطفل في حوالي السادسة أن يعي كل هذا.

كم منا من يرتكب الكثير من الأخطاء بناء على تقدير غير دقيق للأمور أو نتيجة فهم خاطئ للآخرين. إن الحمق كل الحمق أن يصمم الإنسان على رأيه دون احترام وجهة نظر الآخرين مهما ظهرت له الدلائل وسيقت له الحجج لتثبت وجود ما هو أرجح منه.

الذباب يقف على الأشياء الحلوة والأشياء القذرة

حرصت في شبابي على أن أكون مميزًا بالحصول على المعرفة التي قد لا يملكها الآخرون. فعندما انتهيت من الدراسة الإعدادية بكلية الهندسة وقبل بدء تخصصي في دراسة الهندسة الكهربائية التحقت بورش ترام الرمل وأمضيت بها قرابة الستة أسابيع في تدريب صيفي. وكررت ذلك في العام التالي ولكني التحقت بإدارة الحاسب الآلي بهيئة التأمينات

الاجتماعية بمقرها الرئيسي بالعتبة. وكنت أكثر حظًا في السنة التالية فحصلت، بمساعدة خالي، على فرصة للتدريب على تكنولوجيا أشباه الموصلات في أحد مصانع هولندا المتخصصة في صناعة المعدات الطبية الإلكترونية. ساعدني ذلك كثيرًا في توسيع معرفتي عن مجالات التخصص المختلفة المتاحة داخل قسم الكهرباء مما جعلني أقرر فيما بعد التخصص في مجال هندسة الحاسب الآلي. وبالإضافة للخبرة العملية التي اكتسبتها في تدريبي فقد أتيح لي التعرف على أجواء العمل وكيفية التعامل بين العاملين بعضهم البعض، وكذلك التعامل بينهم وبين رؤسائهم.

مرت الأعوام وكدت أنسى كل التفاصيل عما تعلمت وعمن قابلت أثناء أيام تدريبي بتلك الأماكن ولكن ما لم أنسه هو ما حدث في أحد أيام تدربي بهيئة التأمينات الاجتماعية. كان تواجدي أغلب الوقت داخل غرفة الكمبيوتر الضخمة المكيفة أو داخل غرفة إعداد البيانات وقد كان ذلك في عام ألف وتسعمائة وواحد وسبعين أي في عهد جيل الحاسبات من طراز "مين فريم" الضخمة. كان مدير الإدارة على علاقة طيبة بأخي الأكبر الذي كان يشغل منصب المدير لإحدى إدارات الهيئة الأخرى، ولذلك فلقد كان مهتمًا بي وكان كريمًا معي إلى أبعد الحدود، وقد طلب مني أن أجلس في حجرته كلما لم أجد شيئًا يشغلني أو كي أرتاح قليلًا بعيدًا عن الجو البارد داخل الغرفات المخصصة للأجهزة. وهكذا تعودت أن أجلس في حجرته في آخر اليوم؛ حيث كان يسألني عما فعلته في تدريبي أثناء النهار.

فوجئت في أحد الأيام بفتاة حسناء، وكانت ترتدي بعض الملابس التي تظهر ما لديها من مفاتن، وهي تدخل إلى غرفة الحاسب برفقة أحد الموظفين الذي قام بشرح بعض الأمور لها عن نظام العمل بالإدارة، ثم عادت مرة أخرى بعد ما يقرب من الساعة فيجيء شخص آخر ليوضح

لها بعض الأمور الفنية الخاصة بإدخال البيانات. فهمت مما يجري من حولي أن الفتاة قد تم تعيينها بالهيئة، وأنها ألحقت بهذه الإدارة. لم أحاول التعرف عليها كي لا يكون منظري سخيفًا في نظر الآخرين كما كان منظر الرجلين في عيني، وكذلك لأن الثقل والاتزان في التعامل مع الجنس الآخر كان ميزة في ذلك الزمان الذى غنت فيه سعاد حسني التي ذاع صيتها وعرفت باسم سندريلا السينما المصرية أغنيتها الشهيرة "يا واد يا تقيل يا مجنني" ولم تكن الروشنة ميزة مثلما هي الآن، بل كان لفظ "مرووش" يطلق على من كان عقله في حالة من التشتت وعدم الاتزان. لم أعِرها اهتمامًا ظاهرًا وحدثت نفسي بأن الأيام القادمة كثيرة ومن المأكد أنها ستتيح لي فرصة التعارف عليها.

دعا مدير الإدارة موظفًا وموظفة من أقدم موظفي الإدارة وأكثرهم خبرة للاجتماع في غرفته في نهاية اليوم. كنت قد تعرفت على كليهما من قبل وتحدثت إليهما أكثر من مرة فيما يخص برنامج تدريبي. كان الرجل يعمل كمحلل للنظم وكان ذكيًا وجادًا جدًا في عمله. كانت لهجته ومظهره يخبران بكل وضوح أنه قد نشأ وترعرع في إحدى محافظات الصعيد.

كان من نصيبي حضور الاجتماع بسبب تواجدي بغرفة المدير، وقد رحَّب بوجودي الجميع. بدأ الاجتماع بالتحدث في بعض الأمور المختلفة الخاصة بتصريف شئون العمل، ثم جاء السؤال من المدير إلى الحاضرين عن رأيهم في تلك الفتاة التي أرسلت إليه بتوصية من أحد أقربائها العاملين بالهيئة للعمل معهم في مجال إعداد البيانات. وجاء الرد واضحًا حاسمًا من صاحبنا الصعيدي فقد قال "الذباب يقف على الأشياء الحلوة والأشياء القذرة"، ثم استطرد موضحًا "إنها حتى لو كانت ذات خلق سليم فسينطبق عليها المثل الأول، وقد رأى الجميع بأنفسهم الذباب من حولها صباح اليوم وسوف يعطل ذلك العمل، ولذلك فنحن في غنى عنها".

وحسم الأمر واتخذ الثلاثة القرار بناء على الحكمة الذبابية.

حفرت تلك الكلمات في ذاكرتي وقد وجدت فيها حكمة لا بأس بها قد يختلف البعض حول صحتها وخطئها، وقد ينبري البعض متشدقًا مدافعًا عن حقوق المرأة ولكني أستطيع أن ألخص رأيي في أنه لا يمكننا الاحتفاظ بالشيء القذر بيننا وأما الشيء الحلو فعلينا ستر حلاوته ثم علينا بعد ذلك مقاومة الذباب وطرده من المكان. وفي عرفي فإن ذلك يتأتى بأن تلتزم المرأة العاملة بالحشمة في مظهرها وبالحياء والأدب في التعامل مع الآخرين مع الحسم والحزم مع كل من يتطاول أو يتحرش بأي من زميلات العمل.

الغاية تناسب الوسيلة

كان أغلب طلبة السنة النهائية بقسم الحاسب الآلي من المتفوقين دراسيًا، وبالرغم من ذلك فقد استطعت التفوق على أغلبهم في تصميم الدوائر المنطقية وفي علم البرمجة. عندما قربت السنة الدراسية على الانتهاء تم تقسيم الطلبة إلى مجموعات وأسند إلى كل مجموعة مشروعًا تقوم بتنفيذه ومناقشته كشرط للحصول على شهادة التخرج. وقد كلفت مجموعتنا بتنفيذ مشروع يقوم بتحويل البرامج المكتوبة بلغة من الجيل الثالث إلى لغة من الجيل الثاني.

كان المشرف علينا هو مدرس بالقسم اشتهر بحبه للعلم وتفوقه فيه ولكنه إلى جانب ذلك قد عرف بغرابة الأطوار. كان شعر رأسه غزيرًا مرسلًا على كتفيه وكانت له لحية سوداء طويلة. كان لا يهتم كثيرًا بمظهر ملابسه وهندامه بل كان يقضي معظم وقته بين البحث والعمل والقراءة في الجامعة. كنا قد تعودنا أن نجده في مكتبه أو داخل صالة الحاسب الآلي أينما ذهبنا إلى الكلية ومهما كان الوقت مبكرًا في الصباح أو متأخرًا من الليل. كان كثير الحركة قليل الكلام.

قمت بدراسة المشروع الموكل إلينا ثم تقدمت باقتراح تصميم له على زملائي وكذلك تقدم زميل آخر من أعضاء المجموعة، وكان صديق لي، بتصميم بديل. أخذ كل منا في عرض مميزات تصميمه على المجموعة ثم تم الاقتراع فوقع اختيار الأغلبية على التصميم الذي تقدمت به. عرضنا التصميمين وقرار المجموعة على مشرفنا فلم يعلق تعليقًا واضحًا ولكنه لم يعترض ففهمنا أنه موافق عليه.

بدأنا بالعمل معا لإنجاز المشروع وكان صديقي صاحب التصميم الآخر من أكثر الزملاء اجتهادًا معي في وضع الخطوط واللمسات الدقيقة للتصميم وإعداد المستندات المطلوبة قبل البدء في كتابة البرامج. عمل الجميع معًا بروح عظيمة. كان حماسنا شديدًا ورغبتنا في إظهار تفوقنا عالية فأخذنا كل الاعتبارات في تصميمنا ووضعنا خططًا دقيقة للكشف عن أية أخطاء قبل تحويل اللغة الأصلية إلى اللغة المطلوبة.

كان الحصول على وقت لتنفيذ البرامج واختبارها أمرًا صعبًا بسبب الإمكانيات المحدودة جدًا للحاسب الخاص بالقسم في ذلك الوقت والذي كان، بالإضافة للاستخدامات الدراسية للقسم، مستخدمًا للأعمال الخاصة بمركز الحساب العلمي للجامعة. لذلك فقد اضطررنا في بعض الأحيان لقضاء الليل بأكمله داخل صالة الحاسب كي نستطيع إنجاز العمل المطلوب في الفترة الزمنية المقدرة للمشروع. جاءت الساعات الحاسمة واستطعنا الانتهاء من كتابة برامجنا ولكننا صدمنا بحقيقة كنا قد غفلنا عنها، وهي أن إمكانيات الحاسب الضعيفة لا تسمح بتنفيذ برامجنا بحجمها الكبير. بالرغم من ضخامة حجمه والمساحة الكبيرة للصالة المعدة له، والتي كانت تحتوي على أرضية خاصة لتلافي تأثير الشحنات الإستاتيكية بالرغم من ذلك كله فقد كانت إمكانياته لا تصل إلى خمسة في المائة من إمكانيات حاسب من الحاسبات الشخصية المنتشرة في أيامنا هذه. كانت مشكلتنا كبيرة فذاكرة الحاسب لا تكفي إلا لتخزين جزء من برامجنا.

لم يكن الوقت المتبقي على تقديم المشروع كافيا لإعادة تصميمه بشكل مبسط، ولم يكن في الوقت متسعًا لإعادة كتابة مستندات المشروع بواسطة الآلة الكاتبة ثم طباعتها بواسطة المطابع التقليدية المنتشرة في وقت لم تكن الوسائل الحديثة قد استخدمت في هذا المجال بعد.

عرضنا المشكلة على مشرفنا الذي كان يحرص على متابعتنا من بعيد دون تدخل مباشر في شئوننا، فاستمع إلينا ثم هز رأسه ولم يقدم إلينا حلًا فعدنا إلى الغرفة التي كنا نعمل بها، وجلست في أحد الأركان أفكر وإذا بأستاذنا يمر على ثم يلتقط قلمًا ويرسم به على قطعة من الورق رسمًا يشبه ما يسمي برجل الثلج، وهو عبارة عن جسم منفوخ كالبالونة وله رأس صغير ثم نظر إلى، وقال هذا هو مشروعكم مثل "بقبق" ثم رسم قدمين دقيقتين وأستطرد قائلًا ولكن قدميه صغيرتان فكيف تتوقع له أن يسير. في الحقيقة كان "بقبق" هو الاسم الحركي الذي أطلقناه على زميل لنا يتميز بالسمنة وخفة الدم. فاجأني بتعليقه فهممت أن أشرح له الأمر، ولكنه كان قد تركني وذهب قبل أن تخرج الكلمة من فمي.

استطعت أن أجلس مع مشرفنا في اليوم التالي لما يقرب من نصف الساعة وتناقشنا في كافة الخيارات وأنتهى الأمر على الاتفاق على الاكتفاء بتقديم التصاميم الدقيقة والمستندات المفصلة عند مناقشة المشروع والتغاضي عن عدم إمكانية تشغيله. وقد تمت بالفعل المناقشة أمام رئيس القسم وأستاذين آخرين وقد حصلت، وكذلك زميلي الآخر، على درجة الامتياز. كان فرحي كبيرًا بنجاحي ولكن الحقيقة أن ما تعلمته في ذلك المشروع كان أعظم بكثير من مجرد الحصول على درجة الامتياز. فبالرغم من قلة الكلمات التي وجهها إلينا مشرفنا العزيز إلا أنه قد استطاع برسم بسيط أن يعلمني درسًا عظيمًا مازلت أحفظه بل وأعلمه لمن عملوا معي خلال ما يقرب من الخمسة والثلاثين عامًا. لقد تعلمت أن أكون أكثر واقعية في تقدير الغاية بما يتناسب مع الوسيلة التي أملكها

في يدي وهذا يطابق تماما المثل القائل "على مقاس لحافك مد رجليك" والذي كانت تذكره أمي في مناسبات عديدة.

طنش وابتسم وانظر للجبل

التحقت بالدفعة السادسة والثلاثين بكلية ضباط الاحتياط بإسنا، ومما لا شك فيه أن القائمين على التعليم كانوا على أعلى درجات الاحتراف والإجادة لعملهم. لم تكن مهمتهم بالسهلة كما هو الحال عند استقبال دفعة جديدة بالكلية الحربية؛ حيث يكون الطلبة في سن صغيرة ولا يحتاج تشكيلهم إلى جهد جهيد. أما في حالتنا فقد أكمل الطلاب دراساتهم الجامعية وتعودوا على الحياة في مساحات من الحرية أوسع بكثير من تلك التي عاشوا فيها أثناء المرحلة الثانوية، ثم إن بعضهم قد التحق بالعمل بعد التخرج؛ حيث أصبحت لهم صلاحيات مختلفة وقد كان لبعضهم أن يأمر فيطاع. وكذلك كان البعض قد تزوج وأصبح ربا لأسرة وله مكانته بين أهله وأصحابه وجيرانه. كانت مهمة الإدارة والمدربين بكلية ضباط الاحتياط هي إعادة تشكيل هؤلاء جميعًا ليصلوا إلى الالتزام بأعلى درجات الضبط والربط والطاعة في زمن لا يزيد عن خمسة أشهر. لم يكن بوسعهم النجاح إلا بما توفر لديهم من حب شديد لعملهم وتفان في خدمة الوطن.

لم أتعود على ذكر الأسماء الحقيقية للأشخاص في كتابي هذا ولكني أرجو من القارئ أن يسمح لي في هذا المقام بأن أضع الأسماء الحقيقية لأناس قد عرفتهم وكدت في البداية أن أكره اليوم الذي عرفتهم فيه، ولكني في نهاية الخمسة أشهر أدركت كم كانوا عظماء، وكم ساهموا في خدمة الأمة خاصة من ساهم منهم في تعليم الدفعات التي سبقتنا، والتي شكلت القوام الرئيسي للقوات التي حققت الإنجازات العظيمة أثناء حرب الاستنزاف وفي حرب أكتوبر ٧٣.

اسمحوا لي بأن أحيي اللواء أحمد حلمي القائد الأعلى للكلية والعميد محمد سامي القطوري قائد لواء الطلبة والرائد محمد حسين أركان حرب الكلية. ولا أنسى في شكري هذا الباشويش طبلاوي والشاويش محمد عبد الفتاح، بالإضافة إلى الكثيرين الذين لم أعد أتذكر أسماءهم بعد مرور عشرات السنين.

لم تكن المهمة صعبة فقط علينا بل كانت أكثر صعوبة على القائمين بالتدريب، وهذا يذكرني ببيتين من أغنية توارثها الحدادون أبًا عن جد واعتادوا على ترديدها أثناء إحماء الحديد في نار الكور ونص البيتين:

"قلت له مالك يا سكين قال لي الحداد بيطرق في

قلت له مالك يا حداد قال لي الدخان عامي عيني"

وهنا نرى كيف أن كلًا من الطارق والمطروق يشتكي من معاناته، وقد يرى البعض أن معاناة السكين أشد؛ لأن الطرق يقع عليها من أجل إعادة حذقها في حين أنني أرى أن ما يعانيه الحداد أشد فسرعان ما ينتهي الطرق عليها بينما يمضي هو حياته أمام الكور يعاني من رائحته ودخانه.

كانت قيادة الكلية قد تعودت على إعداد بعض الكلمات الحماسية، وجعلها شعارًا للدفعة الجديدة ليقوم الطلبة بترديده فيزيد من حماسهم كلما لزم الأمر. بعد تلقيننا الشعار بفترة قصيرة بدأ بعض الطلبة باستبداله وهم ساخرون بشعار آخر فيقولون إن شعار الدفعة ستة وثلاثين هو "طنش وابتسم وانظر للجبل" ولم أكن أدري إن كانت كلمات قد ألفها أحد الطلبة أم هي كلمات ورثت من الدفعات السابقة، وأيًا كانت الحقيقة فقد انتشر الشعار الجديد بين الجميع كما تنتشر النار في الهشيم.

أخذت أتأمل الكلمات، وبالرغم من عدم معرفتي بالمصدر الذي اندست

منه كلمة "طنش" إلى لغتنا العربية، ثم انتشرت في مصر والشام، فقد وجدت قولا حكيما وبلاغة عجيبة في هذا الشعار. فالشعار يدعونا إلى ما دعى إليه الأمام الشافعي في قوله:

"دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفسًا إذا حكم القضاء"

بل ويزيد على ذلك بدعوتنا إلى النظر إلى أجمل ما حولنا كي نجد فيه عزاء وسلوانا ينسينا ما نحن فيه من مشقة وعناء.

لم يكن في إمكاننا كطلبة أن نغير من أي شيء، فالمنهج قد أعد والعجلة تدور كما دارت من قبل. من يسير معها ينجو ومن يتوقف أمامها يدهس. التدريب شاق والضغوط النفسية شديدة، ولكن بالصبر يتحقق المستحيل. لم أكن مما يمارسون الرياضة بانتظام ولكن لم يكن لي خيار عندما أُمرنا بالعدو حول الأرض المخصصة للاستعراض مرة ثم أخرى، وكلما ظننت أنها النهاية أمرنا بالأخرى حتى أتممت السابعة وبعد أسبوعين فقط كان في مقدوري أن أعدو لمسافة الكيلومترين ونصف في أقل من ثلاث عشرة دقيقة وأنا بكامل ملابسي ومرتديًا الخوذة على رأسي وحاملًا بندقيتي على كتفي. وهكذا تحقق المستحيل وتشكلت الأجسام وطوعت النفوس.

كانت منتصبة في الأفق البعيد ومع ذلك فكان يهيأ لي في بعض الأحيان أنها قريبة جدًا منا، وأن بإمكاني الوصول إليها سيرًا على الأقدام. إنها سلسلة جبال البحر الأحمر التي تمتد من شرق النيل إلى سواحل البحر. كانت تضفي على المكان رهبة، وفي نفس الوقت كان لها جمال أخاذ تظهره أشعة الشمس المتسللة في ساعة الصباح الباكر، عندما يصطف الجميع ويقفون بلا حراك في وضع الانتباه. لقد صدق صاحب الشعار حين دعانا إلى النظر إلى الجبل. كان النظر إليه يولد داخلي شعورًا بالراحة يتوالف مع أصوات المئات من العصافير المنطلقة وراء

رزقها من بين أوراق الأشجار القليلة المنتشرة عند الأفق القريب خلف المنصة. وكان المنظر أروع حين تصطف فصائل الطلبة مرة أخرى في طابور المغرب. لقد رأيت في ذلك المكان المقفهر ألوانًا وأشكالًا بين السحب لم أرَ أجمل منها من قبل. وبالرغم من الهجوم المكثف للذباب على وجوه الطلبة قبل الغروب، والذي يتبعه هجوم شرس للبعوض بعد اختفاء قرص الشمس الذهبي بلحظات، فقد كنت أجد متعة عظيمة في النظر إلى الأفق البعيد. بالطبع لا أدري إن كان بقية الزملاء قد امتلكتهم نفس المشاعر أم لا ولكن مما لا شك فيه أنني قد استطعت الاستمتاع بجمال الطبيعة من حولنا فقط، عندما اتبعت الشعار البديل فطنشت وابتسمت ونظرت للجبل.

* * *

تلقين الببغاء



أود أن أبدي إعجابي بالحرص والفطنة في اختيار الألفاظ التي كان يتكلم بها البابا شنودة بابا الأقباط في حديث له مع إحدى قنوات التليفزيون اللبنانية، فحين سألته المذيعة عن الأصوليين في حديثها عن الإرهاب أجابها عن الإرهابيين، ولم يعِد لفظ أصوليين لأنه يعلم جيدًا أن هناك فارقًا كبيرًا بين اللفظين.

أخذت أراجع نفسي وأستعرض الكم الهائل من الألفاظ التي أخذت وسائل إعلامنا والكثير من كبار المسئولين في ترديدها في الآونة الأخيرة عن جهل أو سوء نية، وكأن وسائل الإعلام الغربية قد وضعتها وضعًا داخل أفواههم.

إن خبراء الإعلام في الغرب عادة ما يأتون بالمسميات المبتكرة فيما يخص شئوننا بعد دراسات مستفيضة، كي يتمكنوا من كسر بعض الحواجز التي وضعتها قيمنا الدينية والتاريخية والحضارية. وعادة ما يكون لهم هدف بعيد، إن لم يكن قريب، في تعويدنا على استخدام هذه الألفاظ حتى يتسنى لهم بعد ذلك ترويض سلوكياتنا. وعادة ما يردد العامة هذه الألفاظ الجديدة في عفوية وغالبًا عن جهل فيقعون في المحظور.

فمثلا استبدال كلمة ربا بكلمة فوائد واستبدال كلمة خمر بكلمة مشروبات روحية وكلمة زنا بكلمة خيانة، قد خفف من حاجز الحياء بل وأزاله بالكامل من أمام بعض ذوي النفوس الضعيفة. كذلك تكررت نفس اللعبة في مجال السياسة فقاموا باستبدال كلمة السلام بكلمتي عملية السلام والتطبيع، فأصبح التفاوض مع إسرائيل مستحبًا بعد أن مضى عهد كان يوصف فيه الداعون إلى السلام مع العدو بالخيانة أو الجنون في أحسن الأحوال.

ولقد كان ظهور الجماعات المنحرفة والمضللة من الشباب، والتي

تبنت العنف ونشرت الرعب خلال السنوات الماضية مجالًا خصبًا لمنتجي المسميات الجديدة. ولا نستطيع أن ننكر أننا قد واجهنا وما زلنا نواجه محنة كبرى استهدفت بعض الشباب في بلادنا وتمكنت من تشويش فكرهم ودفعهم إلى الإقدام على تلك الأفعال. ولكي نتمكن من إصلاح هذا الخلل وإعادة الأمور إلى نصابها كان علينا الإمساك بأول الخيوط وأن نبدأ بتسمية المسميات باسمها الصحيح.

دعوني الآن أستعرض على سبيل المثال لا الحصر الآتي من الألفاظ التي أطلقها المفترون على ذلك الشباب المنحرف:

الأصوليون: هذه التسمية لا يمكن أن يوصف بها إلا أهل التقوى والصلاح الذين يتمسكون بأصول الدين ويسيرون على نهج رسولنا الكريم ﷺ. فما كان الصحابة إلا أصوليين وكذلك من تبعهم على نهج التقوى. وكذلك ما كان الحواريون إلا أصوليين يتبعون المسيح عليه السلام ولا أظن أن من يصف من يقوم بالقتل وسفك الدماء بالأصوليين إلا أن يكون سيئ النية.

المتطرفون: التطرف يعني الوصول إلى أطراف الشيء دون الخروج عن حدوده .. فإذا داوم المؤمن على الصيام أكثر الأيام وقام يصلي أغلب الليل وبعدَ عن بعض الحلال خوفًا من الوقوع في الشبهات، وليس تحريمًا له، فإنه قد تطرّف ولكنه لم يخرج عن دينه. وهناك في المقابل من يتطرف في تسهيل الأمور دون الخروج عن طاعة الله والوقوع في الحرام. ولذلك فلا يمكن وصف هؤلاء الجانحين إلى أعمال الإجرام بأنهم متطرفون فهذا وصف بعيد جدًا عن الصواب .

الإرهابيون: قد يكون المقصود بالإرهاب هو إرهاب عدو الله وعدونا وهذا عمل يثاب عليه المرء، فما عمل قواتنا المسلحة من تدريب وإتقان لاستعمال وصناعة السلاح إلا عمل لإرهاب الطغاة ودفع الخطر عن ديارنا. وقد يكون الإرهاب موجهًا إلى الإبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة فيكون

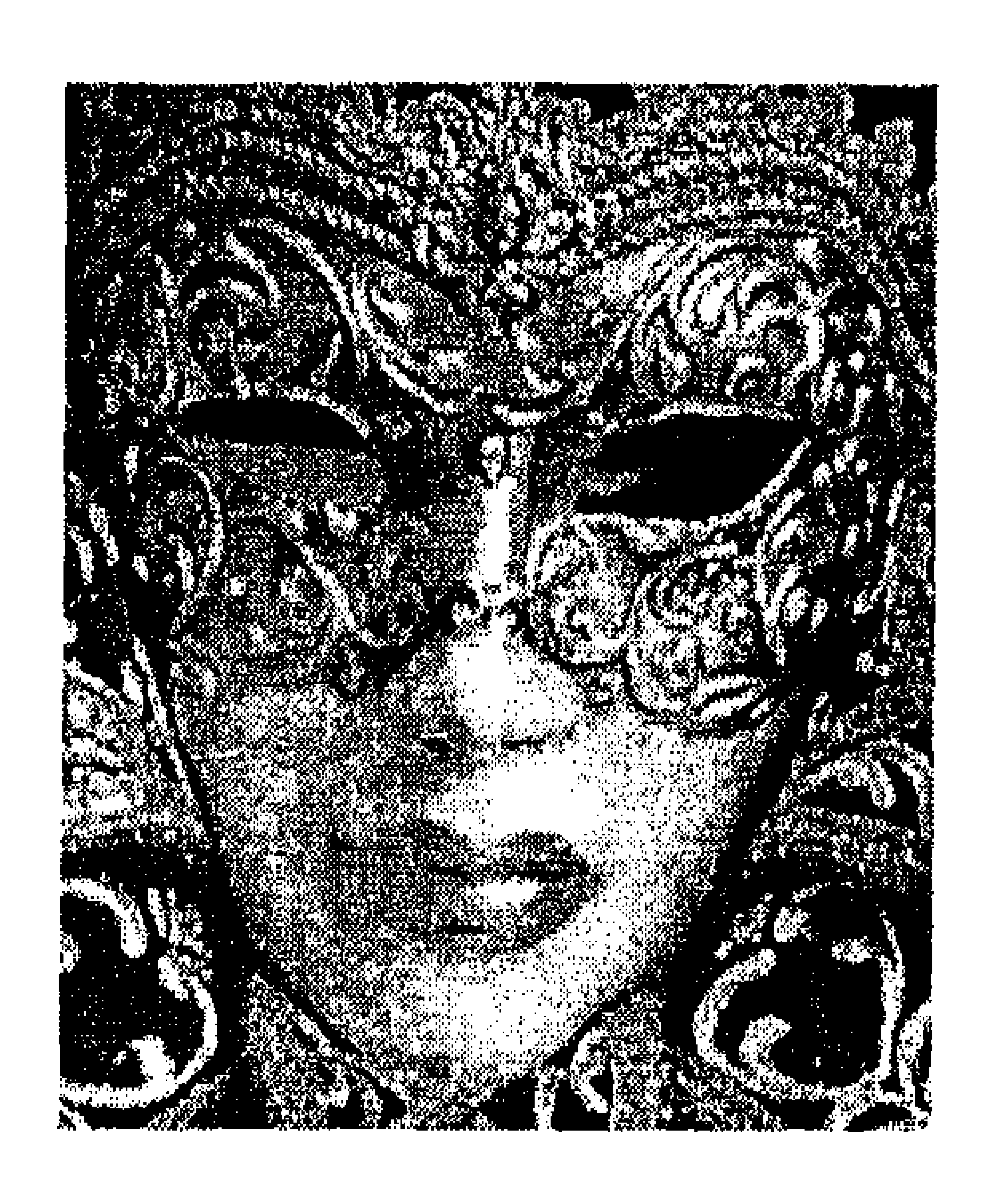
ذلك جريمة ويشترك فيها اللصوص وتجار المخدرات وهؤلاء الشباب المنحرف أيضًا. فكلمة الإرهاب لا تعني بالضرورة الجريمة بل هي أشمل من ذلك بكثير.

الجماعات الإسلامية: في هذا الوصف إساءة لكل مسلم ولا أرى أي معنى لاستخدامه حتى ولو وصفت أو سمت هذه المجموعات نفسها بالإسلام، فنحن نعلم جيدًا أن عملها لا يمت بصلة للإسلام.

بقي علينا إذن أن نجتهد ونبحث لنجد اللفظ المناسب. ولا أجد الأمر صعبًا، فإذا نظرنا إلى أسلافنا في عهد الخلفاء الراشدين لرأينا كيف قاموا بتسمية الأمور بأسمائها الصحيحة، فعندما امتنع بعض القوم عن أداء الزكاة سموا بالمرتدين أو الردة، وحين ظهرت طائفة من الناس على دراية كبيرة بالقرآن والحديث ولكنهم كانوا يفسرون الأشياء حسب هواهم وأفكارهم المنحرفة وسعوا في الأرض ناشرين للفساد قاتلين للأبرياء سافكين للدماء قام العقلاء من أهل ذلك الزمان بتسميتهم بالخوارج. وكم كانت هذه التسمية دقيقة فهؤلاء قد خرجوا عن قوانين الإسلام وبعدوا عن طاعة الله رغم اطلاعهم على كتابه وسنة رسوله الكريم.

ما أشبه ما يجري اليوم بما كان أيام الخوارج. فلماذا لا نسمي هذه الجماعات الضالة بجماعات الخوارج أو الجماعات الخارجة عن الإسلام، فنضعهم بذلك في مكانهم الصحيح ونبعد التهم والشبهات عن ديننا العظيم ولا نقع في الفخ الذي نصبه لنا أعداؤنا بترديد ما يقولونه بدون وعي كما تفعل الببغاوات، فنستفز بذلك ونستعدي الأكثرية من شبابنا الذين يسيرون على درب الإسلام الصحيح. إني لا أرى بدًا عن وضع المسميات الصحيحة في مكانها قبل أن نذهب في البحث عن أسباب المرض وتشخيصه ثم الانتقال إلى مرحلة العلاج بما يمليه علينا العقل وليس كما تلقنه لنا وسائل الإعلام الخبيثة.

الجري وراء القطار



حجز طاهر تذكرته في أول قطار عائد من قنا إلى القاهرة، وكان في الوقت سعة فأخذ يتجول حول المحطة فلم يجد شيئًا يشده، فقرر أن يجلس بالمقهى القريب ليقضي ساعة من الوقت. أخذ يتصفح الكتيب الخاص بمواعيد القطارات الذي كان يحمله وقرأ بعض المعلومات المكتوبة فيه عن تاريخ السكة الحديد في مصر، فعلم لأول مرة أن القطار قد بدأ خدمته بين الإسكندرية والقاهرة في عام ١٨٥٦ ثم تلى ذلك خدمته بين عين شمس والسويس، وبعد أحد عشر عامًا امتدت الشبكة لتشمل الكثير من مدن الوجه البحري.

لاحظ طاهر دخول رجلين إلى المقهى جلس أحدهما على كرسي من القش عند المدخل بينما وقف الآخر بجواره. كان الرجل الجالس في حوالي الستين من عمره يرتدي قفطانًا بني اللون وعلى رأسه لبدة زرقاء وله شارب مربع الشكل ويحمل في يده ربابة، أما الثاني فكان على ما يبدو أصغر سنًا من زميله وكان يرتدي جلبابًا داكنًا ليس من السهل تمييز لونه ولبدته رمادية ووضع تحت إبطه مزمارًا. كان الرجل يتميز بشارب ضخم جعل طاهر يتذكر الأغنية القديمة عن أبي سعدة الذي يقف على شنباته صقرين. توجهت إليهم أنظار الجالسين بالمقهى وعرف طاهر على الفور أنهما سالم القناوي رجل المواويل المحبوب في البلدة وعبد العال أقدر عازفي المزمار على الوصول إلى قلوب المستمعين والتأثير في مشاعرهم.

طلب بعضهم من سالم أن يحكي لهم حكاية الهلالي التي اشتهر بها الأدب الشعبي في مصر، بل وفي الكثير من الدول العربية من شرقها إلى غربها، فما كان منه إلا أن أخذ ربابته وغنى على نغماتها "أنا مش رايح أحكي حكاية أبو زيد الهلالي والزناتي خليفة ولا حكاية اللي حب ولا

طالش ده أنا حاجص عليكم حكاية الأربعة اللي ركبوا الجطر وخامسهم اللي لسة بيجري وراه ولا ركبش".

هنا أدرك طاهر أن القطار لم يشق طريقه على خطوط السكة الحديد فقط بل شق طريقه أيضًا إلى وجدان الشعب المصري واحتل مكانة في أمثلته الشعبية. فمن الأمثلة التي عرفها منذ الصغر مثل يقول "أنت تستنى والقطر ما يستناش" وآخر يقول "عامل زي اللي بيجري ورا القطر". وقد أدرك معنى المثل الأول عند أول مرة فاته فيها القطار بسبب تلكئه في الذهاب إلى محطة سيدي جابر، ثم أدرك معنى المثل الثاني عندما وصل في إحدى المرات إلى محطة رمسيس، وقد بدأ القطار في التحرك فأخذ يجري ليلحق به فوجد نفسه كمن يجري وراء السراب فكيف له أن يدركه وفارق السرعة بينهما كبير.

أعاد طاهر نظره إلى سالم الذي أخذ يحكي حكايته الطويلة. بدأت الحكاية عندما دعا أنور كل من أبناء عمومته حافظ وياسر وحسين إلى لقاء عاجل للتشاور. كان كلٌّ منهم كبير المقام مسموع الأمر في قومه وكان أنور أكبرهم مقامًا وأكثرهم عزوة بين أهله. لم يتقابلوا كالعادة في بيته بل كان لقاؤهم هذه المرة في إحدى المقاهى داخل محطة السكة الحديد. كان هدفه من دعوتهم إلى ذلك المكان وقبل عدة دقائق من مرور قطار الشمس السريع هو تهيأتهم نفسيًا إلى قبول الأمر العظيم الذي سيعرضه عليهم. كان أهل البلدة يسمونه بقطار الشمس؛ لأن سيره دائمًا كان من المشرق إلى المغرب. لم يره أحد عائدًا في الاتجاه العكسي وكأنه يلف حول العالم ويعود على نفس القضيب وفي نفس الاتجاه. مر القطار بالمحطة دون توقف فلفت أنظار الجميع بفخامته وبلونه الأسود المزدان بنجوم ذهبية.

أشار إليه أنور ثم حدث أصدقاءه عن خبره مع هذا القطار الغامض

وأخبرهم بما حصل عليه من وعد من بائع التذاكر بتمكينهم من ركوب القطار بلا مقابل إذا كان عددهم لا يقل عن أربعة ومعهم بعض أولادهم، ثم أخذ يحدثهم عما ينتظرهم في نهاية الرحلة من خير وفير. أخبرهم أنه سوف يتدبر أمرهم ويعد لهم عرسًا كبيرًا يتزوجون فيه بأربع نسوة أبكارًا أترابًا لم يُر في الدنيا لمثلهن جمالًا. شرح لهم كيف سيضع هذا النسب الجديد حدًا للمعاناة التي عاشوها ما يقرب من ثلاثين عامًا سفكت فيها دماء الأهل والأحباب ونفدت الأموال وتجرع فيها أولادهم الفقر والحرمان، مما اضطرهم إلى مد أيديهم إلى أبناء العمومة الأثرياء الذين صدوهم مستنكرين.

ضحك ياسر منبهًا أنور بأن قطار الأحلام هذا لم يسبق له التوقف في بلدتهم بل هو في كل مرة يمر بها مرور الكرام. فطمأنه أنور وأكد بكل ثقة بأنه سوف يتوقف لهم في الأسبوع المقبل وفي نفس الميعاد ثم استدرك قائلًا بأن الوعد لن يتحقق إلا بذهابهم معًا.

لم يرُق كلام أنور حافظ فانتصب من جلسته وصرخ فيهم بأنه لا يمكن أن يشاركهم في فعلتهم هذه، فقد سمع منذ نعومة أظافره الكثير من الأقاويل عن هذا القطار على لسان أمه وأبيه. لقد سمع أن توقفه في محطتهم سيكون نذير شؤم عليهم أجمعين وأن اللعنة ستصيب كل من يركبه. حاول أنور أن يهدئ من روع الرجل ويدعوه إلى التحاور بالمنطق. حاول إقناعه بأنه لن يصيبهم مكروه وهم عصبة ولكن الشر كل الشر في افتراقهم. قد بدا وكأنه قد صمت أذناه ولم يكن في وسع أنور أن يزحزحه عن موقفه. تركهم حافظ منصرفًا وقبل أن يبتعد التفت إليهم ونظر إلى كل من ياسر وحسين نظرة تحمل بين طياتها التهديد والوعيد فقام ياسر منتفضًا وصرخ مستنكرًا دعوة أنور وعمد أن يكون صوته عاليًا كي ينال رضى حافظ ثم استدار واتبع خطوات صاحبه.

تجنب حسين مواجهة نظرات حافظ وبقي لوهلة يتفكر وكاد أن يوافق أنور في رأيه فقد سبق له ركوب هذا القطار مرارًا من قبل. كان يتسلل ليلًا إلى قرب المحطة وينتهز أية فرصة لتوقف القطار أو سيره ببطء فيتسلل من أحد أبواب العربة الخلفية دون أن يراه أحد. كان دائمًا ما يجد رجلًا ذا قلنسوة سوداء صغيرة يقف بجانب الباب، فيمد إليه يده ويعينه على الصعود. كان يقضي بعض الوقت ثم يهبط من القطار محملًا ببعض الهدايا من الحلوى والعطور. رآه البعض ولكنه أنكر. لم يكن يهم أولاد العمومة صعوده إلى القطار، ولكن كان ما يخشونه هو الإعلان عن ذلك مما يجلب العار عليهم. فلا بأس إذن إن فعل ما فعل ما لم يعلن عنه. كان حسين ماكرًا وأدرك أن صعوده القطار هذه المرة يختلف عن كل ما سبقها من المرات وأن ذلك سوف يجلب عليه المتاعب لأنه سيكون علانية وتحت أنظار الجميع. فقرر الانسحاب واعتذر لأنور متحججًا بأن الوقت لم يحن له بعد.

اشتد حنق أنور فأخذ يسب ثلاثتهم ويتبرأ من قرابتهم وينسب نفسه إلى جد قديم اشتهر بقوته وسلطانه حين كان أجدادهم هم من البدو الجائلين. لم يحاول مراجعة نفسه وإعادة حساباته بعد أن أصبح وحيدًا وفقد العزوة التي يستمدها من الانتماء إلى جماعتهم. شعر وكأن جرحًا قد أصابه وامتزج شعوره بالكبر مع حب الانتقام من الذين خذلوه فعقد العزم على أن يمضي قدمًا ويركب القطار ولو كان وحده.

كان بائع التذاكر يرقب ما يحدث ويحاول التنصت على حديث الفرقاء من أولاد العمومة. كان خبيثًا واسع الحيلة وأدرك أن بإمكانه أن ينفذ إلى جرح أنور ويمتص ما يستطيع من دمائه. اتجه إليه أنور وأخبره بأنه سيركب القطار وحده ولن يصحب معه إلا عددًا محدودًا من أولاده. بدأ الرجل في نصب شباكه للوحش الجريح وتخلى عن عرضه السابق

بتوفير السفر مجانًا وأخذ يساومه على الثمن. لم يكن أمام أنور وهو في ثورته وغضبه إلا أن يرضخ لطلبات ذلك اللئيم ويرهن عنده قطعة من أغلى الأراضي التي توارثتها عائلته أبًا عن جد ثمنًا لسفره وتغطية لتكلفة عرسه المنتظر.

قرر أنور أن يصطحب بعض أولاده معه في رحلته إلى مغرب الشمس. كان له أولاد كثر تربوا في بيت واحد ولكنهم تعلموا في مدارس مختلفة فتنوعت ثقافاتهم برغم ما يجمعهم من وحدة الدم ومسقط الرأس. طلب من أولاده حسن وكامل وغالي أن يتجهزوا للسفر معه ولم يخبرهم عن تفاصيل الرحلة ولا عما اتخذه من تدابير لإتمام الزيجة المنتظرة.

توقف القطار في الميعاد المحدد وظهر من خلف باب العربة الأولى رجل قصير يضع على رأسه قلنسوة سوداء. فتح لهم الباب فصعد الفتية ثم تبعهم أبوهم وقبل أن يتحرك القطار نظر أنور من النافذة فرأى بعض أبناء العمومة وقد أتوا إلى المحطة وبدءوا في النداء عليه وسبه، ثم تناول كل منهم بعض الحجارة وأخذوا يقذفون بها القطار. كان أكثر ما أصاب أنور بالإحباط وخيبة الأمل رؤيته لياسر وحسين، وقد حمل كل منهما حجرًا ورمى به في اتجاه القطار مثلما فعل الآخرون. لم يزحزح ما فعله المتجمهرون أنور عن قراره بل زاده عنادًا وتصميمًا على المضي حتى نهاية الرحلة متحديًا لهم ومصرًا على ألا يمكنهم من الشماتة فيه.

وصل القطار إلى محطته الأخيرة ونزل أنور وأولاده فوجدوا الورود والزينات من حولهم في كل مكان، مما رفع من معنوياته وجعله يذهب مسرعًا إلى غرفته ليستعد لحفل الزفاف الكبير. كذلك ذهب الأولاد إلى غرفتهم إلا كامل الذي أخذ يتجول في المكان؛ حيث توقف أمام أحد الأبواب عند سماعه صوت امرأة تتحدث عن الحفل ففهم من الحديث أنها هي العروس التي ستزف إلى أبيه. أخذ يسترق السمع ثم تشجع وأطل برأسه

من الباب من دون أن يراه أحد فراعه ما رأى وكاد يغشى عليه. كانت قبيحة دميمة قد تشوه وجهها. كان حولها ثلاثة يقومون بتزينها. كان أحدهم يشبه رجل القطار ذا القلنسوة السوداء وقد أمسك بقناع وألصقه على الجزء الأعلى من وجهها، ثم أخذ الآخران يكسون القناع وباقي الوجه بمساحيق التجميل لإخفاء قبحها عن أبيه المخدوع وإيهامه بأنها سلام التي وعدوه بها.

خرج كامل بهدوء ثم أخذ يعدو وهو يبكي حتى وصل إلى غرفة أبيه فهرول إليه وأخبره بهول ما رأى وطلب من أبيه ألا يقدم على هذا الزواج، واقترح عليه أن يعودوا جميعًا من حيث أتوا. قابل أنور ابنه بوجه قاس ووبخه ونعته بالغباء واتهمه بالجنون. لا يعلم أحد إن كان أنور قد أدرك الحقيقة في تلك اللحظة ولكن الكبر منعه من التراجع أم أنه رفض أن يصدق الحقيقة وفضل عليها العيش مع الوهم والخيال. أحس كامل بحزن عميق وانسحب من أمام أبيه وقرر أن يبقى بغرفته ولا يشارك في تلك الأفراح حتى يأذن له بالعودة إلى بلده.

جاءت اللحظة المنتظرة وقدمت إليه الغانية العجوز قبيحة الوجه على أنها فتاة الأحلام سلام وتم عقد القران. لم يكن الزواج على مذهب أبي حنيفة فيجوز فيه الطلاق، ولا على المذهب الكاثوليكي؛ حيث لا تنتهي الزيجة إلا بالموت بل كان زواجًا كزواج الجاهلية تورث فيه الزوجة بعد موت الزوج ولا ينتهي زواجها ما دامت حية ترزق.

عاد الجميع ومعهم العروس فلم يجدوا أحدًا من الأهل في استقبالهم ولم يجدوا أية حفاوة ممن قابلهم في الطريق. لم تمر عليهم إلا بضع ساعات حتى بدأ الخبر ينتشر، وبدأت الحقيقة تتناقل على ألسنة الناس وأخذ الجميع يتهامسون بأن العرس قد زيف وأن أنور قد خدع. انتشر الخبر كالنار في الهشيم وزاد الهمس وتحول الظن إلى يقين وقال الجمع

إن زواج أنور من سلام باطل. لم يعد أنور يسمع لأحد وزاد كبره يومًا بعد يوم وأخذ يسيء معاملة كل من حوله وانصرف عن كل من نصحه ثم أدبر يسعى وكاد أن يقول أنا ربكم الأعلى.

اجتمع القوم في يوم الزينة يحتفلون فخرج أنور عليهم مرحًا في أبهى زي وحمل في يده صولجانه الثمين. وعاد همس الجمع من حوله بأن زواجه من سلام باطل، ولكن عزف الموسيقى غطى على أصوات الهامسين، فأوحى إليه ملأه بأن الناس لمجده ينشدون ولم يدرك المسكين الحقيقة بعد أن صُمّت أذناه بكلمات المنافقين.

من وسط الزحام خرج أحد أبنائه صارخًا بأنه قد جاء ليخلص القوم من خطيئة أبيه وليبعد عنهم خزي زواجه الباطل، ويكشف القناع عن وجه العروس الزائف. طوعت له نفسه فقتل أبيه فأصبح من الخاسرين وسقط أنور على الأرض ليكون لمن خلفه آية لكيلا يتبعوا طغيانه وكبرياءه وضلاله المبين. لم يدرك الابن أنه قد ارتكب إثمًا مثل إثم ابن آدم حين قتل أخيه ثم أصبح من النادمين. لم يدرك في حينها أن زواج سلام سينتقل إلى الوارث من الموروث. لم يتخلصوا من سلام بل بقيت في ذمة الأخ الأصغر حسني الذي ورث مكان أخيه. زاد مع الأيام قبحها المذموم وبالرغم من هذا فقد هام الأخ بحبه لها كالمجنون. هذا ما كان من أمر أنور وما أصابه بسبب غروره وكبره على الآخرين.

أثناء التحقيق في مقتل أنور أدلى القهوجي الذي يعمل في مقهى المحطة بأقواله، مؤكدًا أنه رأى منذ أسبوعين شخصًا ملتحيًا غريبًا عن البلدة يرتدي جلبابًا أبيض يجلس مع القاتل في أحد أركان المقهى وقد كانا يتهامسان. وبعد ذلك بعدة أيام تقدم عامل التحويلة مبلغًا بأنه منذ حوالي أسبوعين قد نزل رجل ذو قلنسوة سوداء من قطار الشمس عندما هدأ من سرعته بالقرب من التحويلة، ثم إن الرجل تنحى جانبًا دون أن

يعلم أن أحدًا يرقبه واستبدل ملابسه بجلباب أبيض ووضع لحية مستعارة ثم مضى في اتجاه المحطة. لم تقدم النيابة هذه الأقوال للمحكمة بسبب عدم توفر الأدلة.

عاد سالم إلى العزف على ربابته وارتفع صوت المزمار، وأخذ ينشد ويحكي ما كان من أمر حافظ.

انتهز حافظ غضب الجميع على أنور فأظهر عدم رضاه بل ومعارضته لكل ما فعله وتمكن من استمالة الجمع إليه والحصول على تأييدهم التام له. تمكّن بهذا الأسلوب أن يجمع أموالًا طائلة من كل أبناء العمومة الذين اتفقوا على مقاطعة أنور بالرغم من اختلاف أهدافهم من وراء ذلك. البعض كان يحركه الحقد وحب الشماتة، أما البعض الآخر فكان يريد إزاحته ليحل محله في زعامة العائلة الكبرى أو ليستولي على بعض المميزات التى كان يتمتع بها هو وأولاده من قبل أما الباقي منهم فكان يتبع ذوي الأصوات العالية خوفًا على نفسه من عواقب معارضتهم.

مــلأ خزانته بالمال ولم يصرف إلا القليل منه على أولاده. اشترى لنفسه فراشًا وثيرًا ليعينه على النوم والاستغراق في الأحلام، فكان كثيرًا ما يحلم أنه يركب حصانًا أصهبًا يسابق به القطار، ثم ينقض بعد ذلك ويخطف فتاته الجميلة من بين أيدي قطاع الطرق ثم يتزوجها. عاش يوهم نفسه ومن حوله أن حلمه سيتحقق وعاش الناس يشاركونه حلمه ثم انشغلوا بهمومهم ونسوا الأمر برمته.

رفع عبد العال المزمار ونفخ فيه مدويًا بينما التفت سالم القناوي إلى السامعين وطلب منهم الصلاة على النبي ثم انتقل إلى سرد ما كان من أمر ابن العم الثالث حسين.

كان حسين مقامرًا يجيد اللعبة ويحسب احتمالات المكسب والخسارة بحرص شديد. انتهز فرصة انحصار غضب أولاد العم وانشغالهم بأمورهم

الخاصة وانتشار المشاجرات فيما بينهم وبدأ في الاتصال سرًا ببائع تذاكر قطار الشمس وعقد معه اتفاقًا يتوقف بموجبه القطار ليقل حسين في رحلة تشابه رحلة أنور. لم يكن لديه الكثير ليدفعه مقابل الحصول على التذكرة، ولكنه رهن ممتلكات لغلمان من اليتامى الذين كان قد تكفل منذ زمن برعايتهم.

كان أنور قد أخبره من قبل أنه سوف يزوجه من فتاة رائعة الجمال اسمها وفاق إذا ذهب معه على متن قطار الشمس. كان حسين يعرف هدفه جيدًا، فما كان يهمه كثيرًا جمال وفاق أو غيرها بقدر ما كان يهمه الثروة التي ستؤول إليه نتيجة هذا النسب الجديد. تم استبدال وفاق بعجوز قبيح مثلما تم استبدال سلام من قبل، ولكن في هذه المرة لم يتم لصق القناع وإخفاؤه بالمساحيق بل قامت العروس بإمساكه بيدها ووضعه أمام وجهها. عاد بعروسه إلى الوطن وبالرغم من عدم رضى الأهل على فعلته فسرعان ما نسي الأمر واعتاد عليه الجميع.

مرة أخرى ارتفع صوت المزمار وانتقل سالم إلى سرد ما كان من أمر ابن العم الرابع ياسر.

ساور ياسر شعور بأن القطار قد فاته إلى الأبد بعدما رأى حسين يلحق به مثلما فعل أنور من قبل وبعد ما لم يعِره بائع التذاكر أي اهتمام في محاولاته المتكررة لحجز مكانًا على القطار. انتابه إحساس غريب بالهزيمة، وأخذ يتصرف كالمقامر عند الخسارة عندما يندفع ويضع المزيد من المال على مائدة اللعب، بدلًا من أن يتوقف وينسحب بعيدًا. بدأ يتذلل لبائع التذاكر ويعرض عليه رهن كل ما يملك. لم يكن يملك المال ولكنه كان يحتفظ بالكثير من العقود التي تثبت ملكية عائلته للكثير من العقارات المتنازع عليها. حصل أخيرًا على فرصته بعد أن ضحي في مقابلها بالكثير. أسكرته نشوة الحصول على التذكرة، ونسي أن ركوب

القطار هو الوسيلة وليس الغاية المرجوة.

ذهب في اليوم الموعود وهبط من القطار في محطة في منتصف الطريق؛ حيث أعد له حفل هزيل. لم يكن في سكرته يستطيع أن يميز بين الصالح والطالح ولم يكن في وسعه أن يميِّز وجه العروس ويعرف أنها ليست أماني التي وعد بها. كانت عرجاء دميمة الوجه والغريب أنها لم تكن تخفي ذلك بأى قناع أو مساحيق؛ لأنها كانت تدرك ما وصل إليه حال الرجل. وجاء رجل متأنقًا في بذلة سوداء وناول العروس كأسًا من مشروب أحمر اللون فلم تضعه على فمها بل وضعته على شفتا ياسر الذي رشف رشفة منه ثم تغير بعدها حاله. شهد البعض بأن الرجل ذا البدلة السوداء هو نفسه الرجل ذو القلنسوة السوداء وشهد آخرون بأنه رجل من عائلة ياسر. لم يستغرق الأمر إلا بضعة أيام دفن بعدها جثمان ياسر تحت التراب.

لم يكن قد دخل على عروسه بعد، ولم يكن عقد الزواج قد تم توثيقه، وبالتالي لم تورث العروس إلى محمود الأخ الأصغر لياسر وبدلًا من أن يعتبر محمود وينهج نهجًا جديدًا، فقد أظهر هوسًا أشد من سابقه وذهب إلى المحطة يتوسل للحصول على تذكرة جديدة، ولكن لم يكن معه ما يقدم فقد قدم أخوه من قبل كل ما كانت تملكه العائلة. جاء القطار مسرعًا ولم يتوقف وأخذ محمود في الجري وراءه حتى حفيت قدماه ولكنه لم ييأس وأخذ يعاود المحاولة في كل أسبوع.

دب الخلاف بين إخوة محمود فبعضهم حاول أن يساعده ويمده ببعض المال كي ينول مراده، أما البعض الآخر فقد تبرأ منه واتهمه بالذل والخنوع. لم يغيِّر ذلك من شأن محمود فها هو ذاهب إلى المحطة كالمعهود وها هو يجري وراء القطار الموعود.

ملأ عبد العال فمه بالهواء ودفعه في مزماره دفعًا فامتزج صوته

مع صوت الربابة واشتد صوت سالم وهو يغني "دي كانت حكاية زي حكاية اللي حب ولا طالش دي كانت حكاية اللي لسة بيجرى ورا الجطر ولا ركبش".

نظر طاهر في ساعته ثم قفذ من مقعده بعدما ترك ثمن فنجان القهوة بجانب كوب الماء وحمل حقيبته الصغيرة وخرج مسرعًا ليلحق بالقطار حتى لا يكون حاله كحال محمود الذي مازال يجري وراء القطار.

* * *

حب الوطن



استيقظ طاهر مبكرًا من نومه في منزل العائلة القديم؛ حيث بات ليلته وحيدًا أثناء زيارته السريعة للإسكندرية. انتهز فرصة وجوده في غرفته التي قضى بها أيام الطفولة والصبا فأخذ يفتش بين أرفف خزانة كتبه القديمة ويكوِّم على الأرض بعض الأوراق والكتب الجامعية التي قرر التخلص منها بعد أن اصفرت أوراقها وأصبحت عديمة النفع.

كانت خزانته في الماضي عامرة بالكتب، فكانت تحوي أغلب ما كتب توفيق الحكيم والعديد مما ترجم إلى العربية من روائع الأديب الروسي دستوفسكي، والكثير من مؤلفات طه حسين والعقاد وبعض ما نشر لحسين فوزي وبيرم التونسي وغيرهما من مشاهير الأدباء. كذلك كان بها بعض ما كتب محمد حسنين هيكل في عهدي عبد الناصر والسادات. كان ينظر طاهر إلى خزانته على أنها ثروة سوف يورثها إلى أبنائه من بعده ولكنه قد أدرك الآن، وبعد أن كبر أولاده وأصبحوا في سن الشباب، أن كتبه سوف تظل فريسة للفطريات تأكل أوراقها وهي حبيسة خزانته ولن تخرج منها إلا ليقذف بها إلى صناديق القمامة.

لقد تعلم أبناؤه في مدارس تُعلم العلوم باللغة الإنجليزية وكان يظن أن القائمين على التدريس لا يهملون لغتهم العربية، كما كانوا يدعون، ولكنه فوجئ في النهاية بالمستوى الهزيل لقدرات أبنائه على قراءة وكتابة العربية. وأمام منافسة القنوات التليفزيونية والإنترنت لم يعد الكثير من شباب الجيل الحالي في البلدان العربية يرغب في قراءة الكتب بل عزف عنها وأخذ يتخطف ثقافته من مصادر غير موثقة يكون بعضها مغلوطًا أو مدسوسًا. فمن بين أبنائه الثلاثة هناك ابنة واحدة فقط تحب قراءة الكتب الأدبية والأخرى تقرأ الكتب العلمية عند الحاجة

وولد يكتب بنفسه بعض القصص القصيرة ولكن كلهم يقرءون ويكتبون بالإنجليزية.

اعتبر طاهر ذلك أكبر فشل صادفه في حياته وكان يدعو من الله المغفرة على وقوعه في هذا الإثم العظيم حين تبع الآخرين ووثق في رقابة وزارات التعليم عند اختياره المدارس التي ألحق بها أبناءه في طفولتهم.

وقع نظر طاهر على صندوق من الكارتون داخل خزانته اعتاد أن يحفظ بداخله الخطابات التي كانت تصله من أصدقائه وأقاربه أثناء سفرهم أو أثناء سفره هو خارج البلاد. كان ذلك في السبعينات من القرن العشرين عندما كان البريد هو وسيلة التواصل الأولى بين من بعدت بينهم المسافات. كاد يرمي بكل محتويات الصندوق، ولكنه تراجع عن ذلك سريعًا وقرر ألا يضحي بذكرياته، وليدع هذه المهمة لمن يرثه عاجلًا أو آجلًا.

وضع طاهر صندوقه على السرير وأخذت يداه تقلبان الأظرف والكروت. أمسكت أصابعه بأحد الكروت وكان عليه صورة جميلة لكورنيش النيل بالقاهرة. فنظر خلف الكارت باحثًا عن توقيع الراسل فوجده من شرين. تنهد طاهر وهو يتذكر الأيام التي كان عندها في السنة الثانية بكلية الهندسة ووقعت عيناه على وجهها للمرة الأولى فرأى فيها ما لم يره من قبل. كان في وجهها براءة طفلة لم تتجاوز الخامسة، فتخيل أنها ملاك قد تجسد في صورة آدمية. أفصح عن تعلقه بها لبعض أصحابه المقربين فسخروا منه ولم يروا فيها شيئًا مما وصفه لهم. إن الانجذاب إلى الطرف الآخر غالبًا ما يقوم على شيء من توافق الأرواح وتجاذبها بغض النظر عن المقاييس المطلقة للصفات. فقد لا يرى إنسان ما يراه الآخر حتى إذا ما صوبا نظرهما إلى نفس الهدف.

كانت تصغره بعامين دراسيين وكان الحياء ظاهرًا على وجهها. لم يرَها تتكلم مع أحد من زملائها من الفتية ولكن كان دائمًا يراها واقفة مع صديقاتها في أوقات الراحة بين المحاضرات. لم يكن يعرف عنها شيئًا ولا حتى اسمها ولكن ذلك لم يستمر طويلًا، فقد كان يعرف في صديقه عبد العال قدرات خارقة في تقصي الحقائق واستطلاع المجهول من أخبار الناس. لم يكن يعرف أي وسيله يسلك ولكنه كان على يقين بأن الحصول على بعض المعلومات عنها قد يساعده على إيجاد وسيلة للتعارف.

لم تمض إلا بضعة أيام وإذا بصديقه يأتيه باسمها واسم والدها وعنوان سكنها. كان حذرًا ولم يستطع أن يخطو نحوها أية خطوة أخرى، خشية أن يسبب لنفسه الحرج ففتاة من هذا النوع قد لا تقبل التعرف على شاب مثله بدون مقدمات، كما أنه لا يستطيع أن يتقدم إليها خاطبًا وما زال أمامه ثلاث سنوات دراسية، بالإضافة إلى عدد آخر من السنين لا يعلمه إلا الله كان يجب أن يقضيه في الخدمة العسكرية. كان ذلك في عام ١٩٧٢، حيث كان من المعتاد أن يستبقى المهندسين كضباط احتياط حتى يأتي وقت الفرج ويتم إزالة آثار نكسة ١٩٦٧.

لم يجد طاهر أمامه إلا الصبر واكتفى بالنظر إلى وجهها كلما سنحت له الظروف، حتى إنه كاد يحفظ جدول محاضراتها. جاء الصيف ولم يعد يراها ولكنه انشغل عن ذلك بالإعداد لسفره للتدريب الصيفي في إحدى المدن الهولندية. خطرت بباله فكرة جريئة عندما استقر به المقام في هولندا فاشترى كارتًا به مناظر قنوات المياه ومن خلفها طواحين الهواء الشهيرة ثم كتب عليه كلمات رقيقة تصف جمال الحياة هناك ووقع تحتها "صديقتك توتي" ثم أرسل الكارت إليها. كان يتصرف بعفوية كالتي كان عليها محسن بطل قصة الحكيم "عصفور من الشرق".

لم يصدق نفسه حين عاد إلى البيت الذي كان يسكن في إحدى غرفه فإذا بصاحبة البيت تناوله كارتا قد وصل إليه بالبريد من الإسكندرية. لقد كان منها. كانت تتساءل عمن هي "توتي" فبالطبع لم تكن تعرفها ولكنها لم تكتفِ بذلك بل استرسلت في الكلام تصبر صاحبتها توتي على تحمل الغربة وتعرب لها عن أنها مهما رأت من جمال وانبهرت بالحياة هناك فإن ذلك لا يمكن أن يقارن بمصرنا الحبيب. كانت سعادة طاهر لا تحصى فها هو يحمل بين يديه كلماتها ويحس بما يدور في خلدها ويمسك خيطًا قد يقربه منها ويساعده على إنشاء خلفية مشتركة معها.

لم تدم سعادته كثيرًا فبعد عودته ببضعة أشهر علم عن طريق أجهزة المعلومات الخاصة به أن فتاتنا قد تمت خطبتها لأحد المعيدين الذي كان يستعد للسفر لإتمام دراساته العليا في الخارج وما هي إلا أيام قليلة حتى اختفى ملاكه ولم يعد إليه سبيلًا.

ترك طاهر الكارت جانبًا وكأنه يطوي صفحة من صفحات الماضي، وأخذ يقلب في محتويات الصندوق الأخرى فلفت نظره خطاب عليه طابع أيرلندي. لقد كان من وجدي، إنه الرائد مهندس وجدي أو كما كانوا ينادونه في القوات البحرية "وجدي قبطان"، هنا تذكره طاهر بعد أن نساه تمامًا ولم يخطر بباله قرابة العشرين عامًا.

تعرف عليه عن طريق صديقه صلاح، وكان صلاح قد تعرف على وجدي في مركز الحساب الآلي بالجامعة؛ حيث كانا يستخدمان الحاسب الخاص بالمركز في إنجاز بعض الحسابات المطلوبة لأبحاثهم في الدراسات العليا. كان صلاح يعتمد اعتمادًا كليًا على طاهر في كتابة البرامج الخاصة بالإحصائيات؛ حيث أن طاهر قد ذاع صيته في وسط أصدقائه وزملائه واشتهرت مهارته في البرمجة.

طلب وجدي من صلاح أن يعرفه على طاهر الذي كان مازال في خدمة

الاحتياط كملازم أول بالقوات البحرية. لم يتقابلا من قبل في أثناء العمل ولكن كان لقاؤهما الأول في نادي الضباط بالقرب من محطة الرمل. كان وجدي أبيض الوجه ضخم الجسم وكان له شارب غليظ. تكلم كثيرًا عن أبحاثه التي يستخدم فيها حسابات معقدة تعتمد على أعداد كبيرة من المصفوفات الرقمية. قبل طاهر التحدي الجديد وتطوع بالقيام بإعداد البرامج المساعدة لأبحاث صديقه الجديد. تكررت اللقاءات وكانت غالبًا ما تتم في نفس المكان ويمضي الوقت في مناقشات علمية ثم يتم على آثارها تعديل البرامج أو كتابة المزيد منها.

في أحد اللقاءات ودع وجدي طاهر وأخبره أنه قد تم اختياره للسفر في بعثة دراسية تستمر لعدة أشهر إلى إيرلندا. وفي أثناء سفره كان يرسل الخطابات من حين إلى آخر إلى طاهر. ذكريات قديمة قد انزوت في عمق سحيق من ذاكرة طاهر ولكن ها هي تقفز إلى السطح بمجرد ملامسته لأحد الخطابات المحفوظة في صندوقه القديم.

كان يبدو من خطاب وجدي أنه بالرغم من انبهاره بروعة الطبيعة وجمال المرأة وحسن معاملة الناس والتقدم العلمي ونظام الحياة المتناسق، فإنه كان يعانى شعورًا شديدًا بالغربة فقد امتلأ خطابه بمشاعر فياضة في حب الوطن واشتياق مُلح للعودة إلى أرض مصر وبحارها.

أخذ طاهر يتنقل من خطاب إلى آخر حتى وقع بين يديه خطاب مرسل من منتريال من صديقه حازم الذي كان يدرس للحصول على شهادة الماجستير في علوم الحاسب.

توطدت علاقة الصداقة بين حازم وطاهر في السنة الأخيرة من الجامعة؛ حيث جمع بينهما تخصص واحد ثم تبع ذلك ذهابهما إلى كلية ضباط الاحتياط ثم توزيعهما على نفس الوحدة بالقوات البحرية. كان

حازم يعتز بطول شاربه وكان دائمًا ما يتعرض لسخرية طاهر حين يقول له "ولو كان الرجال بالأشنب لكان الصرصور خير الرجال" فكان يرد على صاحبه "إنه شعر قاله أجرودي". استمر حازم في اعتزازه بشاربه حتى أثناء وجوده بكلية ضباط الاحتياط، والغريب أن ذلك لم يلفت نظر إدارة الكلية إلا بعد عدة أسابيع، عندما قرر أحد الضباط معاقبته بل ومعاقبة فصيلته بأكملها بسبب شكل الشارب الذي لم يرُق له. نال حازم ما ناله من سب ولعن من زملاء الفصيلة الذين تسبب في حرمانهم من الراحة وقضائهم ساعتين في تدريبات إضافية شاقة.

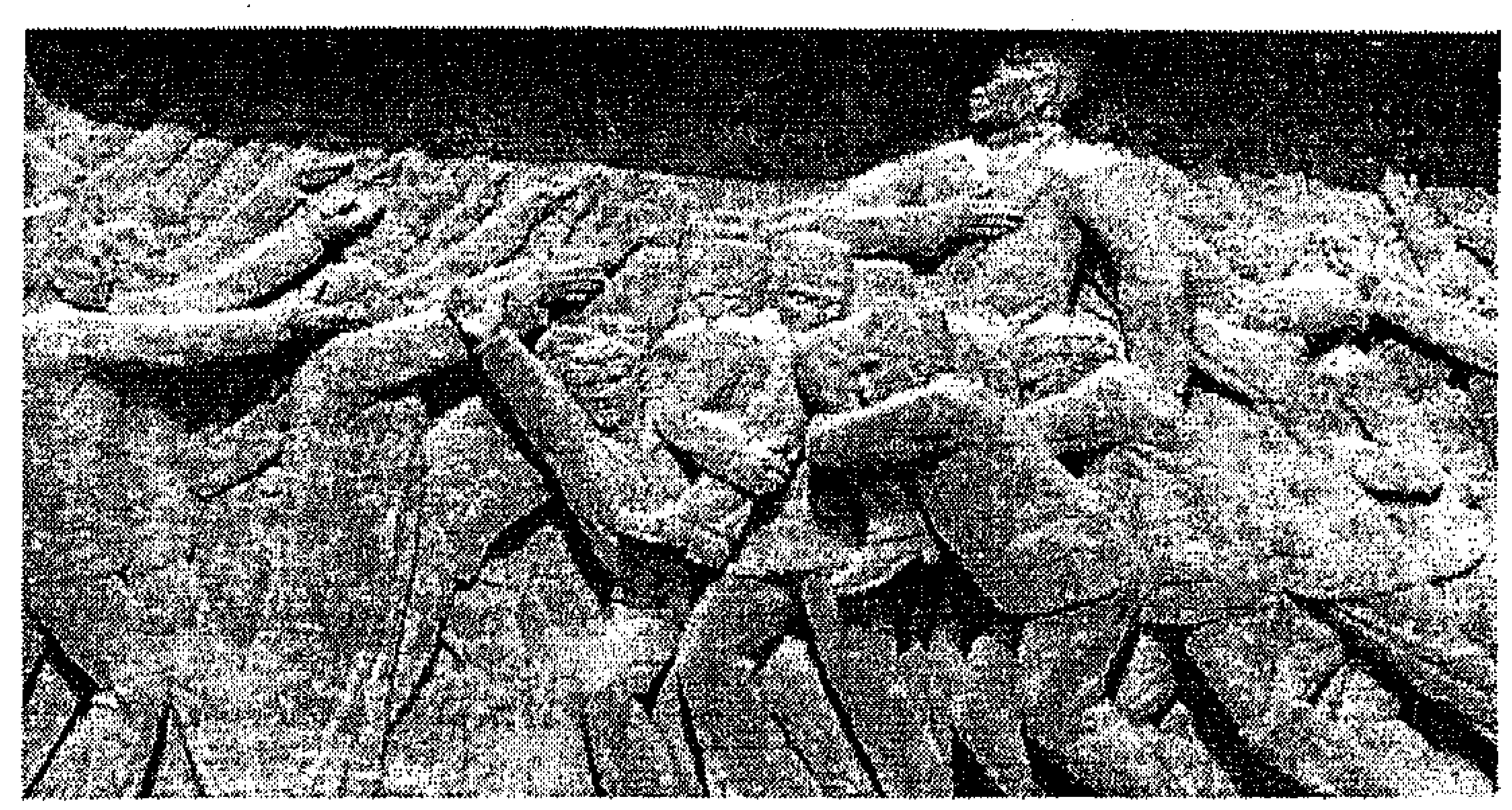
انتقل حازم إلى قاعدة بورسعيد وبقي طاهر بالإسكندرية، ولكنه كان يسافر بين الحين والآخر لقضاء نهاية الأسبوع مع صديقه في بورسعيد؛ حيث يتمتع بأكل السمك والبكلويز ثم يقوم بالتسوق بما تيسر له مما امتلأت به أسواق بورسعيد في أيام الانفتاح الأولى.

عمل حازم معيدًا بكلية الهندسة بإحدى الجامعات بالقاهرة بعد تسريحه من الاحتياط ثم حصل عل منحة دراسية في منتريال فسافر إلى كندا؛ حيث أقام ما يقرب من العام والنصف. لم يسعد حازم في حياته الجديدة ولم يعجبه طابع الحياة الغربي بإيقاعه السريع كان ذلك غير متوقع من شخص مثل حازم قد تلقن العلم في صباه على أيدي الكثير من المدرسين الأجانب في إحدى المدارس الفرنسية بالإسكندرية. أخذ يرسل الخطابات لصديقه طاهر شاكيًا له همه وما يتعرض له من مضايقات من أحد أساتذته اليهود. كان حنينه إلى الوطن شديدًا ولم يهدأ له بال حتى عاد إلى أرض مصر واستقر به المقام في أحد أحياء مصر الجديدة.

جمع صندوق طاهر القديم بين شرين ووجدي وحازم الذين لم يعرف أحدهم الآخر ولم يتقابلوا من قبل ولكنهم أجمعوا على شيء واحد وهو حب الوطن والانتماء إليه. لم يكن ذلك غريبًا بل كان هو الشعور العام لأجيال تتابعت على أرض مصر. فمنذ ما يزيد عن مائة عام قال قائد الحركة الوطنية مصطفى كامل كلماته الخالدة: "لو لم أكن

مصريًا لوددت أن أكون مصريًا". وذلك بالرغم من وقوع مصر تحت وطأة الاحتلال البريطاني في ذلك الوقت إلا أن الشعور بالانتماء لمصر كان شعورًا عارمًا، وكذلك يأتي نشيد "بلادي بلادي لك حبي وفؤادي" مشتقًا من كلمات لمصطفى كامل فيشعل الروح الوطنية مع ألحان سيد درويش. وكذلك نلمس الحب والحنين لمصر مستقرًا في أعماق روح المواطن البسيط في كلمات لبديع خيري لحنها سيد درويش فهز بها المشاعر وسكن في القلوب:

"بلا أمـــيركا بلا أوربـــا ما في شيء أحسن من بلدي، دي المركب اللي بتجيـــب أحســـن من اللي بتـــودي".



لوحة معبرة عن حب الشعب الجارف لقائده – قاعدة تمثال سعد زغلول بمحطة الرمل

أين نحن الآن وقد أصبح الكثير من الشباب يقامرون بحياتهم ويذهبون مع "المركب اللي بتودي"، وهم يعلمون أنهم قد لا يرون أبدًا "المركب اللي بتجيب". أين نحن الآن وقد وصل السخط واليأس بالكثير إلى أن يسبوا بلدهم الذي شرفه الله بذكر اسمه عدة مرات في كتابه المجيد.

لقد شد انتباهي أثناء إحدى إجازتي التي قضيتها مؤخرًا بالأقصر أن كثيرًا من المراكب النيلية لا يرفع علمًا بل وبعضها يرفع أعلامًا أجنبية، فسألت محمود بحار الفلوكة التي كنت قد استأجرتها للذهاب إلى جزيرة

الموز فأخبرني أنه قد يكون لأصحاب إحدى تلك المراكب صديقة أجنبية فإذا أعطته علم بلدها أسرع برفعه على شراعه شاريًا ودها، ولو على حساب انتمائه وانتماء مركبه إلى بلده. تحسرت عند سماعي ذلك وتذكرت مشهد البسفور وبحر مرمارة وقد امتلأ بالسفن صغيرها وكبيرها وقد رفعت كل منها مثنى وثلاث من أعلام تركيا الحمراء..

لقد كان آخر عهدي بالانتماء الوطني الحقيقي في أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣، وللأسف تم إجهاض هذا الشعور قبل أن يتمخض عن نهضة جديدة تدفع مصر إلى الانطلاق وأخذ ذمام المبادرة لبناء حضارتها من جديد. ومنذ ذلك الحين انفلت الخيط وذهب كل يبحث عن ليلاه. هاجر الكثير هربًا من الظلم أو بحثًا عن الرزق وبقي البعض وبرزت له أنيابًا يمص بها دماء الفقراء. وأخذ آخرون يتاجرون بدماء الشهداء أو يدعون إرث العظماء. وهناك المشككون الذين أرادوا قتل الروح الوطنية مدعين أنها تتعارض مع أممية الإسلام ولا أرى في ذلك الرأي إلا جهلًا أو سوء نية، فالبنيان القوي للأمة الإسلامية يبدأ بالأسرة ثم الوطن ثم الأمة. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فقد كان في غزواته يعد فصائل يتكون أفراد كل منها من قبيلة أو عشيرة واحدة فيكون قتالها أقوى وتماسكها أشد.


علم بريطانيا على مركب شراعي بالأقصر

إن إعادة الروح الوطنية البعيدة عن التعصب العنصري هي الخطوة الأولى في استعادة مكانتنا بين الأمم وهي حجر الأساس في انتمائنا مع دول أخرى إلى أمة لا إله إلا الله.

* * *

برنامجي الرئاسي



أخذت أحدِّث زوجتي بأن انتخابات الرئاسة على الأبواب وأخذت أتساءل إن كان من الممكن أن نرى تغيرًا هذه المرة وقد تغير نظام الترشيح ولم يعد حكرًا على شخص واحد.

سمعني ابني، وكان في الرابعة عشرة من عمره، فسألني مداعبًا ألن ترشح نفسك يا أبي؟ فقلت له كم أتمنى أن أمسك بزمام البلاد ولو لفترة قصيرة لأبدأ إصلاحًا جذريًا وأنزع جذور الفساد ولكني لا أظن أنني سأستمر أكثر من عام واحد، ثم أقتل بواسطة المفسدين من داخل البلاد أو بواسطة عملاء لأعدائنا في الخارج. ضحك ابني وقال لي لا أظن أنك ستبقى إلا بضعة أيام على الأكثر! فقد يحتاج الناس لأشهر حتى يكتشفون ما تنوي فعله ولكني أعلم ذلك من الآن فسأقوم أنا بقتلك بعد وصولك للحكم مباشرة. واستطرد قائلًا إني أعلم أنك ستمنع الغناء وعرض الأفلام ولن تترك لنا وسيلة للتسلية. فضحكت وقلت له لا لا يا ولدي لا يأتي الإصلاح هكذا أبدًا فأنا أنوي أن أبدأ بإصلاح النفوس أولًا ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

أخذت أشرح له وجهة نظري بأني أرى أن بلدنا الحبيب قد وصل إلى حال متقدم من المرض وما أشبهه بمصاب وصل إلى المستشفى في سيارة إسعاف وهو ينزف دمًا ولا يستطيع الكلام ولا قدرة له على الحركة. فإذا استقبله طبيب على باب المستشفى وأخبر أهله أنه سيشفى في خلال بضعة أيام فماذا يكون رد فعل أهل المصاب. قد يسرهم ذلك لو كانوا من الجهال أو من البلهاء، ولكنهم سوف ينصرفون عن هذا الطبيب ويبحثون عن آخر إن كانوا من العقلاء. مثل ذلك الطبيب إما أن يكون جاهلًا ولا علم له بالطب وإما أن يكون دجالًا، وهذا هو الأرجح، ويريد أن يستغل البسطاء ويكسب من وراء خداعهم بالوعود والأوهام.

أما الطبيب الأمين المتمرس فسوف يقوم بتعقيم يديه ثم يبدأ فورًا بعمل ما يستطيع لوقف النزيف، وقد يعطي المريض بعض المسكنات ثم يستدعي المتخصصين في مختلف أفرع الطب من الجراحة والعظام والمخ والأعصاب والقلب والمسالك البولية وغيرها إن لزم الأمر. ثم يقوم كل أخصائي بإجراء التحاليل اللازمة التي تساعده إلى الوصول للتشخيص السليم. بعد ذلك فقط يبدأ العلاج الفعلي للمريض وبالطبع لا يكون العلاج فعالًا إلا بوجود فريق تمريض محترف ووجود تعاون بين كل الأخصائيين حتى يتناسق العلاج.

هذا لو كان المريض إنسانًا فما بالك لو كان المريض أمة قد تراكمت عليها العلل منذ وفاة محمد على في عام ١٨٤٩. للأسف فإن أغلب الساعين إلى كرسي الرئاسة، سواءً كانوا من الحزب الحاكم أو من أحزاب المعارضة الهزيلة، يتحدثون أثناء حملاتهم الانتخابية وكأنهم يحملون عصا موسى التي سيقضون بها على مشاكل البلاد فتزدهر حياة العباد وتختفي البطالة وتحل العدالة مكان الفساد وذلك في بضع سنين. ولكن هيهات هيهات فهذا هو موقف طبيبنا الأول الذي وصفناه بالجهل والدجل.

فما هو إذن برنامجي أنا إن وجدت نفسي في هذا المكان؟ في البداية يجب أن أعلن الأمر واضحًا للجميع بأنني لا أحمل عصًا كعصا موسى عليه السلام ولا تُنَزَّل علي مائدة من السماء كما أنزلت على عيسى عليه السلام، ولذلك فإنه لا يمكن التقدم خطوة واحدة إلا بالعمل الجماعي مهما كان لدي الرئيس من الحكمة والإلماحية. فيجب التأكد من وجود أكبر قدر من الأكفاء النزهاء في مواقع القيادة بالوزارات ومواقع المسؤلية العليا ولتكن قدوتنا في ذلك هي بنت شيخ مدين حين قالت لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ .

وبعد ذلك تأتي الخطوة الأولى، كما يفعل الطبيب، ألا وهي التأكد من التعقيم من الجراثيم وفي اعتقادي أن أخطر الجراثيم التي تحيط بالحاكم هي جرثومة النفاق. ولولا أن حرم الله القتل لجمعت كل المنافقين الذين يتسابقون إلى تهنئة الرئيس الجديد والذم فيمن سبقه وجعلت لهم مذبحة تفوق ما ذكره المأرخون عن مذبحة المماليك بالقلعة. ولكن قد يكفينا إبعادهم عن كل ما له علاقة بالحكم وشئونه والحذر منهم.

وتجيء الخطوة الثانية بالتحرك السريع مع فريق العمل الأمين لوقف ما يمكن وقفه من النزيف. إنه نزيف القيم والأخلاق ونزيف المال والموارد، وكذلك نزيف المهدور من طاقات الأمة. وكما ذكرت من قبل أننا في هذه المرحلة الأولية لا نهدف بل ولا نستطيع إيقافًا كليًا للنزيف؛ لأن ذلك لا يأتي إلا بعد التشخيص والعلاج. فيمكننا في هذه المرحلة مثلًا أن نحد من انتشار الأغاني والإعلانات التي تحث على الكذب والغش والفجور. فيالعجبي من إعلان في الإذاعة يدعوك لتسجيل أصوات خلفية على هاتفك المحمول كي تضلل من تريد التهرب منه وتوهمه أنك مثلًا في وسط المدرجات تشاهد مباراة للكرة. وإعلان في التلفاز يشرح لك كيف تستطيع الحصول على عدة خطوط تليفونية كي تخدع أكبر عدد من الفتيات دون أن يكتشفن غشك. وآخر يدعوك لاستعمال أحد العطور لتجذب الفتيات فتقوم إحداهن بممارسة الرذيلة معك أثناء تواجدكما في المصعد. أليس هذا استنزافًا لما لدينا من حياء وقيم؟ ولنلتفت إلى نزيف المال والموارد وندعم أجهزة الرقابة المالية ونسرع من إنهاء المنازعات القضائية ونجعل ممن يثبت جرمه عبرة للجميع. أما عن طاقات الأمة المهدورة فكم من وقتنا يضيع بسبب الزحام والفوضى في الشوارع وأثناء البحث عن مكان في مواقف السيارات. كم من وقتنا يضيع في المقاهي وفي التسكع في مراكز التسوق بلا هدف. يمكن الحد من النزيف

بقرارات سريعة فمثلًا بمنع سيارات النقل من السير إلا في الحارات اليمنى من الطرق السريعة ونترك الجانب الأيسر لتسهيل حركة سيارات الركاب. ويمكننا أن نحدد مواعيد لإغلاق المراكز التجارية والمقاهي ودور اللهو فنوفر طاقاتنا البشرية ونحد من استهلاك الكهرباء.

وبعد الاطمئنان إلى التحكم النسبي في النزيف نخطو خطوتنا الثالثة والأهم ألا وهي التشخيص. يجب ألا نتعجل بالعلاج وأن نعطي مرحلة التشخيص قدر ما تستحق من وقت ودقة وأمانة. فلنبدأ بتشكيل فرق للدراسة والبحث من أعلى مستويات المتخصصين من أهل العلم وأصحاب الخبرات والمطلعين على الأساليب الحديثة المتبعة في الدول المتقدمة. يجب ألا تقتصر هذه الفرق فقط على خبراء متخصصين في المجال نفسه بل قد تضم إلى جانب هذا خبراء اجتماعيين ونفسيين وسياسيين إذا لزم الأمر. وسوف أسوق فيما يلي أمثلة للمجالات الهامة التي يجب أن توضع في صدارة أولويات البحث والتحليل.

إعادة الانتماء

إن الله بحكمته قد عاقب من كفر وطغى من أهل مصر، فأغرق فرعون وجنده وخسف الأرض بقارون، ولكنه سبحانه لم يهلك البلد بأسره كما فعل مع عاد وثمود. ومما يأسف له أن نسمع البعضَ في زمننا هذا بسبب وبغير سبب يسب ويلعن البلد. الحقيقة أنني لم أرَ في حياتي شعبًا آخر قد خرج منه من يسب بلده فهذا مثلًا لبنان الذي أثخنته الجروح وقد خرج من شيعته من يشتم حكومته ومن دروزه من يلعن شيعته ومن مارونه من يتهم سنته ولكن لم يخرج من بينهم من يسب لبنان. فماذا أصابنا، هل وصل الحال بنا إلى منتهاه.

إن ترك لغتنا العربية والارتماء في أحضان الإنجليزية هو أيضا أحد

مظاهر الضياع الناتج عن فقدان الهوية وعدم الانتماء. لقد مرت علينا عشرات الأعوام ونحن نبعد عن العربية مدعين أن الإنجليزية هي ضرورة للحاق بركب التقدم والحضارة، ولكن ما أثبته الواقع أننا ازددنا تخلفًا وبعدًا عن التقدم. ألم يحن لنا بعد أن نعود إلى لغتنا ونرفع شأننا بها بدلا من أن نحقر مقامها بجهلنا.

إني أرى أنه لا بد من أن نضع إعادة الانتماء إلى الوطن واللغة في أعلى مرتبة من أولوياتنا؛ لأنه بدون ذلك لا تخلص النوايا ولا يبذل الجهد من أجل الإصلاح المنشود.

وضوح الهدف

لا يمكن لفرد أو لجماعة أن تتقدم خطوة إلى الأمام إلا إذا كان لها هدف ويقاس النجاح بقدر الاقتراب من هذا الهدف. لقد كان الهدف هو التحرر من الاحتلال البريطاني في زمن مصطفى كامل وسعد زغلول وكان هدف طلعت حرب واضحًا عندما خطا خطوات عظيمة لبناء اقتصاد قوي. وكان الهدف واضحًا عندما تصدت مصر للعدوان الثلاثي وأنشدت "وإن فنيت سوف أفنيه معي" وكذلك تحدى الشعب كل المعوقات وغني "قولنا حنبني وأدي إحنا بنينا السد العالي"، ثم كان الهدف واضحًا وضوح الشمس حين قررت الأمة أن تخرج من محنتها وتبني جيشًا هدمت به خط بارليف وأنهت الأسطورة التي بناها عدوها. وللأسف فبدلًا من أن تنطلق الأمة لتحقيق أهداف كبيرة بعد ذلك الحدث العظيم فقد أخذ يبهت هدفها ثم توارى حتى اختفى تمامًا من ذهن كل فرد في المجتمع وحلت محله أهداف فردية ضئيلة القيمة.

إعادة العزة والثقة في النفس

من الأشياء الغريبة التي تلفت نظر كل مسافر بالجو إلى مصر أنه

عند ملامسة عجلات الطائرة لأرض المطار وقبل توقفها يقوم الكثير من الركاب المصريين من أماكنهم ويبدءون في إنزال حقائبهم من أرفف التخزين ضاربين عرض الحائط بصراخ المضيفين والمضيفات وبكل تعليمات السلامة. نظرت مرارًا إلى هذه الظاهرة التي لم أرها خلال المئات من سفرياتي إلى دول أوربا وأمريكا وبين دول الخليج العربي بل وإلى دول مثل الهند وسريلانكا، ومما يزيد من عجبي أن أحدهم لن يستطيع الخروج من الطائرة إلا إذا توقفت وفتحت أبوابها. إن تفسيري لهذا التصرف الغريب، هو أنه رد فعل نتج من تراكمات خلال عشرات السنين داخل نفس المواطن المصري أدت إلى شعوره بعدم الأمان وعدم الاطمئنان على حصوله على أبسط حقوقه إلا إذا اندفع وانتزعها قبل أن يسبقه الآخرون. إنه شعور بعدم الثقة فيمن حوله بل وفي نفسه أيضًا.

كذلك مما يلفت النظر فقدان البعض للشعور بالعزة والرضى بالمهانة ولو بأرخص الأثمان. وقد قام الإعلام بتمرير هذه الأفكار وترسيخها في عقول الشعب. ففي كثير من الأفلام والمسرحيات نرى الأسطى أو صاحب المقهى يضرب صبيه على قفاه. كذلك أجد عسكري الشرطة يظهر في صورة شخص ساذج بل وأبله في كثير من تمثيلياتنا وفي بعض الأحيان يظهر وكأنه خادم يقدم فنجانًا من القهوة للضابط، وفي المقابل نرى الأفلام الأمريكية تمجد الشرطي وتجعل منه بطلًا يتمتع بشجاعة وذكاء أسطوري. إن هذه الأفكار ترخص من كرامة الأفراد وتفقدهم الشعور بالاحترام داخل أنفسهم، وبالتالي قد تمتد يدهم لتقبل الرشوى مهما حقرت قيمتها.

رفع المعاناة عن كاهل الشعب

لقد سمعت إحدى الطرائف تحكي حكاية ملك بلغ من العمر ما بلغ

وخاف أن يفاجئه الموت بغتة دون أن يطمئن على أن ابنه قادر على تسيير أمور مملكته من بعده فأحضر صندوقًا به ما يزيد عن العشرين كتكوتًا وطلب من ابنه أن يطلق الكتاكيت، ويثبت له أنه يستطيع جمعهم مرة أخرى فابتسم الابن وظن أن الأمر هين ففتح الصندوق، فانطلقت منه الكتاكيت في كل اتجاه ولم يستطع جمعهم إلا بعد أن أخذ يجري وراءهم أكثر من ساعة من الزمن. نظر إليه الملك معاتبًا ثم أمره أن ينظر ويتعلم منه فأمسك بالصندوق وأخذ يهزه مرارًا ثم فتحه وقذف بالكتاكيت خارجه فلم يبعدوا عنه إلا خطوة أو خطوتين فجمعهم ووضعهم داخله في بضع دقائق. وكانت حكمة الملك لابنه أنه يجب إرهاق الكتاكيت كي تستطيع السيطرة عليهم. أدرك ولي العهد أن هذا هو النهج الظالم الذي يجب اتباعه مع شعبه.

بالطبع فإني لا أوافق هذا الملك في أسلوبه وطريقة إدارته لشئون شعبه وكأنهم حفنة من العبيد المارقين. لا يمكن أن يزداد إنتاج الشعب وتزدهر قدراته الإبداعية، إلا إذا تهيأت له سبل الراحة في إنجاز مهامه الضرورية. فمن الغريب أن تفرض علينا المعاناة ويهدر وقتنا عند الرغبة في إنجاز معاملات مثل تجديد رخصة القيادة أو استخراج توكيل من الشهر العقاري في حين أنه من الممكن جدًا تنظيم هذه الإجراءات لإراحة الموظف والجمهور. من الممكن تركيب مكيفات الهواء وشراء مكاتب ذات مظهر مقبول للموظفين وتركيب آلات النداء بالأرقام كي يضمن كل متعامل دوره من غير تزاحم وتدافع. إن المتردد على هذه الأماكن لن يضيره دفع جنيه أو جنيهين إضافيين على الرسوم كي يتمتع بهذه المميزات، ولكي ينجز معاملته في سهولة ويسر وباحترام كامل لآدميته وبدون اللجوء إلى دفع الرشاوي والإكراميات.

لقد رأيت بنفسي الموظفين عندما ذهبت لدفع فاتورة الكهرباء بالعامرية، وهم يتقاسمون نفس الكرسي الخيزران في بدروم تسببت

الرطوبة في ظهور العفن على حوائطه، وقد لجأ أحد المحصلين إلى المقهى المجاور وجعل من أحد أركانه مكتبًا له يستقبل فيه الجمهور. لا أستطيع أن ألوم هؤلاء الموظفين إن أساءوا معاملة الجمهور ولا أستطيع أن ألوم ذلك الموظف إن مد يده وأخذ أجرة إضافية ليغطي بها حساباته مع المقهى. وقد أسعدني في إحدى المرات أن أجد أن الهيئة قد أتمت بناء مبنى جديدًا ونقلت إليه موظفيها ولكن ما أحزنني أن تصميم المبني هو نفس التصميم الذي كانت تبنى عليه المباني في أوائل الستينات من القرن الماضي؛ حيث تحشر كل مجموعة من الموظفين في حجرة واحدة لها باب والغريب أن مصمم المبنى لم يدرك ما تطورت إليه تصميمات المكاتب في الشركات والبنوك الحديثة التي تتعامل مع الجمهور وتجلس موظفيها في أماكن واسعة بلا حوائط لتوفر الراحة للطرفين.

العمل الجماعي

لاحظت أثناء عملي مع الكثير من الزملاء الأوربيين والأمريكيين أنهم يستطيعون العمل في مجموعات بتناسق وتوافق وبدون الوقوع في مصادمات بعكس ما يحدث كثيرًا، حين تعمل مجموعات من المصريين أو العرب بصفة عامة، فيتم الخلط بين أهداف العمل والأهداف الشخصية وبدلًا من توفيق الآراء المختلفة فكثيرًا ما ينقلب الأمر إلى تحديات ومشاحنات يضيع معها الوقت وتتبدد الطاقات. وفي كثير من الأحيان أجد البعض يتبع ما يسمى "ثقافة الكابوريا"، وقد يتاح لك مراقبة ذلك بنفسك إذا وضعت عددًا من الكابوريا في إناء فبعد القليل من الوقت قد تجد إحدى النشيطات المجتهدات تتسلق جدار الإناء محاولة الفرار من التحول إلى وجبة شهية، ولكن للأسف لا تمضي إلا بضع ثوان، فتسرع واحدة أو أكثر من زميلاتها لتمسك بها بواسطة كلاباتها القوية، فيتسبب ذلك في إسقاطها إلى قاع الإناء.

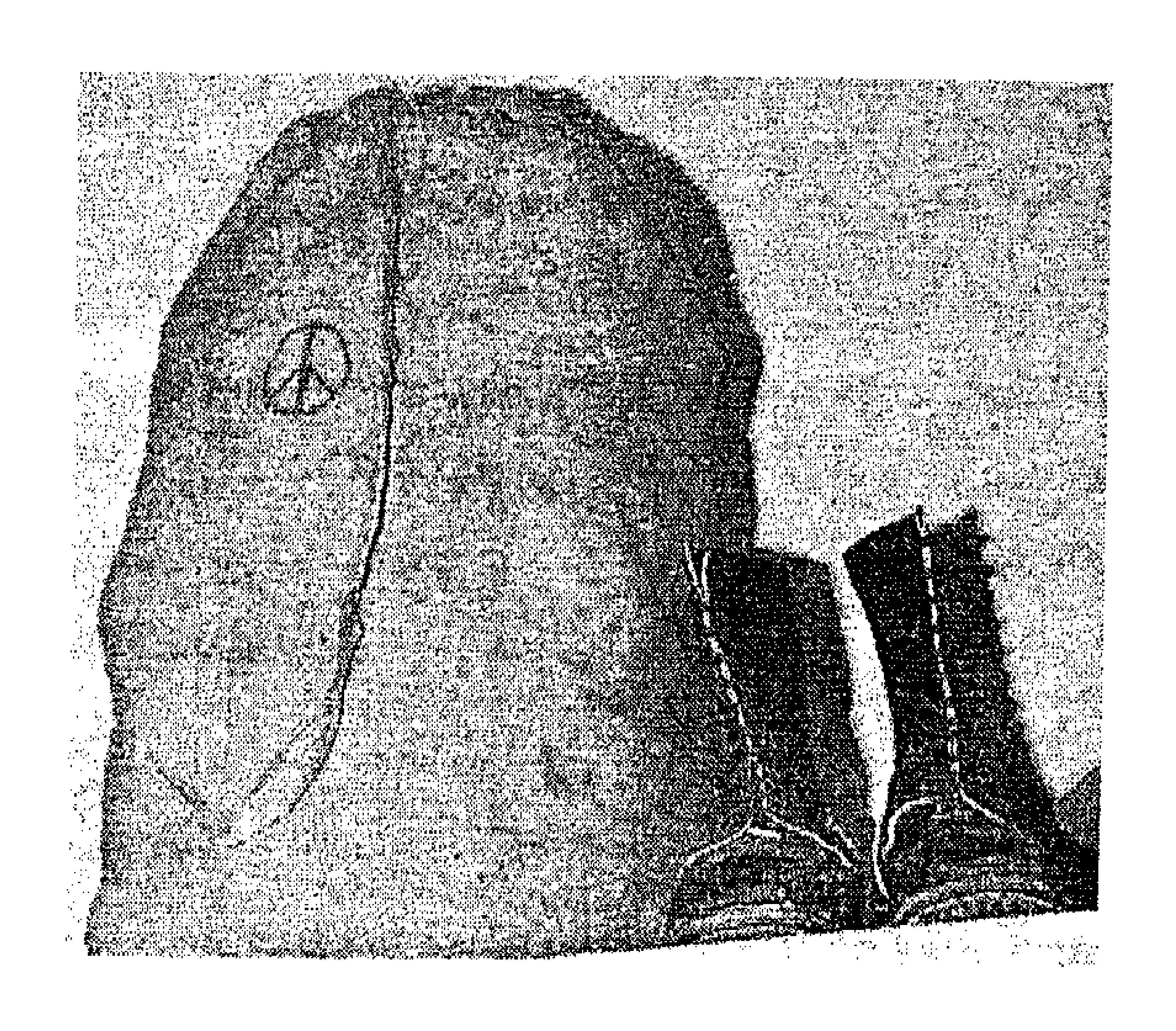
إن إتقان العمل الجماعي لهو ضرورة لا غنى عنها لرفع مستوى الناتج القومي على جميع المستويات. وعادة ما يبدأ ذلك على مستوى الأسرة ثم الجوار، وهكذا حتى يصل إلى التعاون بين رئاسة الدولة ووزرائها. ولكن مما لا شك فيه أن هذا السلوك لا يأتي على سبيل الصدفة، بل يأتي بالتعليم والتدريب وهنا يكون دور المدرسة والجامع والكنيسة والإعلام أساسيًا لغرس هذه الروح فينا منذ نعومة أظفارنا كي نعمل معًا في مجموعات متكاملة تقود عجلة الإنتاج في أنحاء البلاد.

إصلاح التعليم والإعلام والبحث العلمي والاقتصاد والأمن القومي والسياسة الخارجية والوضع العسكري والأمن الغذائي

قد تأخذ هذه الإصلاحات الأولوية في برامج أغلب المرشحين للرئاسة، وقد يكون ذلك لاجتذاب أصوات الناخبين أو بسبب عدم الدراية والخبرة. أما في رأيي فإن الانهيار في هذه المجالات قد حدث كنتيجة مباشرة أو غير مباشرة لعدم الانتماء وعدم وضوح الهدف وضياع العزة والثقة بالنفس والوقوع تحت ضغوط المعاناة اليومية، وكذلك بسبب عدم التدرب على العمل الجماعي. فإذا بدأنا بإصلاح تلك المجالات انصلح حال الأمة، وبالتالي زالت الكثير من المعوقات من المجالات الأخرى، ويأتي دورنا بعد ذلك لإكمال الإصلاحات المطلوبة بطريقة منهجية متخصصة.

وفي اعتقادي أن مهمتي كرئيس قد تنتهي عند هذا الحد. مهمتي تنتهي بإيقاف النزيف وترك تقارير تتضمن التشخيص الدقيق لأمراض الأمة بناء على الدراسات والتحاليل. عند ذلك سوف أترك الأمانة لمن هم أقدر مني وأكثر تخصصًا في مجالات العلاج المختلفة على أن تتضمن برامجهم الانتخابية أهدافًا واضحة وخطوات صادقة.

فرق تسد



مرت الساعات على طاهر بطيئة ومر الليل باردًا ثقيلًا، ثم أشرقت شمس اليوم التالي وانتصفت في السماء قبل أن يصل القطار المتلكئ، بعرباته التي يزيد عددها عن خمس عشرة عربة، إلى هدفه الأخير. توقف بمحطة صغيرة بأعالي الصعيد هي محطة إسنا بعد رحلة كانت الأشق في حياته. كان كل شيء حوله يبدو غريبًا فلقد كانت أول مرة يضع فيها قدماه على هذه البقعة من أرض صعيدنا العلوي.

حمل حمله الثقيل.. وضع المخلة على كتفه وحمل بيده حقيبة جمع بها ما هو ضروري من الأمتعة وبعض المأكولات الخفيفة. سار مع السائرين وعبر قنطرة صغيرة إلى حيث توقفوا تحت ظل الأشجار في انتظار العربات التي ستحملهم إلى ذلك المكان المجهول الذي طالما تحدث عنه سابقوهم وعما لقوا فيه من العذاب والأهوال بعيدًا عن مظاهر المدنية بين أحضان الجبال وتحت وطأة الأوامر العسكرية الصارمة.

وجد نفسه محشورًا مع غيره في إحدى عربات النقل العسكري اختلط فيها الفتية بالمخل والحقائب. كانت العربة تسير مسرعة على طريق ضيق يمتد بين مزارع الكركديه، ونخيل الدوم المتفرقة وسط صحراء واسعة يبدو في أفقها البعيد سلسلة من الجبال الشامخة لا تقترب منهم مهما سارت العربة وقطعت المسافات في اتجاهها. أجهدهم اهتزاز العربة الذي كان يسبب تخبط الأجساد ببعضها وبالأمتعة المكدسة من حولهم ومن تحتهم. لم يكن شعوره واضحًا، فلم يكن متشائمًا في تلك اللحظات، ولكنه كان منشغلًا في التفكير فيما ينتظره في نهاية هذا الطريق الملتوي الذي لا تبدو له نهاية.

بعد حوالي الساعة نزل الجميع من العربات ووقفوا أمام منصة مقامة وسط الصحراء وترتفع عن الأرض بما يقارب المترين، وكانت تبدو من

خلفها بعض المزارع الخضراء. كان يقف على المنصة بعض الضباط الذين أمروا بتقسيم الطلبة المستجدين وتوزيعهم على السرايا والفصائل المختلفة. وكان نصيب طاهر اللحاق بالفصيلة السادسة، ومن ثم تم انتقاله إلى القرية الثانية التي علم فيما بعد بأنها أقل القرى حظًا أو بالأصح أكثرهن في قلة الحظ.

عند وصول المجموعة إلى القرية تم ترتيبهم في صفوف بناء على مكان دراستهم، فأمر خريجي جامعات ومعاهد القاهرة بالوقوف في صف وخريجي الإسكندرية في صف آخر، وهكذا بالنسبة لكل المحافظات الأخرى. ثم تم بعد ذلك اختيار أحد خريجي الهندسة من أحد الصفوف مع أحد خريجي التجارة من صف آخر مع أحد خريجي معهد زراعي من صف ثالث، وهكذا تم عشوائيًا تجميع عدد من الأشخاص كل منهم قد أتى من بلدة مختلفة ودرس دراسة لا تمت بصلة بما درسه الآخرون. وتم توزيع كل مجموعة على غرفة من غرف إحدى الفلل.

كانت القرية مكونة من عدة بيوت، يطلق عليها فلل، ويتكون كل بيت من حوش به غرفتان مستقلتان لكل منهما باب يفتح على الحوش، بالإضافة لغرفة أخرى بدون باب. وقد سمع طاهر ممن سبقه إلى هذا المكان أن هذه البيوت كانت قد أعدت لتهجير بعض أهالي الصعيد الذين غرقت بيوتهم بعد بناء السد العالي ولكنهم رفضوا الهجرة إليها. كان يطلق على الغرفة المفتوحة لفظ "الميز"، وكانت تستخدم كمكان يأكل فيه سكان الفلة من طلبة الكلية مع العلم أنها قد صممت في الأصل كمكان لمبيت الماشية.

لم تكن القرية خالية فقد سبقتهم دفعة من الطلبة في الوصول إلى المكان، واستقرت في القرى الست وهكذا استقر بعض الطلبة من قبلهم في الغرف التي وزعوا عليها. وجد نفسه مع خمسة أشخاص آخرين في

غرفة صغيرة قد شُغلت أغلب مساحتها بأسرة ثلاث لكل منها طابقين. ووضعت ستة خزانات في جوانب الغرفة، ولم يتبقَ إلا القليل من الفراغ كي يتحرك فيه ستة أشخاص.

كانت نظرية "فرق تسد" هي المسيطرة على تفكير المسئولين عن هذا التوزيع. فكان الخطر كل الخطر هو جمع المعارف والأصدقاء في سكن واحد. بل إنهم لم يسمحوا بوضع من تجمعهم صفات مشتركة ناتجة عن وحدة المنشأ أو تشابه الفكر الناتج عن تماثل الدراسة في نفس السكن. وبالرغم من ذلك فقد فوجئ طاهر بوجود عمرو وهو أحد زملاء الدراسة في نفس الغرفة. وصل عمرو مع الدفعة التي سبقتهم بأسبوع. كان إنسانًا مهذبًا ومنظمًا ودقيقًا في كل شيء حتى إن حجمه كان أيضًا دقيقًا فقد كان نحيفًا وكان طوله أقل من المتوسط. أما الأربعة الآخرون من زملاء الغرفة فكانوا فوزي ومحمود وسعد وسامي. كان لكل منهم شخصية تختلف عن الآخر اختلافًا جذريًا وقد احتاج طاهر إلى بعض الوقت ليتفهم كل منهم.

كان فوزي شابًا طويل القامة نحيف القوام من مواليد السويس ولكنه قضى سبع سنوات من عمره بعيدًا عن مدينته بسبب التهجير أثناء حرب الاستنزاف. تخرج من أحد المعاهد الفنية بحلوان ثم التحق بالخدمة العسكرية فور تخرجه. كان لا يستطيع أن يلفظ جملة واحدة دون أن تحتوي على كلمة أو أكثر من الكلمات البذيئة. تجنب طاهر في البداية الكلام معه إلا في أضيق الحدود حتى نجح في أن يقيم حاجزًا أدبيًا بينهما يمنع فوزي من أن يتعدى حدود اللياقة معه. وبمرور الأيام اكتشف طاهر شخصية فوزي الحقيقية، فبالرغم من بذاءة اللسان والتعدي في بعض الأحيان على حقوق الآخرين فلم يكن خبيثًا ولا حاسدًا حقودًا، بل كان ذا قلب صاف يحمل داخله الكثير من صفات المروءة والشهامة ولكنها لم تكن تظهر إلا عندما تكون الظروف مواتية. أما

محمود فكان أطول من المتوسط وله شارب كثيف درس التجارة في بلدته شبين بمحافظة المنوفية. قد يغرك مظهره فتثق به من أول وهلة. كان يبدو جادًا ووسيمًا ولكن بالمعاشرة اكتشف طاهر في شخصيته الكثير من الصفات التي تدعوه إلى الحذر منه. وأما سعد فكان سمينًا يميل وجهه إلى الحمرة وكان يزداد احمرارًا عند الانفعال سواء بالضحك أو بالغضب فيبدو وكأن الدماء ستتفجر منه، ولذلك أطلق عليه فوزي لقب "الفحل الأحمر". كانت شخصيته تتميز بالطابع الريفي. درس الزراعة في أحد معاهد منوف التي لا تبعد كثيرًا عن القرية التي نشأ بها. أما سامي فكان إنسانًا طيب القلب وكان له أسلوب ساخر يهون به على نفسه ما يلاقيه من صعوبة الحياة وقهر الأيام والبعد عن الحبيب ولؤم الصحبة. تعلم في معهد زراعي بالزقازيق، وعاش مع أهله حياة سهلة ميسرة ينعم فيها بأكل ما طاب من البط والأوز والمشلتت. لم يكن طويل القامة ولكن من المؤكد أنه كان أطول من عمرو.

كانت المياه بخزان القرية الثانية أكثر ملوحة بكثير من مياه خزانات القرية الرئيسية. كان لكل طالب زمزمية يملؤها ويستعمل ماءها في الشرب والأغراض الشخصية الأخرى، وكلما فرغت يذهب في أوقات الراحة ويملؤها من خزان المياه الخاص بالقرية. أحضر عمرو وعاء يكفي لملء حوالي ست زمزميات واقترح على زملاء الحجرة أن يتناوبوا على ملئه من القرية الرئيسية التي تبعد عنهم بمسافة تزيد عن الألف متر. سخر منه محمود وسعد وفوزي فاتجه إلى طاهر، وعرض عليه أن يقتصر الاتفاق عليهما. بدأ بنفسه فملأ الوعاء بالمياه الحلوة، ثم قام بوضعه داخل خزانته وأقفل بابها بقفل صغير. في اليوم التالي وأثناء وجود عمرو خارج الغرفة لقضاء حاجة له قفز فوزي من على سريره وأحضر مسمارًا وأخذ كلص محترف يعبث بالقفل الخاص بعمرو حتى استطاع فتحه ثم أخرج وعاء الماء وملأ زمزميته ثم ناوله لمحمود وسعد فملأ كل منهما زمزميته وهما

يضحكان، وعندما عرض فوزي الماء على كل من طاهر وسامي رفضا ذلك ووبخاه لأنهما لا يقبلان ماءً مسروقًا.

عند المساء احتاج عمرو لبعض الماء ففتح خزانته ولكنه فوجئ بنقصان الماء، فأخذ يحدث نفسه ثم واجه الآخرين فأنكروا وسخروا منه ثم انقلب الأمر إلى مشادة لم تنتهِ إلا بتدخل من طاهر وسامي. فكر طاهر في أمر زملائه وحدث نفسه بأن إدارة الكلية قد أتت بالعشرات من الضباط وصف الضباط المحترفين ليغيروا من بعض سلوكيات الطلبة الظاهرة في مدة قدرها خمسة أشهر، فكيف يستطيع هو أو عمرو أن يصلحوا ما بداخل نفوس هؤلاء في بضعة أيام. إن مروض النمور يقوم بتعليمهم كيف يلعبون معه دون أن يفترسوه، ولكنه لا يستطيع أن يغير ما فطروا عليه فيأمرهم بأكل أوراق الشجر والعزوف عن أكل اللحوم. وعلى قناعة بذلك عقد طاهر العزم على أن يكتفي بترويض الزملاء على ألا يكسروا حاجز الأدب والاحترام بينه وبينهم دون أن ينصب نفسه واعظًا للرقي بأخلاقهم ولإصلاح سلوكياتهم المنحرفة. لذلك فقد قرر أن يرجع عن اتفاقه مع عمرو، وأن يتعود على شرب الماء المالح المتوفر بقريتهم تجنبًا للدخول في صراع يومي مع الزملاء الثلاثة.

بين الحين والآخر كان سعد يندمج في تذكر حياته المدنية، ويسترسل في سرد القصص لزملاء الغرفة عن أيامه التي عاشها في قريته، ويصور لهم الثراء الذي تعيشه أسرته، وكيف أن جده يملك مزرعة ضخمة ويستخدم التكنولوجيا الحديثة في ريها، ثم يأخذ في وصف طلمبة المياه الضخمة التي تشفط الماء من الترعة وتتركها جافة. هكذا كان يصل سعد إلى أبعد الحدود في رواياته التي كان يعتقد كل السامعين أنها نسج من خياله أو على أفضل الأحوال خلط بين الواقع والخيال. وعند هذا الحد يقطع فوزي الحديث بعطاس حاد متواصل. لم يدرك سعد المغزى في أول مرة عطس فيها فوزي ولكن عندما تكرر الموقف عند كل رواية

وعندما رأى الابتسامات ثم الضحكات تتوالى من باقي الزملاء أدرك أن فوزي يتعمد السخرية منه. تعود الجميع على نفس النهج في كل مرة يبدأ فيها سعد بالحديث، ثم يصل إلى قمة الإثارة في حكايته فيتبع ذلك عطسًا من فوزي فضحك من الجميع فسب من سعد الذي يحمر وجهه فيتبع ذلك سيل من السب واللعن وكل ألوان البذاءة تندفع بلا انقطاع من فم فوزي ثم يتدخل الآخرين لفض الاشتباك قبل وقوعه. كان الجميع يدركون أن تطور أي خلاف قد يودي بهم جميعًا إلى عقاب شديد من إدارة الكلية قد يصل إلى الحبس لبضعة أيام.

كان سعد يعاني من بعض الآلام في معدته، فقام طبيب العيادة بتحويله للكشف في مستشفى قنا. كان من المعلوم للجميع أن الحياة في قنا تفتقر كثيرًا للتحضر ولا يوجد بها إلا قدر ضئيل من وسائل الرفاهية، وبالرغم من ذلك فقد حسدوه على تغيبه لمدة اثنتى عشرة ساعة عن التدريب الشاق وعلى ما تسنى له من ركوب القطار ورؤية الحياة المدنية في مدينة قنا وحول الطريق ذهابًا وإيابًا. عاد الزملاء إلى الغرفة مساء فوجدوا سعد وقد مدد جسمه على سريره، وبعدما رد عليهم التحية أخذ يحكي عما رآه وأكله في رحلته. ومن الغريب في الأمر أنه أخذ بعد ذلك في التحدث عن مغامراته النسائية التي قام بها في قنا، وأخذ يسترسل في حديث قد يظن من يسمعه أن الرجل قد عاد للتو من باريس فإذا بعطسة مدوية تصدر من فوزي، فيحمر وجه سعد وتتكرر الأحداث بنفس الأسلوب المعتاد.

أخذ عمرو في تقسيم اللحم المسلوق إلى عشرة أكوام متساوية. كان نصيب الفيلا يسلم إليها كقطعتين أو ثلاث قطع كبيرة بما تحويه من عظام. تطوع عمرو بالقيام يوميًا بهذا العمل ورضى بقسمته زملاء السكن التسعة لدقته في عمله ولارتياحهم لأمانته، ثم إنه لم يكن لأحد منهم أي تحفظ على نظافته الشخصية. وأصبحت مهمة يومية يقوم

بها عند توزيع طعام الغداء. كان محمود يرقبه في ذلك اليوم ثم صرخ عندما انتهى عمرو من عمله "تعالوا وانظروا ما يفعله هذا الذي ظنناه تقيًا وأمينًا فإذا به يخدعنا ويسرق طعامنا" نظر إليه الجميع، فأخذ يشرح لهم محمود كيف أن عمرو يقوم بعمل إحدى عشرة كومة بدلًا من عشرة ثم ينتظر للنهاية ويأخذ نصيبه بعد أن يأخذ الجميع، وبذلك يحصل على نصيبين بدلًا من نصيب واحد. نفى عمرو عن نفسه التهمة بشدة، وعلل ذلك بأنه خطأ لم يحدث من قبل. ووجد نفسه في موضع المدافع الضعيف. لو أراد محمود التأكد من أمانة عمرو لكتم الأمر ثم راقبه دون أن يدري ليرى كم كومة سيأخذ لنفسه ثم يقوم بفضحه إن ثبتت التهمة. لم يوافق طاهر وسامي على توجيه التهمة جزافًا ولكن مما لا شك فيه أن ذلك سبب نوعًا من الشك في نية عمرو.

لم يكن الأمر أمر سرقة فقد كان الكثيرون يفتخرون بسرقة الطعام من بعضهم البعض. كان على الفلل أن تتناوب استلام نصيب الفصيلة من الطعام من المطبخ على مدار الأيام ثم يقوم أفراد تلك الفيلا بتقسيم الطعام وتسليم الأنصبة إلى من يمثل الفلل الأخرى التابعة للفصيلة. وعلى مستوى كل فيلا تتناوب الغرفتان التسلم بينهما وبداخل كل غرفة يتبادل أفرادها مهام الاستلام والتقسيم وغسيل الأواني المشتركة. وتبعًا لهذا التنظيم الدقيق كان طعام الفصيلة بأكملها يقع كل يوم في يد إحدى الفلل، وكان أفراد الفيلا يتفننون في ابتكار أساليب سرقة ونهب وجبات الطعام الثلاثة قبل توزيعها ثم يتندرون في اليوم التالي ويفتخرون بمهاراتهم وقدراتهم على التلاعب والسرقة.

لم يكن هدف محمود من فضح عمرو أمام الجميع هو الحصول على نسيلة إضافية من اللحم، بل كان الهدف هو تحطيم مكانة عمرو وتشويه صورته أمام الجميع. كان عمرو بدقة نظامه وعدم تعديه على حقوق الآخرين ومواظبته على الصلاة يمثل نموذجًا للإنسان السوي وسط

غابة من الغوغاء من أصحاب النفوس الضعيفة. كان وجوده يمثل تحديًا للكثير منهم ويشعل صراعًا داخل نفوسهم يشعرهم بالنقص والدينونة. وبدلًا من أن يسعى هؤلاء إلى إصلاح أنفسهم فهم يلجأون إلى طرد النماذج السليمة من بينهم أو تشويه صورتهم. وما مثل قوم لوط عنا ببعيد فبدلًا من الإقلاع عن المفاسد فقد سعوا في طرد الأتقياء وإخراجهم من بين أظهرهم، كما جاء في الذكر الحكيم ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

كانت العلاقة بين طاهر وسامي تنمو وتتوطد يومًا بعد يوم. كان طاهر بطبيعته فنانًا يحب الجمال ويجد سعادة في تأمل كل لمسة من لمسات الطبيعة حوله. كان يتمتع بالنظر إلى الأفق الممتد وتدرج الألوان بالسماء عند الغروب ولا يفوته التأمل في بريق النجوم في حلكة الظلام. وكذلك فقد كان لسامي أحاسيس مرهفة وكان يلجأ إلى طاهر ليعبر عن مشاعر الغربة التي تنتابه وعن الشعور الجارف بالشوق إلى الحبيب، والذي يتفجر في خفايا نفسه كلما وصله خطاب من خطيبته التي كان يستطيع أن يحس أنفاسها ويعد دقات قلبها بين أسطر خطاباتها بالرغم من بعدها عنه بمئات الكيلومترات. في المقابل استمرت العلاقة بين طاهر وعمرو كعلاقة زمالة تتميز بالاحترام المتبادل، ولكنها لم تتطور إلى درجة الصداقة الحقيقية بالرغم من أن معرفتهما كانت ترجع إلى خمس سنوات سابقة. كان عمرو عمليًا جدًا ويميل إلى قياس الأمور بالمقاييس المادية وعدم الاهتمام كثيرًا بتلك المشاعر والخيالات.

كان بالقرية الرئيسية "كانتين" تباع فيه بعض المأكولات كالعجوة وعلب المربى، وكان من الحين للآخر يعد العاملون فيه عددًا محدودًا من سندوتشات الفول، وبالطبع كان من الصعب على طلبة القرى الأخرى الحصول على تلك السندوتشات إلا إذا تصادف توفرها أثناء تواجدهم

هناك في وقت الراحة. كان السندوتش عبارة عن نصف رغيف بلدي به قليلًا من الفول المدمس، وقد يحتوي أيضًا على بعض السوس بين طياته. لم تكن السندوتشات جيدة على الإطلاق ولكن الحرمان جعل منها غاية يتنافس من أجلها الجميع. تصادف وجود عمرو أمام "الكانتين" عندما تم تجهيز بعض السندوتشات وعرضها للبيع فانتهز الفرصة واستطاع الحصول على أربعة منها.

عاد بالغنيمة إلى قريته وعندما دخل من باب الفيلا وجد كل من طاهر وسامي يتبادلان الحديث بغرفة الطعام، فألقى عليهما السلام ثم ابتسم وأخبرهما أنه يحمل معه سندوتشات من الفول فهتفا معا طالبين منه أن يقاسمهما فيما معه. ضحك عمرو وأخبرهما أن معه سندوتشًا كاملًا لكل منهما. فرح الرجلان وانشرحت أساريرهما ولكنهما فوجئا به يسأل عن الثمن الذي سيدفعاه فوبخاه وعرضا عليه ضعف ما دفع، ولكنه اندفع قائلًا "لا لا بالنستو بالنستو".

كان كل منهما قد أحضر معه بعض الأطعمة عند قدومه إلى إسنا وكان من بين ما أحضرا علبًا من الجبن المجهز والمعد على هيئة مثلثات. لم يكن استيراد الكماليات والسلع المستهلكة مسموحًا في أيام الاشتراكية وكذلك في ما تبعها من فترة كان شعار الكل فيها "لا صوت يعلو على صوت المعركة"، وكانت أنواع الجبن المجهز في السوق المحلية محدودة وجودتها تتراوح بين المقبول والسيئ وكان إنتاج نستو هو أفضل وأشهر الموجود.

سأله سامي باستغراب ماذا تعني بذلك فأجاب بأنه لا يريد مالًا ولكنه يريد مقايضة الفول بمثلثات من الجبن. فضحك الاثنان وقال له سامي لقد خذلتنا يا عمرو أكنت تنظر إلى طعامنا كل تلك الفترة متمنيًا الاستيلاء عليه. وانصرفا عنه بعض الوقت وكأنهما زاهدان في الفول ثم أحضرا إليه

أربعة مثلثات من الجبن ليلقناه درسًا في الكرم عند التعامل مع زملاء السلاح الذين يأكلون ويشربون ويقيمون معه ليلًا ونهارًا. أخذ الجبن ثم أخذ يتأسف لهما ويرجوهما أن يأخذا الفول منه حتى قبلا عرضه والتهما السندوتشين. ومنذ ذلك اليوم كانا يتندران بما أبداه عمرو من تفكير وتصرف مادي ويذكرانه بقوله "بالنستو بالنستو".

انتهت الخمسة أشهر ونجحت إدارة الكلية وهيئة التدريب في إعداد الطلبة وتشكيلهم في قالب جديد من الضبط والربط. لم يصدق طاهر نفسه حين عاد إلى الإسكندرية وذهب يمشي على كورنيش ميامي مع أصدقائه ممن مروا بنفس التجربة، فإذا بكل منهم ينظر إلى أقدام الآخرين ثم يصرخ واحد منهم "وحد الخطوة" فيعدلون خطواتهم لكي تتوافق الجماعة في حركة أقدامها اليمنى واليسرى. عندئذٍ تذكر طاهر تلك الأشهر الخمس وتعجب على ما تركته في نفسه وشخصيته بل وفي ذاكرته من قصص وفكاهات.

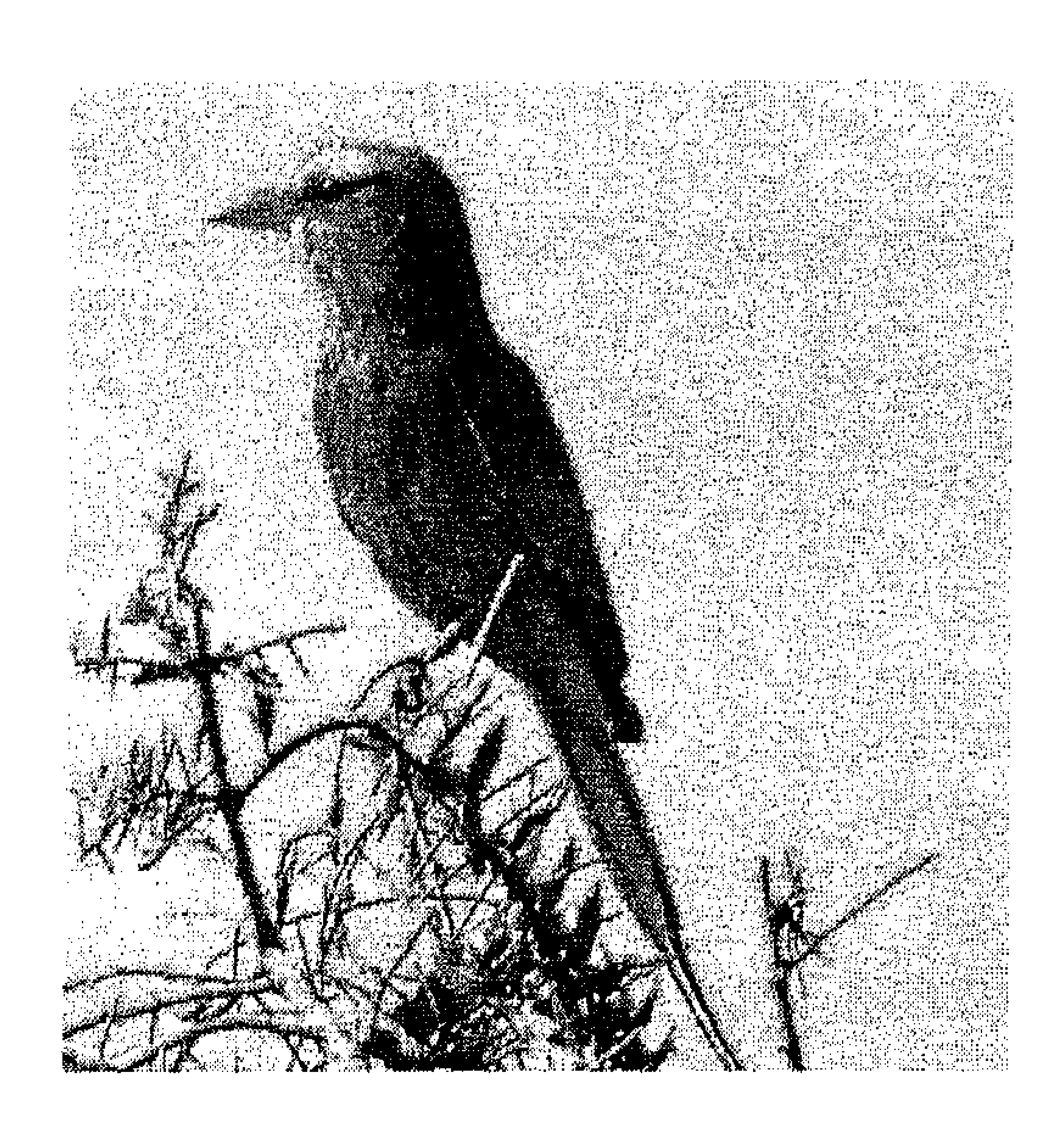
تذكر زملاء الفيلا التسع الذين انتهت معرفته بهم يوم ركبوا قطار العودة وسلم كل على الآخر، ولم يحاول أحدهم أن يسجل عنوان الآخر أو رقم تليفونه باستثناء سامي الذي عانقه بحرارة ثم افترقا. تبادلا عدة خطابات وقام سامي بزيارته مرة في بيته بالإسكندرية، ثم أخذت الخطابات تقل حتى انقطعت وانشغل كل بما حوله من هموم ومسرات. قابل عمرو مرة واحدة صدفة في طرقات إدارة كلية الهندسة عندما كان يستلم بعض الأوراق والشهادات. سأل كل منهما الآخر عن حاله أخبره عمرو عن وظيفته بالصناعات الحربية، كما أخبره عن عمله الإضافي في صناعة بعض الأجهزة الإلكترونية الصغيرة من تصميمه الخاص مما يدر عليه بعض المال وحدثه عما يبذل من جهد كي يكون مظهر منتجاته الخارجي لا يقل جودة عن مثيلاتها المستوردة من هونج كونج وتيوان. لم تتغير طبيعة كليهما كثيرًا عن قبل. افترقا بعد الحديث وذهب

كل منهما إلى حاله.

لم تكن علاقة الزملاء جيدة حين كانت المسافة بينهم أقرب من اللازم. كانوا يتزاحمون في مساحة لا تتعدى عدة أمتار قليلة بل وأقل من المتر في كثير من الأحيان. ثم انقطعت العلاقة تمامًا حين بعدت المسافات بينهم وأصبحت عشرات بل ومئات من الكيلومترات في زمن ما قبل الإنترنت والموبايل. وهنا تحضرني حكمة قالها الفيلسوف الصيني بوذا حين سئل عما يفسد الصداقة فأجاب "القرب الشديد والبعد الشديد".

* * *

ولكن ما هو العمل



مع صياح العصافير أبدأ يومي

إنه يوم جمعة .. ولمَ لا يكون أحدًا أو أربعاءً

لمَ لا أكون عصفورًا ينطلق بين أحضان السماء

لمَ لا أخرج من قوقعتي وأكسر حواجز ضعفي وأمسك زمام مبادرتي

أهي الحياة بعجلاتها أم هو الزمان بأثقاله

شيءٌ يكتم أنفاسي .. يخنق الكلمة في حلقي .. يجهض الفكرة في عقلي

أتمتم بكلماتي ولا أدري

هل هناك سبيل إلى فرج

هل هناك طريق لا أقع فيه في شرك

هل ما زال قابعًا هناك ينتظرني

أم أنه مل غيابي وانصرف يبحث عن غيري

فلأحاول مرة أخرى .. قد يتحقق شيء بالعمل

قد يصلني العمل للأمل

و لكن ما هو العمل ؟؟؟

الثلاثون من مارس ١٩٧٢

حبيبتي ألا تدرين



حبيبتي ....

ألا تدرين بمن استحوذت على فكره ...

ألا تدرين بمن بات الليالي يغني لحن حبه ...

حبيبتي ...

بمزيج من الجمال والبراءة خلقك ربي ...

كملاك من السماء هبط فسكن أنحاء قلبي ...

حبيبتي ...

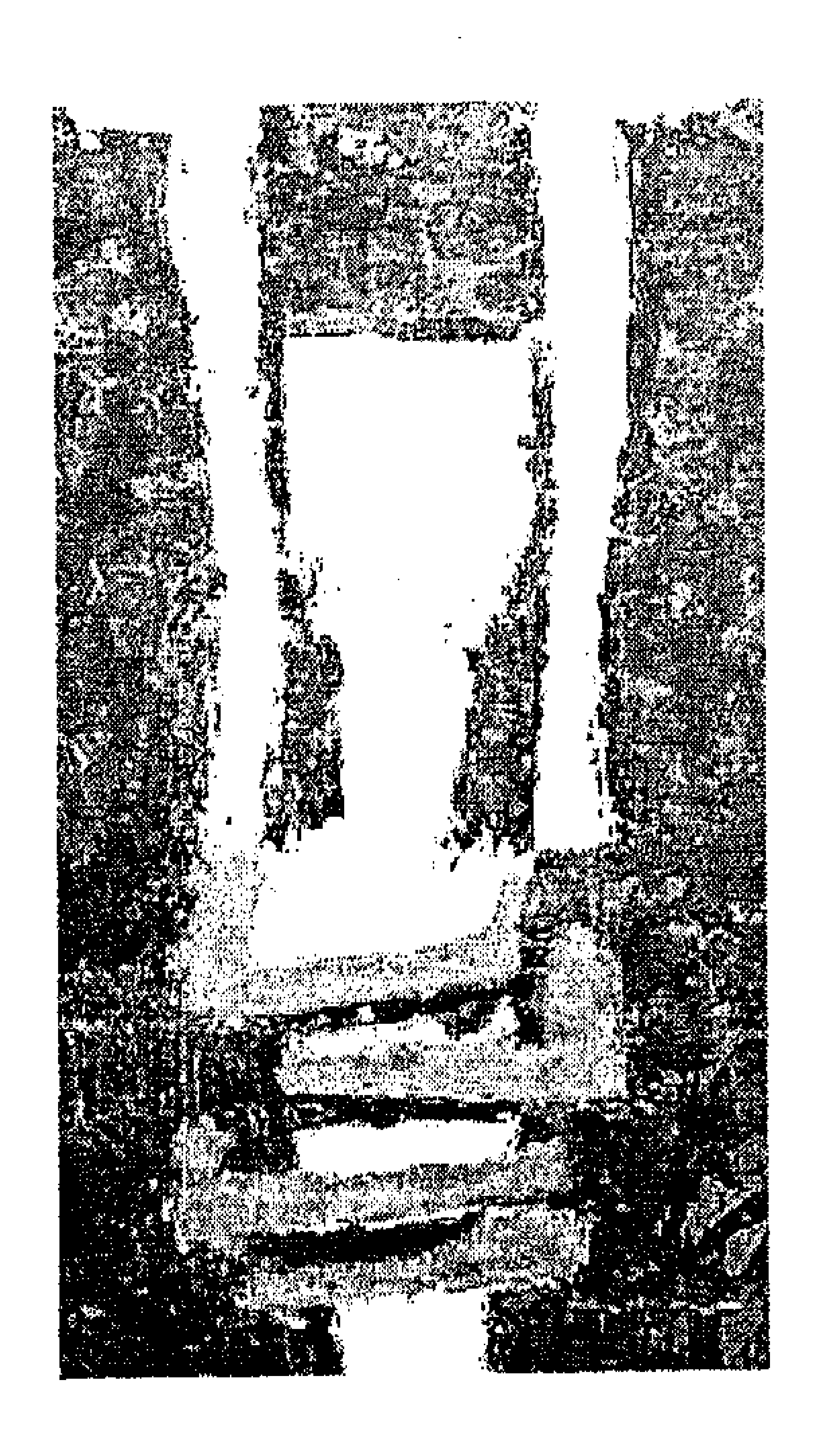
لقد أصبحت لا أدري بشيء غير حبك ...

ولا أرى جمال الكون إلا في حسن وجهك ...

حبيبتي ...

ألا تدرين .. لقد أصبحت لا أدري ...

مناجاة



أين أنت.. لقد اختفيت

أفي أعماق نفسك اندفنت

وبالهموم انكسيت

وبالدموع انغمرت

. . . .

هل قتلت الأحزان فيك الأمل

وسلبتك الأيام القدرة على العمل

وتركتك في العراء تحت المطر

. . . .

أبأشجار الخريف احتميت

أفي ظلمات الورى احتجبت

وبدلًا من الطموح باليأس ارتضيت

وعن الأحداث ابتعدت

. . . .

عقارب الساعة لن تتراجع

والأحداث تتطاحن

والأفكار تتشابك

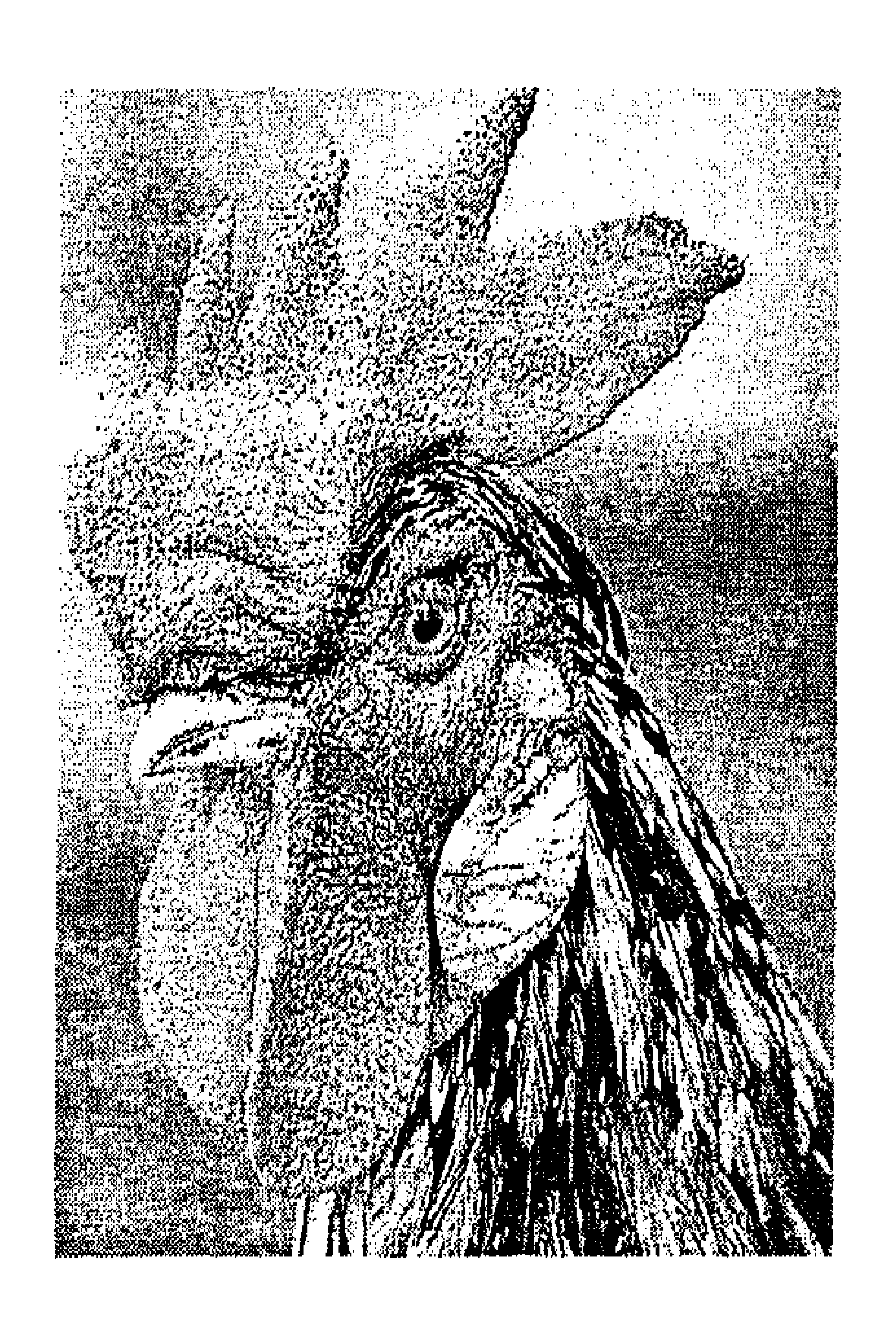
والخير يقتتل

. . . .

لقد أدركت بشاعة العالم حين أدركني الوهن

الثاني عشر من ديسمبر ١٩٧٢

حوار مع الديك



سألت الديك لم أصبحت عن غير عادتك مكتئبًا
فأومأ بعرفه، لم لا ولم يعد أحد لصياحي مكترثًا
إلا بضع دجاجات وفرخ بات بالعش منكسرًا
وقد كان لجدي صياحًا يقوم القوم عليه منتفضًا
يحيون صلاة فجرهم ثم يسعى كل منهم مرتزقًا

* * *

فقلت مواسيًا وما ذنبك فواجبك قمت به مجتهدًا
بل ذنب أقوام تحسبهم أمواتًا ولم يعد لهم سمعًا
لم يعطوا الليل حقه فحرموا أن يكون لهم سكنًا
ولم ينتبهوا لنهارهم فلم يصبح معاشهم فيه رغدًا
لم يقوموا الليل تعبدًا لله بل كان لكلّ في ليله شأنًا
فهذا مع ندماء السوء وجد له في الغيبة منتعشًا
وهذا بمباريات الكأس بات عن أولاده منشغلًا
يصرخ سابًا للحكم وكل من كان إلى أهله منتسبًا
وفتية اتخذوا الطريق ملعبًا ولم يرعوا للمارة حقًا
وهذه عربة فارهة يطوف بها صاحبها مبتهجًا
رافعًا صوت الغناء ولكل فتاة بالطريق معترضًا
وعروس على الناصية من حولها كان الشباب ملتفًا
يزفونها بالرقص وبأغنيات لها قرع الطبل متصلًا
وآخرون يقلبون البصر بين قناوات تعرض هزلًا
تبث رقصات لغانيات تركهن الحياء مودعًا مفترقًا

* * *

هنـا صاح الديك ... حمدًا لله إننا لم نخلق مثلكم بشرًا
نسـكن في ليلنا ونقوم الفجر فنسـعى إلى رزقنا سـعيًا
نظرنـا في الوطـواط عـبرة لم يكن الإنسـان لهـا ملتفتًا
يقـضي ليله سـاعيًا متصيـدًا ثم يتخذ من نهاره سـكنًا
فانقلب وعلق قدماه فأصبح رأسـه للأرض منتكسًـا
حكمـة أرادهـا الله لعبـاده بخلقـه نهـارًا وخلقـه ليلًا
لم لا تبـصروا حكمـة الرحمن وقد جعلها لكم رشـدا

* * *

جنان في جنان



دنيا كلها جنان ما فيهاش للعاقل مكان
دنيا دنيا ... دنيا كلها جنان في جنان

* * *

يطلع واحد بفرشة عليها شوية ألوان
يلطش لطشة صفراء ودائرة زرقاء كمان
يقوموا يكرموه ويقولوا آل إيه ده أجدع رسام

* * *

يجي مخرج يصور فيلم في ضوء بهتان
حكاية كلها ملخبطة ما تعرفش من أي زمان
في مهرجان السينما.. يفوز قال إيه بأحسن فنان

* * *

واحد يطلع يغني حبل صوته يا ناس تعبان
والحبل الثاني يا دوب ينشروا عليه غسيل الجيران
تموت البنات في دمه وترقص معاه لوسي وحنان

* * *

دنيا دنيا ... دنيا كلها جنان في جنان

* * *

على الموضة بنات وأولاد ده أرماني وده بيركاردان
نزلوا البنطلون تحت الخصر بشبر وخلوا اللي يبان يبان
ولو قلت ده عيب والا حرام يقولوا أصله من جيل زمان

* * *

ولما تسوق في شوارع مصر تلقى فوضى وزحام
حتى البنات بتعمل غرز وتسوق أروش من الشبان

وإن وقفت في إشارة حمراء تلاقي اللي وراك زعلان

* * *

يجي مسئول يهلل بنيت مائة ألف وحدة إسكان
تلاقيها مهجورة وسط صحراء ما فيهاش إنس ولا جان
تضيع فلوس الدولة وعمولته توصل سويسرا على العنوان

* * *

دنيا دنيا ... دنيا كلها جنان في جنان

* * *

إن كنت عاقل شوية ... مالكش بيننا مكان
وإن كنت عاقل بالقوي ... يكون مصيرك الليمان
ولو حاولت تزودها كمان شوية ... يلبسوك ثوب الجنان

* * *

دنيا دنيا... دنيا كلها جنان في جنان

وصية فهلوي لابنه



الأولة

اللي تكسب بيه ألعب به

* * *

والثانية

إن جاء عليك موج اركبه

* * *

والثالثة

استهبل في الطابور وروح على أوله

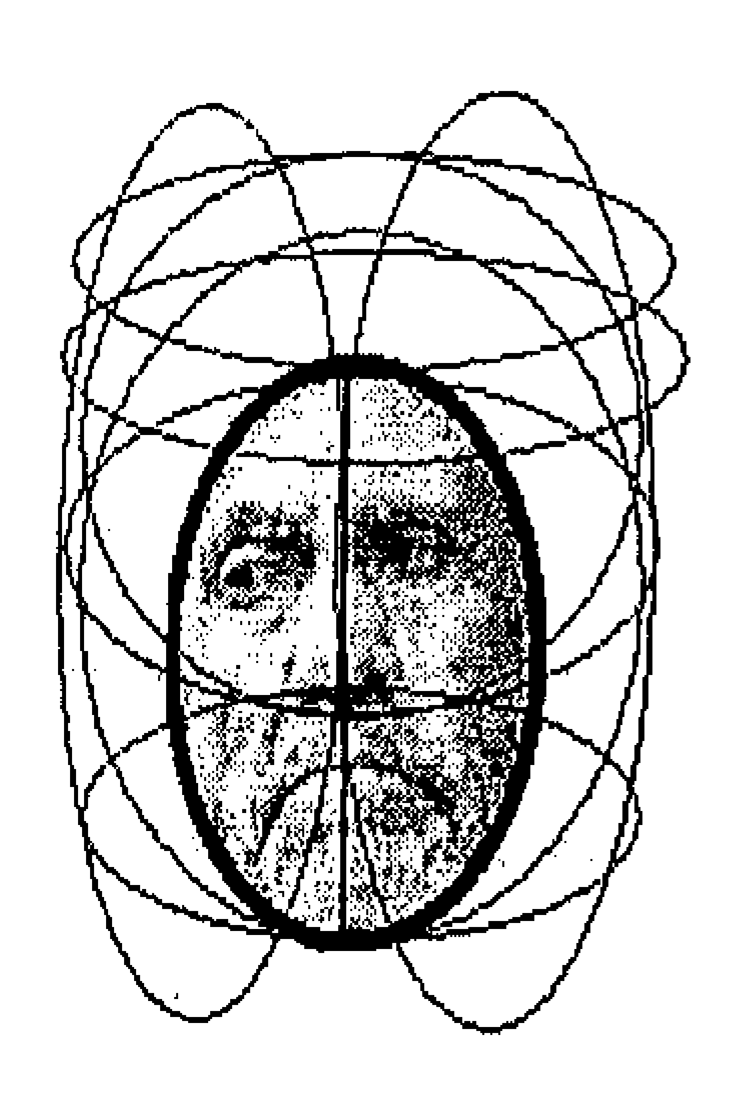
* * *

والرابعة

إن كان رئيسك حتى كلب أعبده

* * *

نص نص



وأنا ماشي لقيت بنت الجيران على الرصيف ملهية

قلت لها مالك يا بنت على العياط كده مكفية

قالت الواد حمدي أخويا خطف الفلوس من بين إديا

قلت جرى ايه يا حمدي إنت بقيت من الحرامية

قال أصل المزاج بقى غالي قوي قوي علي

قلت له يا خيبتك ده أنت يا دوب ساقط في الإعدادية

ولاد الحلال قالوا كله من الأفلام اللي السيما بيها مملية

* * *

رحت على السينما لقيت عالم رايحة وعالم جاية

قلت هو فيه إيه !!

واد معضل قالي ... ده اللمبي ثلاثة هو أنت من دنيا ثانية

يالله الحق احجز لك تذكرة في حفلة ثمانية

قلت هو كان فيه اللمبي اثنين وده الثالث يا عنية

شاب واقف قال إن كان فاتك اشتري " DVD " من الأزبكية

قلت الأزبكية دي كانت سوق للكتب مش للأفلام السينمائية

رد الشاب وقالي هناك خميس أبو طقية

ده كان زمان بيبيع كشري على عربية

ودلوقت بقى بينسخ أفلام الخمسة بمية

* * *

ناديت يا أبو محمود .. يا أبو محمود ..آه ضبتك

إنت كمان من زبائن الأفلام ديه !!

قال ما تعملش فيها شيخ تلاقيك شوفت اللمبي من قبليه
قلت ده كان يوم مهبب ما أعرفش مين كان دعى عليه
لما سواق السوبرچيت شغل الشريط في موقف إسكندرية
اللمبي فَضَل مسطول لغاية ما وصلنا المريوطية
فيلم ايه اللي يمجد واحد صايع وأهْبَل من الحمار بشوية
بَصْ لي أبو محمود وضحك ضحكة مش اللي هي
أهي حاجة تسلي وتنسيني الهم إلى فيَ

* * *

قلت له مالك يا أخوي .. فضفض لي شوية
قالي الواد ميدو ابني عايزعلى أول الشهر ستمية
قلت وبتوع إيه الستمية
قال بتوع الدروس اللي بيأخذها للتقوية
قلت مش ابنك ده من سنتين أخذ الثانوية
قال وإنت فاكر من غير دروس حد بيمشي في الكلية

* * *

أخذت بعضي على الجامعة لقيت ميدو مع البنات في الكافتريا
بفلوس أبوه بيأكل هوت دوج بالكاتشب .. يرحم زمان الطعمية
دخلت على العميد وقلت إيه حكاية الدروس الخصوصية
قال الدكاترة تاكل منين ده مرتب أجدعهم ألفين ومية
ده كل عيل بيصرف نصفهم وكمان عايز له عربية
قلت ما تِدَفعوا الطلبة مصاريف وتصَلحوا العملية
قال يا عم أنا مالي دي قوانين اشتراكية

* * *

رحت أشوف الوزير... أخويا كان زميله في الثانوية
مدير مكتبه راجل ظريف ... قال دي كل حاجة في إدية
قلت ما ترجعوا المصاريف وإعطوا المحتاج منحة دراسية
قال إنت إتجننت .. دي حكاية تخص السلطة التشريعية
جريت على مجلس الشعب بجواب توصية
كان نصفهم غايبين ... ونصف الصاحين هتف فيَ
لا مساس يا ساذج بمكاسب الشعب الثورية
حتقَوِّم علينا الناس والانتخابات على الأبواب جاية
باين عليك عميل لأحزاب المعارضة الليبرالية
قلت جئت لكم تشرعوا... لقيت عقولكم بالشعارات مملية
غلطت أنا وغيري لما تركنا حقوقنا السياسية
مين فينا بيرشح نفسه أو حتى عنده بطاقة انتخابية

* * *

رجعت وأنا مهموم أجر بالعافية رجلية
قلت أمر على سيد السباك أخذه يصلح الحنفية
الواد هيمة قاللي الأسطى لسه ما نزلش من الصبحية
قلت له يا ابني ده إحنا قربنا على العصرية
مريت عليه آخذه من بيته قبل ما يروح يشرب الحمية
لقيته يا دوب صاحي وعنيه بالعماص معمية
وقبل ما يقول يا هادي قَعَد يشوف الفضائية
قال أقعد يا عم لما نشوف بعد الأخبار فيه أغنية
قلت يا مصيبتي ... دي مذيعة والا غازية
قال أصبر أمال لما تشوف بقى إللي جاية

جات بنت حلوة ومايصة لكن غناها أثر فيَ
قلت ليه أزعل نفسي كفاية "نس نس" زي ما بتقول الأغنية
أخذت بعضي وقمت ... خفت الفيديو كليب يوسوس فيَ
علي الطلاق تأكل لقمة .. فطير بالقشطة وبيض عيون مقلية
قلت في بالي حرام عليك طلقتها بدل الثلاثة ثلاثمية
يالله الفطار بسرعة يا ولية ...
قلت تسلم يا سيد ...أم العيال على الغداء مستنية
قال اسبقني وأنا وراك جاي إن كان في العمر بقية
وآدي وش الضيف ما الكذب بقى في الزمان ده مزية
اشتريت مفتاح وجلدة من صنع الصين الشعبية
قلت حك جلدك بظفرك وصلح بنفسك الحنفية
حكمة كان دائمًا يقولها أبويا بقوة إرادته الصعيدية

* * *

في البيت أم العيال بالطرحة والعباية فوق الجلابية
في بالي قلت .. آه لو كنت في حلاوة البنت المغنية
وإلا لبستي فستان متدلع زي مذيعة النشرة الجوية
سألت قاعدة بالحجاب ليه هو فيه ضيوف جاية
قالت لسه مصلية أتغذى بعدين أغير إللي عَلَيَ
قلت لها عشرين سنة أتمنى تعملوا أرز يوم الملوخية
وشها اتغير ويدل ما ترد بكلمة حتضرب بالبونية
قصرت الشر وقلت تسلم إيديك على حلاوة التقلية

* * *

باالليل دخلت أنام ... بالعافية جاء النوم في عنية
أبويا طلعلي في المنام وكان شكله مش راضي علي
قال أوعى يابني تبقى "نص نص" وتفرح الأعادي في
كلهم مصيرهم القبر ... وحدة وحشة وظلمة دايمة
اللي مشغلين السينما وحتى أصحاب المدينة الإعلامية
الناس اللي أفسدوا التعليم بالجامعة وكمان عيال الكافتريا
والأسطى سيد وبنات الكليب اللي بيتدلعوا على الفضائية
والبشوات نواب المجلس وحتى الواد حمدي وأخته سنية
عشان ايه تبيع نفسك دي دنيا فانية مهما تدي مش مكفية

* * *

على المعاش



عبد المجيد حسنين طلع على المعاش من خمس سنين
يصحى الفجر ويروح يصلي الجماعة مع المصلين
يرجع لمراته يلاقي كبايتين شاي بالحليب جاهزين
يشربوهم في البلكونة ويأكلوا معاهم قرقشتين ناشفين
مقدرش على قاعدة البيت وكان عنده للشغل حنين
لقى وظيفة في مكتب محاسب من الكبار المشهورين
يسلي نفسه بدل ما يقعد على القهوة مع العاطلين
أهي أربع ساعات بعد الظهر يجيبوا قرشين حلوين
يزود بيهم معاشه ويدعي الرزاق يخليهم مبروكين

* * *

يوم الثلاثاء من بدري راح على البنك مع الرايحين
النهاردة أول الشهر، يوم يا عيني يقاسي فيه المسنين
طابور طويل وزحمة ويرَوحوا بعد القبض تعبانين
لما وصل للشباك قالوا له اسمك في كشف الموقوفين
قالوا لازم تراجع الإدارة وإلا اعتبروك من المتوفين
ضرب كف بكف ... حسبى الله أنا عليه من المتوكلين

* * *

رجع البيت إيد ورا وإيد قدام وجيوبه الاثنين فاضين
الست جمالات العاقلة طيبت خاطره بكلمتين حلويين
مش زى ما بتعمل كثير من الستات مع أزواجها المفلسين

ثاني يوم راح على الإدارة علشان يثبت إنه من العايشين
ملى إستمارة وسلمها للأستاذ بسيوني من أقدم الموظفين
شوية ونادى الأستاذ إنت "عبد المجيد برهان حسنين"
قال مش "برهان" "إبراهيم حسنين" كده بالبطاقة مكتوبين
قام الأستاذ قال له يبقى اللي عملوا بطاقتك أكيد غلطانين
قال في باله يعرف اسمي أحسن مني ده ولا كلام المجانين
قال سموني زي ما عايزين بس قبضوني القرشين المتأخرين
قاله مش بالسهل، لازم من مصر تجيب موافقة المسئولين
مراته نظفت الشنطة من التراب دي كانت مركونة سنين
قالت له فرصة تقضي يومين مع ابنك وأحفادك الحلوين

* * *

ركب الديزل وطلع كتابه يقرأ عن تاريخ حضارة المصريين
كانت قاعدة أمامه بنت روشة في حوالي الخمسة وعشرين
طلعت لابتوب وبدل ما تشتغل راحت مشغلة أغاني لشرين
الركاب إتململوا وهي مش في بالها إنهم منها متضررين
منظرة أو قلة فهم لمدى حدود حريتها مع حرية الآخرين

* * *

وصل عبد المجيد بيت ابنه لقاهم على الباب كلهم مرحبين
إلا الواد الصغير بالكمبيوتر بيلعب وعن الدنيا من التائهين
قال جايب هريسة إسكندراني ماعندكمش زيها يا مصراويين
صلى العشاء واتعشى وقال إيه إنتم على النوم مش ناويين
قالت مرات ابنه يا عمي أجازة والعيال كل يوم سهرانين

خليهم يهيصوا، طول السنة بالمذاكرة والواجبات مشغولين

قال يا بنتي الليل سكون والنهار له شئون ليه إحنا مشقلبين

سنة الله في خلقه ومهما عملنا ما نقدرش نكون لها مبدلين

الساعات بنسهرها ونرجع ننامها لا زايدين ولا ناقصين

* * *

من بدري راح على الإدارة فاكر الموظفين يكونوا فاضيين

قالوا حسنية في أجازة مرضية والباقي بالفطار مشغولين

لما دخل المكتب لقى موظفات أقلهم توزن مائة وعشرين

كل واحدة ماسكة بلقمة وفي طبق الفول بالأيادي مغمسين

الساعي قال بعد الفطار ولو مستعجل روح للآنسة نسرين

نحيفة وشيك وطبعًا ما بتفطرش مع زملائها المتوحشين

قال لها كلمتين عن مشكلته وموبيلها هات نغمات ورنين

عشر دقائق وأكثر بيسمع كلام وحكايات عن الفساتين

قبل ما يكمل حكايته رن الموبيل ثاني بنغمة كلها حنين

كان خطيبها وحديثها كله عتاب كانوا يظهر متخاصمين

كلامها نصه إنجليزي ومليان تعبيرات الشباب الروشين

بعد مكالمتها طلعت مراية وعدلت كام شعرة منكوشين

ناولته إستمارة وقالت تملأها وتصور نسختين واضحين

ومن لظوغلي تجيب لنا مستخرج ميلاد من المستعجلين

* * *

هناك قالوا الرسوم ٨ جنيه لا زايدين ولا ناقصين

بس المشكلة ويا للعجب إن ما كانش عندهم صرافين

إعمل حوالة بريدية من البوستة بعد شارعين على اليمين

جاب الحوالة ورجع لقى الموظفين كلهم بدري مروحين

ثاني يوم قالوا تستلم بكرة الظهر قبل مرواح المسئولين

راح استلمه وجرى على المعاشات بالأوراق المطلوبين

* * *

صوت وسط الزحام "حاج حسنين" دي كانت الآنسة نسرين

وشك حلو خطيبي صالحني وأخويا رجع من سفر سنين

خلصت أوراقه في نصف ساعة جاء فيها مكالمتين قصيرين

قالت تروح توقع من الأستاذ شكري وتختم من أم ياسمين

لقى الأستاذ شكري طلع مأمورية وفوت بكرة يا مسكين

* * *

ثاني يوم جاء الفرج وكانت فرحته كالتلامذة الناجحين

فى البيت قال مش قادر آخذ نفسي إزاي في التلوث عايشين

يا جدو ما شفتش السحابة السودة .. كانت حتموتنا مخنوقين

باسهم وقال ألحق القطار جدتكم وحشتني كأني سايبها سنين

* * *

وصل المحطة من بدري وقعد على القهوة مع المسافرين

طلب إسبريت وسندوتشين جبنة رومي يكونوا صابحين

قالوا آسفين السندوتشات والكرواسونات كلهم خالصين

قام قال خلاص كفاية الحاجة الساقعة وخلينا نقعد جعانين

راح جايبله ميريندا ساخنة ومعاها جاتوه شاكله من البايتين

قال ده مش طلبي رد الجدع كده مع كل المشروبات نازلين

بص لقى نسخة من اللي عنده عند الكل وهم فيها زاهدين
الغريب ماحدش بيعترض وباين عليهم للجاتوه "ريسيكلين"
عبد المجيد عمره ما سكت على الغلط وكان من المستسلمين
غضب وشخط وقال شيل كله بأي حق في الناس متحكمين

* * *

يوم الخميس في إسكندرية معاه كل الأوراق متحضرين
أخذوا المستندات بعد ما قابل على الأقل خمسة موظفين
روح على بيته ورغم الأرهاق شعر إنه من الظافرين
قال لمراته أخيرًا أثبت للجميع إني ما زلت من العايشين
قالت له محضرة غدوة رز صيادية وسمكتين مشويين
قال بس أمدد جسمي شوية وكمان أريح رجلي التعبانين
خمس أيام قضاهم في مصر الحقيقة كانوا كلهم مرهقين
كل يوم كان ينزل بدري ويركب مواصلتين مزحومين
وبالليل ما يقدرش ينام من دوشة الجيران المزعجين

* * *

حضرت الغداء وقعدت تنادي لكنه ما عادش من السامعين
إزاي يسمع بعد ما فارقت روحه الدنيا وهي لها من المودعين
أخذت تبكي وتبكي على فراق الغالي وتقول قتلوه المجرمين
قتلوه باستهتارهم وجهلهم وبالأهمال اللي فيه منغمسين

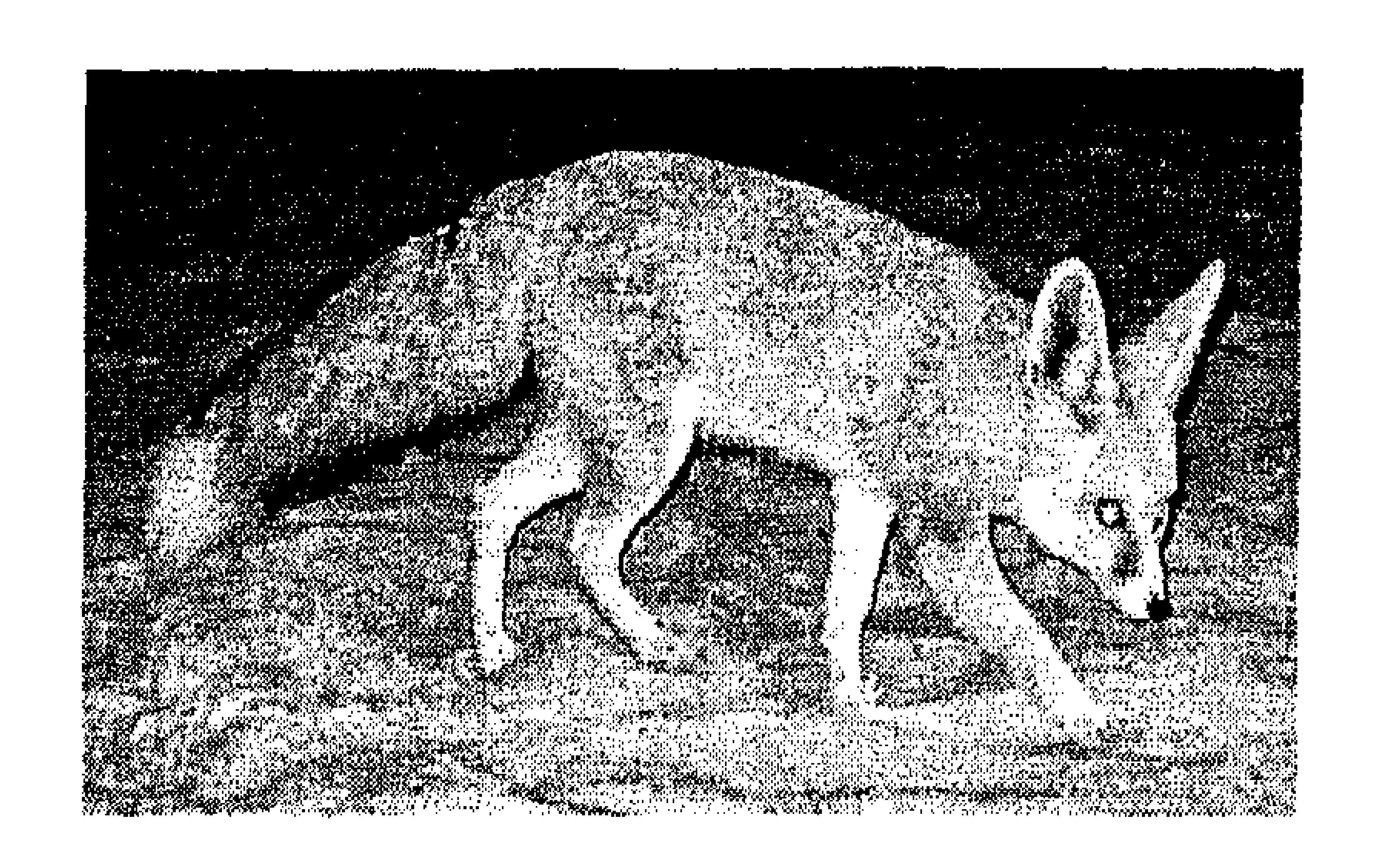
* * *

مات وساب لنا حكايته مسيرها تقع في إيد واحد من المصلحين
يفهم إن الإصلاح مش بزرع صحراء ولا توظيف العاطلين

ولا ببناء مصانع ولا حتى مكتبات كبيرة أو مسارح للفنانين
يقرأ ويفهم حكاية صاحبنا اللي اتقتل بإيد كثير من المهملين
ويرفع الغشاوة عن عيوننا ويظهر قصورنا اللي فيه غارقين
ويغسل قلوبنا وينور عقولنا ويصفي نفوسنا يا مصريين
ساعتها ممكن نرجع ثقافة وحضارة ابتدعها جدودنا الأولين
ويصبح اقتصادنا أقوى من أيام يوسف اللي شبع الجعانين
وترجع سماحة أيام عمرو لما عاش الكل في الخير متقاسمين
ونعيد عزتنا ونحقق نصر ما يقلش عن نصر صلاح في حطين

* * *

صديقي والا عدوي



معدتش أعرف صديقي من عدوي من حبيبي الغالي

* * *

رأيته وكنت عارفه، كان زميلي في أيامي الخوالي

كنت بأشوفه من فترة لفترة لما يجي يزور جيراني

ما هو أصله بيعزهم وفي حبهم ألفوا فيه أغاني

اتغنى وبقاله عزوة وبقى عايش في برج عالي

يا ترى قابلني صدفة والا كان مخطط عشان يلقاني

قال حالك كده مش عاجبني فين مكانك من مكاني

قلت إزاي أحسن من حالي وهموم الدنيا مقيداني

قال أحل مشاكلك وأساعدك بقوتي وبعض مالي

قلت وإيه يا ترى مطالبك، قال بس تسمع كلامي

خفت منه وقلت ثعلب ولكن كلامه شد كل انتباهي

ساعات أسمع منه وعود تحقق ما أملك من أماني

وساعات أحس إنه وحش ناوي يأكلني أنا وعيالي

أو أظنه نخاس راح يبعني ولو لم يكن الثمن غالي

قلت قول ووضح اللي عندك ... أنا فاتح لك آذاني

* * *

قال حط إيدك في إيد جارك وما تفكر أن تعادي

قلت ده اغتصب دار شقيقي اللي يتمناه كل شاري

قال أخوك مش شقيقك إنت نسيت إنه من أب ثاني

قلـت خـدع ابـن عمي لمـا أشركـه في مـشروع خيالي

اسـتولى عـلى مالـه وغرقـه في بحـر موجـه عـالي

قال ابـن عمك حاقد عليك وقلبـه من ناحيتك خالي

وقـال إنـه كمان طمعـان وعايـز يضـم لمالـه مـالي

قلـت في بـالي كلام صحيـح لكـن دول أهـلي وناسي

يلاقـوني بحضنهـم لكـن عمرحضنهم مـا كان دافئ

وكل مـا أحتاج لهـم ألاقي كل واحد منهـم في وادي

* * *

قـال تعـالى إنت وجـارك وخلوا القلـب بينكم صافي

طاوعتـه وحطيـت إيـدي فى إيـد النجـس جـاري

ومن سـاعتها بقت رقبتي مسـلط عليها سيف حامي

من سـنين فعـلي انقطع ولكـن كان له صـدى كلامي

لكـن مـن يوم مـا عاهدتـه حسيت إن انقطع لسـاني

وسلاسـل منعـت حركتـي ومـن كل جهـة مكبلاني

* * *

في طريقـي كنـت وحـدي وقلـت لنفـسي أناجـي

ليـه ابنـي انحـرف وليـه خلعـت حجابهـا مـراتي

ليـه بنـاتي بتسـهر الليـل مـن الإنترنـت تنـزل أغـاني

ليـه رضيـت بالقـرش الحـرام ولوثـت بالربـا مـالي

ليـه جرحـت أخويـا وتركتـه ينـزف مـن دمـه الغالي

ليـه تجاهلـت ابـن عمـي لمـا استنجد بصـوت عـالي

ليـه وليتـه ظهـري وكـأني لصـراخه مـش داري

إيه اللي جرى عمر ما كان كده حالهم وحالي

من يوم ما سمعت الكلام اللي عن الحق عماني

إبليس قعد يوسوس في نفسي لغاية ما أغواني

كرهني في أخويا وكمان على ابن عمي قساني

غرقني في الأوهام وخلاني فتحت بابي لجاري

عزلني عن عزوتي وفي حضن عدوي رماني

عدوي استباح حرمة بيتي وراح ينهب كل غالي

ليه استأمنت الذئب ده عمره ما يصلح للغنم راعي

قلت لازم أصلح اللي انكسر لكن دى كانت أماني

خلاص عدوي هدم جدار بيتي وضم لداره داري

أخذت أبكي وما الفائدة مهما كان الدمع جاري

* * *

ما أقدرش ألوم اللي وسوس لي وملك كياني

ولا ألوم عدوي اللي غرقني في الذل حتى أذاني

ما أقدرش ألوم أخويا اللي آذيته أكثر ما أذاني

ولا أقدرش ألوم ابن عمي اللي لما اتغنى نساني

الذنب ذنبي أنا لما اتمليت بالطمع حتى عماني

مهما تباكيت أنا اللي كنت على نفسي وأهلي جاني

* * *

ضعف



نظرت غرائب الحيوان فما رأيت أغرب من فعلنا
هؤلاء بني عرس ليتنا ندرك حكمتهم بألبابنا
اصطفوا أمام ذئب ولم يتفرقوا كما تفرق شملنا
أرهبوا عدوهم بعزة فرأى فيهم ما لم يراه عدونا
تكالبت علينا أمم تأكل صغيرنا ولا تترك كبيرنا
فهل أصبحنا أقزاما ودنت للأرض قاماتنا
أم نحن كالنعام نواري بالرمال هاماتنا
أم هو الوهن قد ران على قلوبنا
فأُشربنا الذل وارتضيناه بديلا لإرضاع أولادنا
وسكرنا بحب عدو بات يرسم لنا خطواتنا
يفرض علينا عولمة كالصفعات على وجوهنا
فتجمعنا وما اجتمعنا وما كان للحكمة نصيب بيننا
وما اعتصمنا بحبل الله بل كان الفراق ديننا
نناقش في كل ناد كيف إذا جرحنا نلعق دماءنا
فلماذا نندب ونبكي كما بكي بالأندلس آباؤنا
ونقطع الأيام بحثا والحق ساطع أمام عيوننا
ونحلم بمولد أبطال وكيف تنجب العاقر أولادنا
ونخاف سلخ الجلود بعد ما رضينا بذبح نحورنا
لماذا لا نثور ونرفض كل ما يفرض على شعوبنا
غيبوبة قد طال بقاؤها فهل للوعي طريق إلى عقولنا

صرخة مظلوم



ظلموني ظلموني .. ظلموني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

بقانون طوارئ مسكوني

بدعوة زور اتهموني

في محكمة العسكر حكموني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

في زنزانة عتمة فاتوني

وليالي طويلة نسوني

العتمة عمت لي عيوني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

ظواغيت السجن أهانوني

بدون رحمة جلدوني

لكلاب سعرانة رموني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

للمحامية دفعت وما فادوني

أحزاب المعارضة ما نصروني

والرأي العام دول خذلوني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

رب الكون شكيت له همومي

ناجيته بدموع عيوني

يخسف الأرض باللي ظلموني

* * *

ظلموني يا أبويا .. ظلموني

إمتى يا شرطة



عساكر في بدل بيضة مبهدلين ومبهوئين
خيالات مآتة في الشوارع مترصصين
عيال غلابة لا خبرة ولا حتى متعلمين
وأمناء شرطة وجاهة لكن للأمانة مضيعين
مرتبات تعبانة وعلى الغلابة مسترزقين

* * *

والأمن المركزي يا ويلك منهم متجهزين
هدوم سودة وبالعصي والدروع مسلحين
في صناديق خضراء يا عيني محشورين
جانب كل مصنع أو جامعة مستنظرين
يوم الفرج يسيبوهم بعد حبسة مسعورين
تقلش أسود القيصر على العبيد هاجمين

* * *

وضباط شبان آخر حلاوة لكن صايعين
بقوا بشوات وهما لسة من البيضة طالعين
ماتعرفش تكلمهم ويبصوا لك متمنظرين
وسط الميادين هات يا شخط وسب بالدين
ويوم الجمعة أمام الأزهر بالمئات متجمعين
بالسلاح مدججين كأنهم حيحرروا فلسطين
وأمن دولة يبعد عنا الرايحين منهم والجايين
لو وقعت تحت إيدهم تكون من الضائعين

بالجوازات رواد ومقدمين قاعدين مكشرين

رتب تقود كتائب ودول شغالين ختامين

وتلاقي بالشوارع باشاوات كبار متختخين

عمداء ولواءات يشاوروا للرايحين والجايين

ده والله مش مكانكم دانتم قادة وموجهين

بالعقل تفكروا وتكونوا للمستقبل مخططين

* * *

إمتى يا شرطة نشوفك تنصفي المظلومين

وينتظم المرور وتضبطي كل المستهترين

وتختفي المخدرات وينهدي شبابنا الضايعين

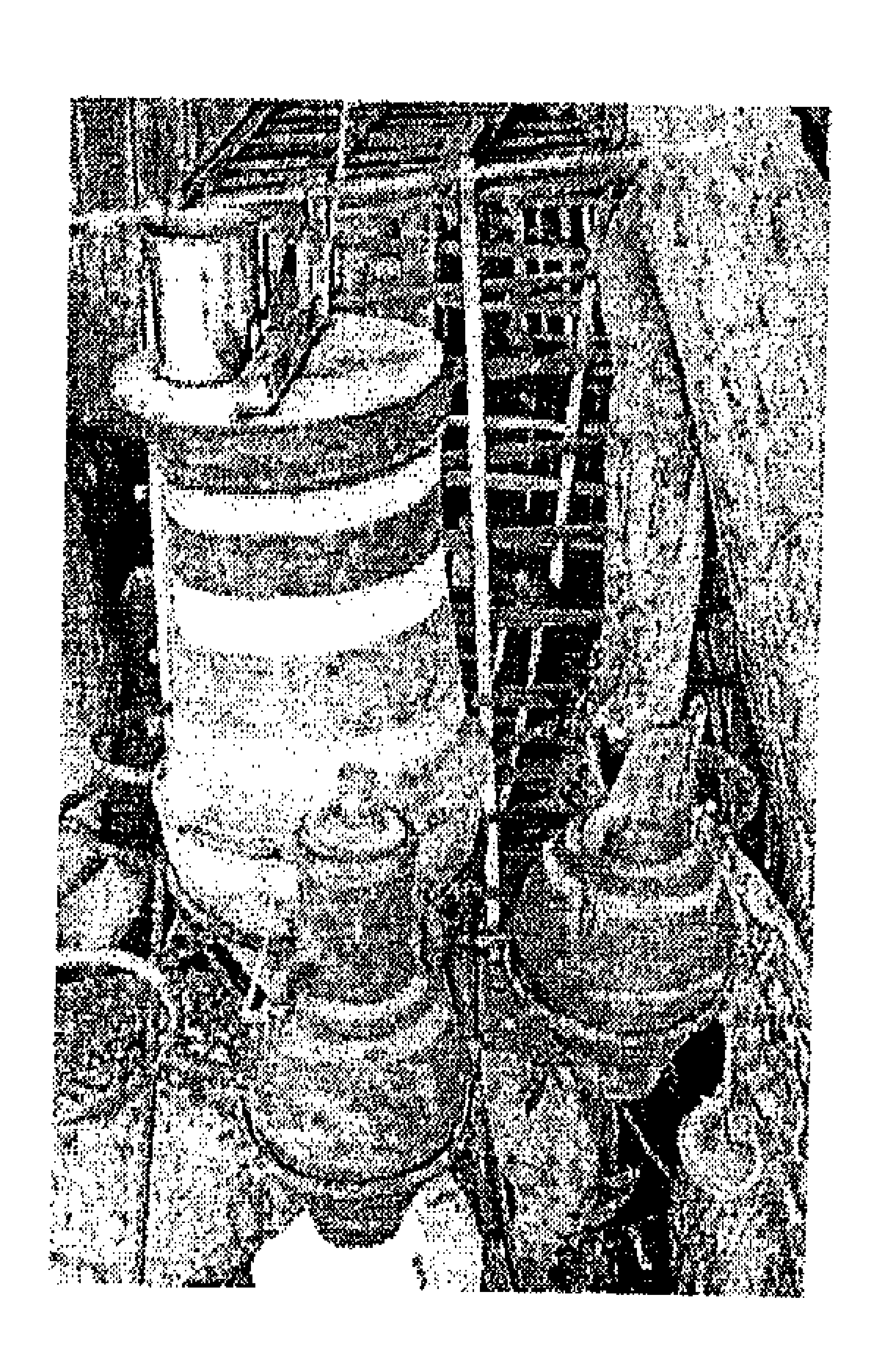
توفري الأمن حتى لأفراد الشعب العاديين

ويمشوا ولادنا وبناتنا في الشوارع مطمئنين

ونغمض جفونا وأنتم حامينا من المجرمين

* * *

جفاف



قُلْت عَطْشَان وَيَا بَخْت مَن سْقَانِي

قَالُوْا لِي دِي الْقُـلَّة جوفها مِن يَوْمَيْن خَالِي

قُلْت مَالِك يَا قُـلَّة

قَالَت لِي مَا فِي حَذ بِالْمَيَّة مَلَانِي

قُلْت مَالَكُم يَا أَهْل الْخَيْر

قَالُوا لِي دَه الزير مِن زَمَن خَالِي

قُلْت مَالِك يَا زِيَر

قَال مِن كَام يوم السَّقَّا مَا جَالِي

قُلْت مَالَك يَا سَقَا

قَال الْبِير نَشف وَبعيد عَلَيَّ الْبِير الثَّانِي

قُلْت مَالِك يَا بِير

قَال لِي الْمَيَّة فِي الأَرض مِش مِكَفيَانِي

قُلْت مَالِك يَا أَرْض

قَالَت لِي المَطَر مِن زَمَن مَا رَوَانِي

قُلْت مَالِك يَا مَطَر

قَال لِي السَّحَاب بِيرُوح مَكَان ثَانِي

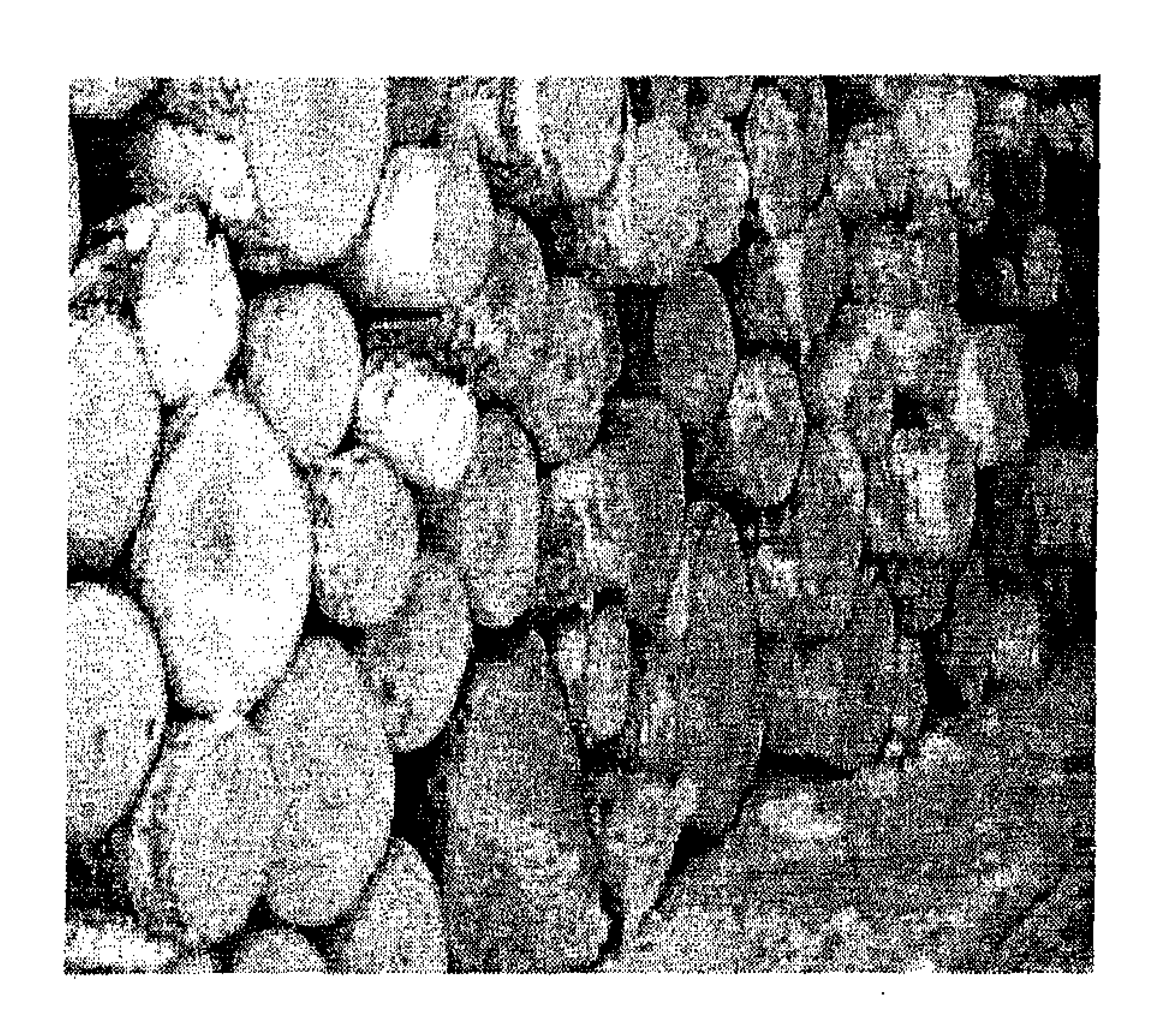
قُلْت مَالَك يَا سَحَاب

قَال لِي أَنَا مُسَيَّر بِأَمْر رَبَّانِي

قُلْت سُبْحَانَك يَا رَب

قَالُوْا لِي قَادِر يَجْعَلُهُ غَوْرَا أَو مَاء جَارِي

العقدة كسرت المنشار



العقدة كسرت المنشار يا ترى فين حلها

* * *

الديون زادت كام مليار مين يقدر على سدها

العمالة في النقابة طالبة علاوة عشان تزود دخلها

الفلاحين منين يدفعوا للسماد والتقاوي زاد سعرها

فين قمحنا بتاع زمان دي البلد راحت تستورد أكلها

قطننا قصرت تيلته مصانعنا إزاي حتغزل غزلها

ألوف من البطالة على القهاوي غابت عن وعيها

حكومتنا ضاعت في الزحام وراحت تنعي بختها

* * *

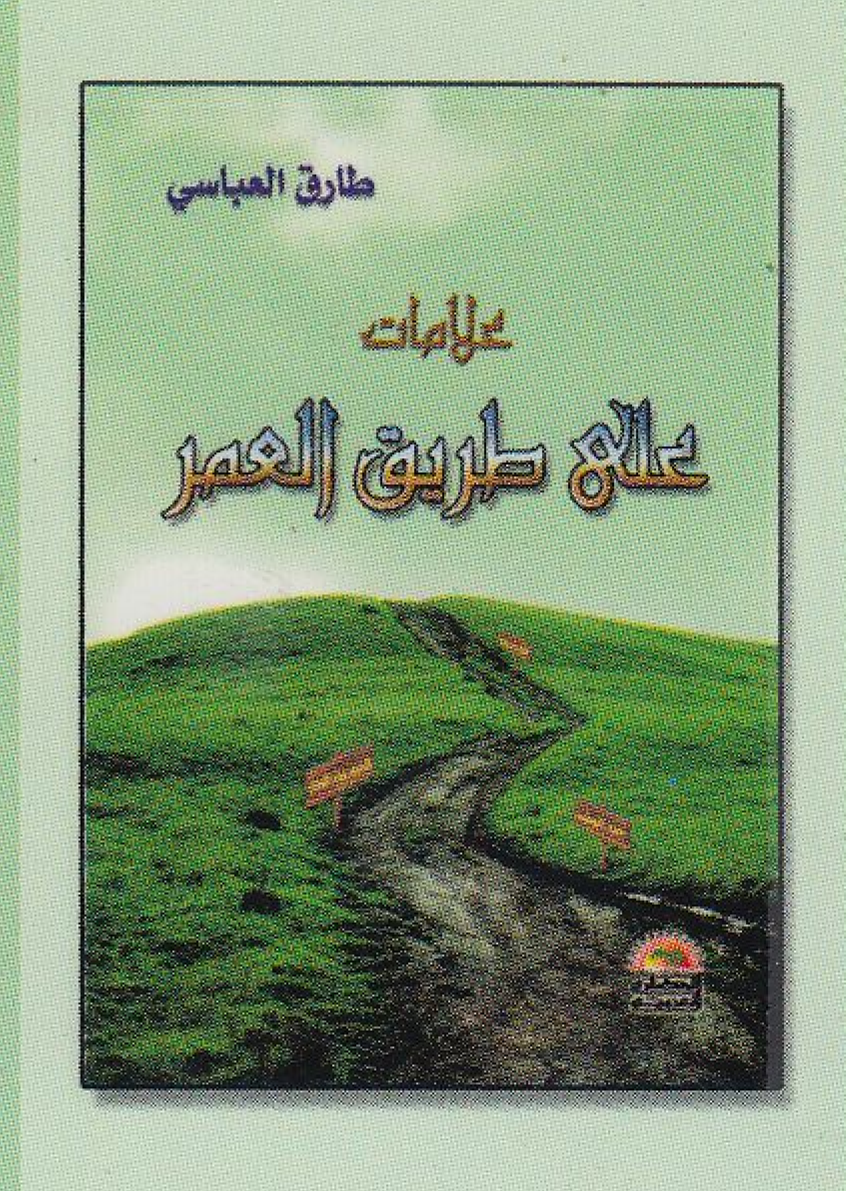
العقدة كسرت المنشار يا ترى فين حلها

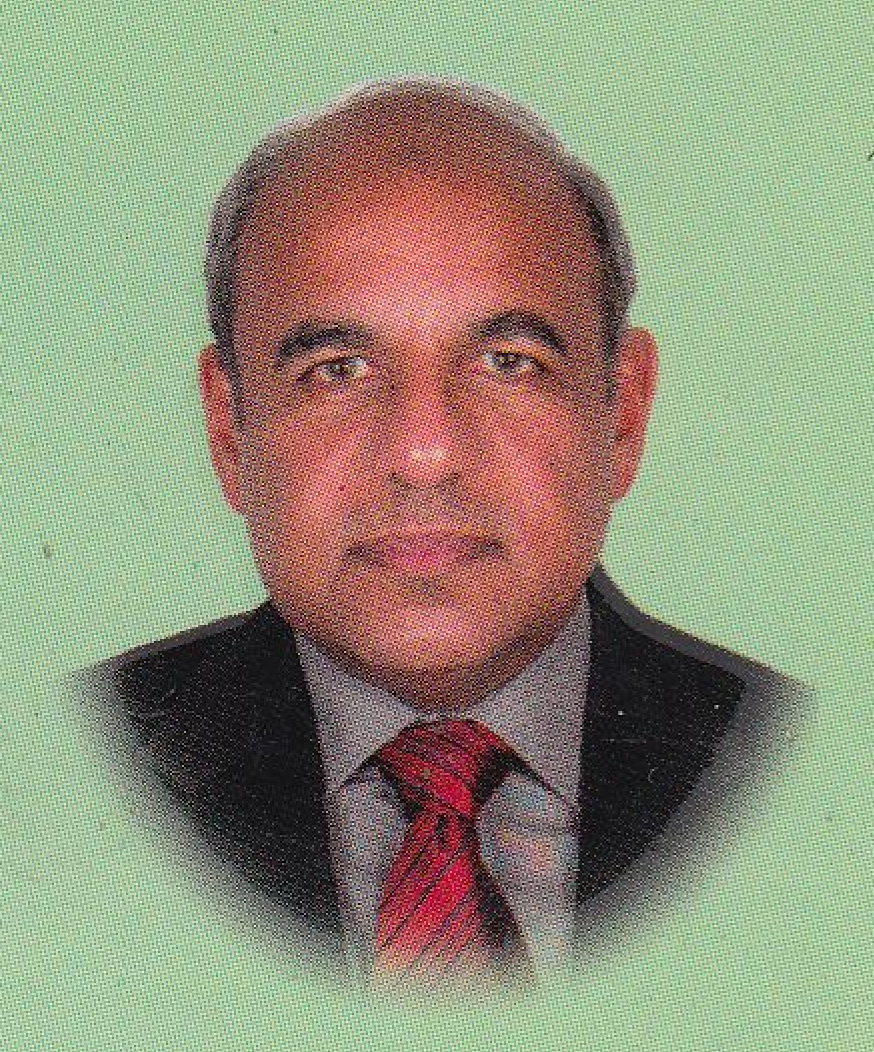
من قائمة الإصدارات

رحلة الكلمات	د. علي فهمي خشيم
البرهان على عروبة اللغة المصرية القديمة	د.علي فهمي خشيم
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث	صلاح زكي
رسالة إلى العقل العربى	د. عبد الحكيم بدرار
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدرار
المرأة والسلطة	د. عفاف عبد المعطي
صورة العرب والمسلمين في العالم	د. عزة على عزت
العروبة المفتري عليها	د. محمد عبد الشفيع عيسى
مسارات المستقبل العربى والمصرى	د. محمد عبد الشفيع عيسى
اغتصاب الذاكرة	إيهاب الحضري
الصراع على الخليج وتوظيف الإسلام السياسى	محمد سعيد ريان
التفكير الأسطورى في الإسرائيليات	عبد الله سالم مليطان
الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية(لغة الشارع)	د. عزة عزت
يوتوبيا البحث العلمى: الحرية الأكاديمية	سوسن الشريف
الجريمة السياسية (دراسة مقارنة)	د. أحمد عبد الوهاب
الناصرية هل تجاوزها الزمن؟	محمد يوسف
جمال عبد الناصر.. مشوار زعيم ونضال أمة	صبري غنيم
نظرة الغرب إلى الإسلام	ترجمة:د. علي فهمي خشيم
المسلمون في الغرب	التجاني بولعوالي
الإسلام والغرب الأمريكى	محمد إبراهيم مبروك
الإسلاميون الجدد ..إلى أين؟	أسامة عبد الحق
الإخوان والسلطة (تحالفات واهية وصراعات دامية)	حمادة إمام
النبى الخاتم، هل وجد؟ ومن يكون؟	د. جمال الحسيني أبو فرحة
معاناة نفسية(رحلة داخل سراديب النفس ومعاناتها)	د. محمد حسن غانم
كيف تحافظ على صحتك النفسية؟	د. محمد حسن غانم
هاجس الكتابة	د. أحمد إبراهيم الفقيه

مستحيل الكتابة	د. أحمد الدوسري
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
في نور آخر (دراسات وإيماءات في الفن التشكيلى)	إدوار الخراط
الاستفهام بين النحو والبلاغة	د. الطاهر قطبى
الخطاب والقارئ	د. حامد أبو أحمد
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
البلد البعيد (دراسات في أدب جوته- شيلر....)	د. عبد الغفار مكاوي
اغتيال المتنبى	فيصل الياسري
أثر الأدب العربى في الأدب الغربى	د. يوسف عز الدين
المشهد القصصى	إدوار الخراط
إنتاج الدلالة الأدبية	د. صلاح فضل
قص، يقص: دراسات في القصة القصيرة والرواية العربية	د. ماهر شفيق فريد
التحليل النفسى للأدب	د. محمد حسن غانم
القصة .. تطورًا وتمردًا	يوسف الشارونى
الأسلوبية والظاهرة الشعرية	د.السيد إبراهيم
الصوت والصدى(قراءة في المشهد الإبداعى)	السيد رشاد
المسرح والأسطورة (دراسات في الظاهرة المسرحية)	ادوار الخراط
سينما الحب والغضب	يسري حسين
طقوس الزار	محمد مهدي قناوى

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية





قد يمر الناس في طريق سفر طويل ولا يتركون ورائهم أثرًا وقد يتوقف بعضهم ليرسم إسمه على جدار أو ينقشه على حجر أو يحفر وجه حبيبه على جذع شجرة ظنًا خاطئًا منه أن ذلك قد يخلد ذكراه. بالطبع لم يكن هذا ما أبغيه ولكني أردت أن أصنع من فصول كتابي هذا علامات أضعها عند كل موقع توقفت عنده في طريق رحلة عمري كي أرشد بها الآخرين من أجيال عاصرتها أو أجيال تأتي من بعدي ليتجنبوا خطأ قد إقترفته أو كبوة وقعت بها وليصلحوا نقصًا رصدته أو يكملوا نجاحًا أحصيته وليحصّلوا علمًا ألممت به أو يدركوا حكمة إنتفعت بها.



الحضاري العربية